حضارات الهند

عنوان الكتاب: حضارة الهند

الكاتب: غوستاف لوبون

ترجمة: عادل زعيتر

تصميم الغلاف: سلمى جمال

رقم الإيداع: 2025/28870

الترقيم الدولي: 978-633-8379-48-3

رقم تليفون: ٠١٠٩٣٤٧٨٤٧٩

دار الرونق للنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة © لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تجزئته في نطاق استعمال المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال المعروفة حاليا أو التي ترد مستقبلا دون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف، الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة على توجه دار الرونق للنشر والتوزيع بل تعبر عن رأي المؤلف وتوجهه في المقام الأول وكل ما وكل ما يحتويه الكتاب مسئولية المؤلف.

حضارات الهند

الجزء الأول

تأليف

غوستاف لوبن

ترجمة

عادل زعيتر

إهداء الكتاب

إلى النائب ووزير الأشغال العامة السابق ووزير المالية الحالي مسيو سادي كارنو؛ اعترافًا بما شمل به بعثة المؤلف العلمية إلى بلاد الهند من العناية.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الهندُ زُبدة جميع العوالم، وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ، وصورةٌ صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة، ولا يَتجلَّى الماضي للسائح كتجلِّيه في بلاد الهند، ولا يحسُّ السائح ما اعتور أجيال البشر من تطور وما بين هذه الأجيال من فروقٍ ومن روابطَ بأحسنَ مما في الهند؛ فالسائح يعلم هنالك، فقط، أن الحاضر منحدِر من الماضي، وأنه يحمل في أثنائه بذور المستقبل.

والهند تمثَّلت لخيال الأمم أرضًا لكل عجيب، فكانت عُرْضة للمغازي الأجنبية منذ القديم، وكان الأجنبي إذا ما دخلها استقر بها، واستغلها استغلالًا محليًّا، فلم يفكر في إخراج خيراتها منها.

ويفتح الإنجليز بلاد الهند الواسعة الزاخرة بالسكان في القرن الثامن عشر بمال الهند وجند الهند، فيسلكون في استعمارها طريق نفع إنجلترا دون الهند؛ فيمتصون بركات الهند ليرسلوها إلى بريطانية، وفي سبيل الهند يحتل البريطان مصر فلا يَجْلُون عنها، وفي سبيل الهند يفصل البريطانُ السودانَ عن مصر، وفي سبيل الهند يقتطع البريطان في القرن العشرين جنوب الشام المعروف بفلسطين، فيُمعِنون في تهويده ممثِّلين في أهله العرب مأساةً أندلسية ثانية، والهندُ قُطْر عظيم يسكنه مئات الملايين من الآدميين، والهندُ قطر عظيم يملِكه الإنجليز بألف موظف بريطاني وبجيش بريطاني لا يزيد عدد جنوده على مائة ألف!

وأبحث عما وُضع في اللغة العربية عن الهند، فلم أجد سوى مقالات قليلة هزيلة مبثوثة في بعض المجلات العربية، ولم أجد سوى بضعة كتب صغيرة خاطفة لا تُسمن ولا تُغني من جوع، فيروعني ذلك، فأرى أن أُتِمَّ

هذا النقص بأن أنقل إلى العربية إحدى غُرَر الكتب المهمة التي أُلِّفَت عن الهند.

وينشر العلامة الفيلسوف «غوستاف لوبون» سنة ١٨٨٤ كتاب «حضارة العرب» الجليل الخالد، ويتخذ في وضعه مِنهاجًا لم يسبقه إليه أحد، ويعرض فيه صورة واضحة لتلك الحضارة العظيمة التي رغب في بعثها، فيبدو فريدًا في بابه، فتسير بذكره الركبان، وننقل هذا السِّفر العظيم إلى العربية وننشره في سنة ١٩٤٥، ويتقبله العرب بقبول حسن.

وترسل الحكومة الفرنسية العلامة «لوبون» على رأس بعثة آثارٍ إلى بلاد الهند، ويجوب «لوبون» الهند طولًا وعرضًا فتسفر بعثته إليها عن وضعه سِفرًا جليلًا خالدًا آخر، فيسميه «حضارات الهند» وينشره سنة ١٨٨٧ فيعْدِل هذا الكتاب «حضارة العرب» ضخامةً وروعةً وطرافةً وَيُعَدُّ توءمًا له.

ويستعين العلامة «لوبون» في كتاب «حضارات الهند» بالأصول التي اهتدى إليها في كتاب «حضارة العرب» على الخصوص، فيعوّل، كما ذكر، على مُحكم الأسانيد، ويعرض تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعوامل هذه التطورات، ويبحث في الحوادث التاريخية كما يُبْحث في الحادثات الطبيعية، ويبعث الأجيال الغابرة بما انتهى إليه من الكتابات والنقوش والرسوم وبِعَرْض صورٍ لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التي هي مَنْبِت كثير من المدنيات والمعتقدات.

ويسير العلامة «لوبون» في كتابه «حضارات الهند» على طريقة التحليل العلمي، شأنَه في كتاب «حضارة العرب»، فيوضح فيه الصلة بين الحاضر والماضي، ويظل مخلصًا فيه لسنن النفس والتطور، فينتهي إلى نتائج لم يصل إليها عالم قبله، فيظهر هذا الكتاب للعالم بِدعًا في درس حضارات الهند درسًا شاملًا، ويظهر هذا الكتاب خيرَ كتاب عن الهند، إن لم يكن من أحسن الكتب عنها، وذلك في بابه وروحه ومناحيه وقوة التحليل فيه، ووصول «لوبون» فيه إلى ما نَشَده من الأهداف الاجتماعية والأدبية والدينية والسياسية، إلخ.

ويقع نظري على كتاب «حضارات الهند» هذا، وأقرأه بالفرنسية غير مرة وأسأل: هل أُوفَّق لنقله إلى العربية موطِّنًا موضوعاته الطريفة ومباحثه القاسية الكثيرة الأصول والفروع التي لا عهد لنا بها، ووضعِها في قالب عربي خالص! ويهون الأمر لديَّ، بعد تردد، خدمةً للعرب في السياسة والعلم والأدب، فأعزم على ترجمة هذا الكتاب إلى العربية.

وترجمتنا لهذا الكتاب التاريخي الاجتماعي السياسي العظيم حَرْفية، وراعينا مبدأ حرفية الترجمة من أول الكتاب إلى آخره مع الانسجام وعدم الإبهام وسهولة المنال.

والكتابُ خاصٌّ بالهند، ويشتمل على نحو ألف من أسماء الأعلام، وتعوَّدنا كتابة هذه الأعلام منقولة عن مؤلفات الغرب، فنكتب في صحفنا وكتبنا، مثلًا، الكلمات: بوذا، وهيمالايا، وبومباي، ودلهي، إلخ. مع أنها تُكتب بالحروف العربية في الهند هكذا: بُدَّهة، وهِمَالْيَة، وبَمْبِي، ودهلي، إلخ، وأردنا أن نكتب أسماء الأعلام التي تشتمل عليها ترجمة هذا السِّفْر كما في الهند، فبذلنا جهودًا غير قليلة للحصول على جداول خاصة من الهند وغيرها، فكان ما يجده القارئ في هذه الترجمة من رسم تلك الأسماء مثل ما في الهند.

وقضينا في سبيل ذلك كلِّه أوقاتًا شديدة، ولاقينا مصاعب كثيرة يقدرها القارئ، ولم نرَ أن نضع لهذه الترجمة مقدمة مطولة ما نشرنا في آخر الكتاب فهرسًا مفصلًا للموضوعات، وما رأينا قيام هذا الفهرس المفصل مقام المقدمة المطولة، وحافظنا على مظهر الكتاب كما في الأصل على قدر الطاقة، فلم نستثنِ من صوره ورسومه سوى بعض ما نشره المؤلف بقصد تزيين الكتاب، فيقوم ما اخترناه منها، وهو معظمها، مقامه، ويؤدي إلى الغاية التي وضعها المؤلف أمامه، وفي الكتاب خريطتان من تخطيط المؤلف رأينا إبقاءهما على حالهما لاكتسابهما قيمة أثرية مع الزمن.

وإننا نطمع أن تمتاز هذه الترجمة، التي لم نتجوَّز فيها قط، بالصحة والوضوح والدقة فلا يضيع فيها معنى، ولا يضطرب فيها لفظ، والله الموفق.

عادل زعيتر

نابلس، فلسطين

مقدمة المؤلف

الهند من الأقطار التي شملت نظر العلماء والسيَّاح والمتفننين والشعراء، وأثارت فيهم حب الاطلاع في كل حين، والهند عالَمٌ يختلف عن عالَمنا بجوّه وهوائه وأرضه وسكانه، ولا شبه بين ما تعرفه الهند وما يعرفه الغرب من الأصول الدينية والمبادئ الفلسفية والفنون والآداب والنظم والمعتقدات.

ذلك العالَم العجيب هو زُبدة جميع العوالم، وخلاصةٌ ناطقة لجميع أدوار التاريخ، وصورة صادقة للأطوار المترجحة بين الهمجية الأولى والحضارة الحديثة.

ظلت تلك الأطوار التي جاوزها البشر دفينة تحت أعفار العصور زمنًا طويلًا، وحديثًا بدأنا نرفع الكفن الكثيف الذي يرقد تحته أجدادُنا، وأخذنا نبعث أسس معتقداتنا ومشاعرنا وخيالاتنا.

والعلم لم يستطع، بالحقيقة، أن يُثبت الأطوار التي قطعها الغرب؛ ليبلغ ما وصل إليه من المزاج النفسي والنظام الاجتماعي إلا بعد أن ارتاد حَمَلَتُه أقطارًا كثيرة ذات أمم متفاوتة في نشوئها وارتقائها.

وفي الأرض بقعة واحدة تكتنف مختلف العروق الممثِّلة لجميع تطورات الماضي تقريبًا، وتلك البقعة هي ذلك القُطْر الواسع العجيب الذي وقفنا هذا السِّفر لدرسه؛ ففي ذلك القطر إجمالٌ لتاريخ البشر ما اشتمل على جميع الأجيال، وفيه تبدو جميع الحضارات حيَّةً أو ماثلة في عظيم الآثار، وفيه نبصر ما اعتور نُظُمَنا وعاداتنا من متعاقب الصور والأجيال منذ البداءة إلى الزمن الحاضر.

ويكاد يكون مفقودًا ما اصطُلِح على تسميته بحوادث التاريخ التي يُظَنُّ أنها ضرورية لبعث ماضي الهند، ولا نأسف على ذلك كثيرًا، ما أدَّت

أخبار الملاحم والفتوح وأنباء الأُسَر المالكة التي تملأ كتب التاريخ إلى حَجْب سَيْر حياة الأمم الحقيقية وإخفائها، وما ودَّ المفكرون أن يعرفوا مجرى الأخيلة والمعتقدات والمشاعر السائدة لأحد الأجيال، وتأثيرَ مختلف العوامل التي أوجبتها.

وفي كتابنا الذي جعلناه مقدمةً لتاريخ الحضارات١ بينَّا كثرة تلك العوامل، وأن الأمم جاوزت مراحل تطور متماثلةً مع تباين تاريخ هذه الأمم الظاهر، وأنه إذا ما رُئي أحيانًا تباينٌ واضح بين أمتين فلِمُصَاقَبَتِهما أَوْجُهَ تطور مختلفة على الخصوص.

ونحن، وإن لم يكن لدينا تاريخٌ للهند بالمعنى الصحيح، نجد في الهند من الآثار الدينية والفنية والأدبية ما يَبْلُغ قِدَم بعضه نحو ثلاثة آلاف سنة، ولهذه الآثار من الأهمية ما ليس لقصص المؤرخين؛ فبمثل هذه الآثار نَنْفُذ حياة الأمم، فنقوشُ معبدٍ هندوسيّ خَرِبٍ خيرٌ من تواريخ الملوك في إخبارنا عن سرائر قدماء الهندوس، وقُلْ مثل هذا عن كتب الأدباء والقصائد والأقاصيص والأساطير الدالة على تلك السرائر.

وفي الآثار الأدبية يجب أن يُبْحَث عن روح الأمم؛ فالشعراء والقاصُّون إذ كانوا سريعي الانفعال شديدي التأثر فإنهم يُعانون تأثير بيئتهم؛ أي تأثير عِرْقهم وعصرهم، أكثر مما يعانيه العلماء والمفكرون، ويَبْدُون مرآةً صادقة بليغة لهما.

أَجَلْ، إن الشعراء والقاصِّين يُشَوِّهون ما يصفونه، ويبالغون فيما يعبّرون عنه، ولكنه ينطوي تحت ذلك التشويه، وتلك المبالغة معانٍ كثيرة؛ فالشعراء والقاصُّون يتقمَّصون روح زمنهم فيألمون ويترنمون بآلام أبناء قومهم ومسارّهم وأمانيّهم، ويترجمون عن عواطف أممهم وعن عقائد عصرهم ومشاعره، فلا يكون أمر أية حضارة مجهولًا ما استوعبت ذاكرة الناس قصائدَ الشعراء وأقاصيص القاصِّين.

بَيْدَ أن فهم معنى آثار الشعب الأدبية والفنية، ولا سيما آثار الهندوس، يتطلب دراسة هذه الآثار في أماكنها، فبدراسة الحضارات في الأماكن التي ظهرت فيها وكَمُلَت نتمكَّن من الاطلاع على روحها، ونتحرَّر من الحكم فيها بأفكارنا العصرية، فلن يقدر علماء أوروبا على اكْتِنَاهِ عبقرية أمة آسيوية ووصفها، بتصفح ما في المكتبات من الكتب.

حقًّا أن الهُوَّة التي تفصِل بين أفكار رجل غربي عصري وأفكار رجل شرقي عظيمةٌ جدًّا، فما في أفكار الغربي من الدقة والإحكام يختلف كثيرًا عما في أفكار الشرقي من الإبهام والتموُّج، ومن العبث أن يطمع الغربي في استنباط ثبات أفكار الشرقيين من عدم تحول عاداتهم، وبلغت أفكار الهندوسي ومعتقداته من الغموض والتذبذب ما تُقصِّر معه لغاتُنا اللاتينية «الفقيرة في النعوت مع ما فيها من ضبط» عن الإفصاح عنها في الغالب.

***

اقتصر علماء أوروبا في مباحثهم التاريخية عن الهند على ترجمة الأسانيد السنسكرِتية مع أن السنسكرِت، لدى الهندوس، لغة ماتت منذ عدة قرون، ويكاد شأنها عندهم يكون مماثلًا لشأن اللغة اللاتينية في أوروبا، فتكون معرفتنا لتطور الهند من دراسة كتب الآداب القديمة وحدها متعذرة تعذُّر معرفتنا لأحوال الناس في القرون الوسطى وفي عصر لويس الرابع عشر من دراسة كتب سيسرون وفيرجيل فقط.

ومن العسير أن نستعين بالكتب وحدها فنطلع على ما في الويدا من الشعر الأغرّ، وما أُثِر عن قدماء الحكماء من التأملات الفلسفية، وما لا يحصى من الآلهة، وما يخالف الذوق من الطقوس الصارمة، ففي الهند نفسها يجب البحث عن حضارتها الكبيرة الرفيعة، وآثار عظمتها المحيرة للعقول، فلا يتجلى مِفتاح الأسرار المملوءة بها آداب الهندوس إلا في

أطلال مدنها القديمة، وفيما هو ماثل بين صُرُود1 هِمَالْيَة المتجمدة وسهول الدَّكَن المحرقة من أطلال المدن القديمة ونقوش الزُّون2 والقصور الزاهية الهائلة التي لم يَرُدْها الرُّوَّاد إلا حديثًا؛ ففي هذه الكتب الحجرية التي لا تعرف الكذب تحفظ أفكار الأمم.

ومنذ عهد قريب فقط فُطن إلى أهمية ذلك الطراز في البحث، فبينما يقضي كثير من العلماء أوقاتهم في درس كتب الأدب البرهميّ فيُسفر ذلك عن وضع ضخم المؤلفات، وبينما يملأ أولئك العلماء في العواصم الأوروبية الكبيرة ما لا يُعدُّ من الدفاتر، تجد اتجاهًا حديثًا إلى دراسة آثار الهند ومبانيها في أماكنها.

ولا مراء في أن الحكومة الإنجليزية عيَّنت لجنة خاصة لبلوغ ذلك الغرض، غير أن هذه اللجنة لم تصنع غير حلِّ الكتابات وفكِّ رموزها على الخصوص، ولم تنشر سوى رسوم هندسية لقليل من الآثار بدلًا من عرض صور هذه الآثار عرضًا يَعْلم الغربي منه وجود فنون تختلف عن فنونه اختلافًا تامًّا.

وتزيد ضرورة معرفة تلك الآثار معرفة تامة ما أغضى الأوروبيون الفاتحون عن دثورها بفعل الزمن إن لم يُقوِّضوها بمَعَاوِلِهم، فإذا ما أريد الحكم على ما يصل إليه الأمر في المستقبل بما يقع في هذه الأيام قلنا إنه لا يبقى شيء من تلك العجائب التي أقيمت في قرون كثيرة قبل انقضاء خمسين سنة، وإنني أذكر ما حدث في مدينةِ كَهْجُورَا القديمة مثالًا من بين ألوف الأمثلة المماثلة على ذلك الاستخفاف بالآثار، فقد زال في الأربعين سنة الأخيرة نحو ثلث المعابد الستين التي كانت تزيّن جيد هذه المدينة.

1 الصرود: جمع صرد، وهو المكان المرتفع في الجبال.

2 الزون: الموضع تجمع فيه الأصنام وتزيَّن.

قال الجنرال الإنجليزي كَنِنْغهم منذ بضع سنين: «يستحيل على الباحث أن يجوب الهند من غير أن يأسف على ما أصيبت به بقايا مبانيها الأثريَّة، ولم تصنع الحكومة في قرن بعد الفتح الإنجليزي شيئًا تقريبًا لحفظها وصيانتها، مع أنها المصدر الوحيد لمعرفة أحوال الهند الغابرة التي لم يدوَّن لها تاريخ، ولا ريب في زوال الكثير منها إلى الأبد ما لم تُخَلَّد بتصويرها ووصفها وصفًا مبينًا».

فإذا حدث ما توقعه الجنرال كننغهم، وذلك ما نكاد نبصره، أصيبت البشرية بخُسْر لا يعوَّض منه؛ فالبشرية إذ سلكت سبيلًا جديدًا بفعل مبتكرات العلوم، وأضحت بذلك قادرة على التعبير عن أفكارها بسرعة عادت لا تحتمل صوغ هذه الأفكار في قوالب حجرية يتطلب صنعها عدة قرون، فلن نقيم من المباني العجيبة كالتي أقيمت في عصور الجاهلية والإيمان، وليس لدينا ما يحفز إلى إقامة إهرام وكنائس غوطيةٍ في زمن البخار والكهرباء.

والحكومة الفرنسية إذ أدركت ما لآثار الهند من القيمة الفنية والتاريخية عَهِدَت إلينا في دراسة هذه الآثار حيث هي، فأسفرت بعثتنا عن وضع خمسة مجلدات مشتملة على أربعمائة صورة موضَّحة، فاقتبسنا بعضها في هذا السِّفر.

وقد اعتمدنا على دراسة آثار الهند، فنقيم كتاب «تاريخ حضارات الهند» هذا على أساس متين، فقد زُرنا جميع مباني الهند المهمة، ومنها ما هو قائم في البقاع التي لم يَرُدها الباحثون إلا قليلًا، كمنطقة نيبال التي لم يدخلها فرنسي قبلنا، فاستطعنا أن نجلو أمورًا كثيرة في تاريخ الهندوس الديني وحضارتهم؛ فمن ذلك أننا أثبتنا بما قمنا به من دراسة المباني أن البُدَّهِيَّة، التي أراد علماء أوروبا أن يجعلوا منها ديانة بلا إله مستندين في ذلك إلى كتب المذاهب الفلسفية التي وُضعت بعد ظهور بُدَّهة بستمائة سنة، هي أكثر الأديان قولًا بتعدد الآلهة، وأوضحنا كيف غابت هذه الديانة عن البلد الذي نشأت فيه غيابًا لم يجد العلماء له حلًّا قبلنا.

واستعنَّا في هذا الكتاب بالأصول التي اهتدينا إليها في كتبنا السابقة، ولا سيما كتاب «حضارة العرب»، فعوَّلنا على محكم الأسانيد، وعرضنا تطورات النظم الدينية والاجتماعية وعوامل هذه التطورات، وبحثنا في الحوادث التاريخية كما يُبحث في الحادثات الطبيعية، ودرسنا المذاهب بحذر؛ فكان لنا بذلك كلِّه نهج خاص.

وبتلك الأصول تمكَّنَّا من الوصول إلى ما في مبادئ الهند الفلسفية والدينية والاجتماعية المعقدة من المعاني البعيدة الغَوْر، وإلى إظهار ما للآلهة القديمة الآفلة من الجبروت والتقديس.

•••

وللفرنسيين فائدةٌ عملية واضحة من الاطلاع على أحوال الهند الحاضرة، فضلًا عن الفوائد التاريخية والفلسفية والفنية التي تُجْتنى من دراسة ماضيها، فمن المهمّ أن يُعرف في هذا الزمن، الذي يتحدث الناس فيه عن الاستعمار، كيف استطاعت أمة أوربية أن تسيطر بألف موظف وستين ألف جندي على إمبراطورية مؤلفة من ٢٥٠ مليون شخص، وقد أتيح لي بما اتفق لي من الصلات بأكابر موظفي الإنجليز في أثناء إقامتي بالهند، أن أطلع على دقائق إدارة الهند العجيبة التي لا تعرف أوروبا عنها إلا قليلًا.

وهنالك أسبابٌ أهمُّ من تلك على ما يُحتمل، تدعو إلى البحث في شئون الهند الحديثة؛ فقد اقتربت الساعة التي يتقابل فيها الشرق والغرب بفعل الكهرباء والبخار، والشرق والغرب ما تعلم من وجود هُوَّى عميقةٍ بينهما في الحياة والتفكير حتى الزمن الحالي، ودَنَا الغرب وحضارته من دور الخطر في الصراع الهائل الذي سيقع في عالم الصناعة المهلك، لا في ميادين القتال، بين أمم متساوية في كفاءاتها المتوسطة، متفاوتة في احتياجاتها تفاوتًا عظيمًا، فيَحِيق الخطر فيه بالغرب، وإن شئت فقل بالحضارة، فما هي نتائج هذا الصراع؟ وإلى أي مدًى نداوم على منح أمم

الشرق من الأسلحة المادية والثقافية ما ستصوبه إلينا؟ لمثل هذه المسائل من الأهمية ما لا يجوز أن نسكت عنه في هذا الكتاب.

فتاريخ حضارات الهند، إذن، ليس قصصًا لماضٍ أدبر إلى الأبد، بل هو تاريخ ينطوي، أيضًا، على مجهولات هائلة.

ولم يخلُ من نقصٍ هذا الكتاب الذي هو بِدْعٌ في درس حضارات الهند درسًا شاملًا، وسنبلغ به، مع ذلك، الهدف ما رسمنا صورة ناطقة للأطوار المتتابعة والأجيال المتعاقبة التي اعتورت المجتمع الهندوسي الذي لا تزال حضاراته القديمة قائمةً منذ ثلاثة آلاف سنة وما بيَّنَّا ما يكون لمقادير هذا المجتمع من أثر كبير في مستقبل العالم.

أَجَلْ، لقد بعثنا تلك الأجيال الغابرة بما انتهى إلينا من الكتابات والنقوش والرسوم، وبعرض صور لبعض آثار تلك البلاد الهائلة التي هي مَنْبِت كثير من المدنيات والمعتقدات مستعينين بالقلم والريشة، ولكن أية ريشة أو أي قلم رصاصي يستطيع أن يخبرنا بجمال تلك البلاد القاصية التي يشعر السائح الأوربي عند دخولها بأنه انتقل إلى عالم جديد عجيب في أرضه وسمائه ونباته وحيوانه؟ وكيف يمكن وصف تلك الديار الساحرة التي أقامت الجبال الشاهقة الجبارة حولها نطاقًا أبديًّا من الثلوج، أو وصفُ تلك المدن الخامدة الواسعة سَعَة عواصم أوروبا، والتي توحي معابدها الرائعة وقصورها المهجورة البادية من خلال الخمائل إلى السائح أنه أصبح في مدن الغيلان التي لعنها من في السماء؟ وما هو السبيل إلى عرض ما تؤثِّر به في النفس تلك المعابدُ الحافلةُ بالأسرار، والداخلةُ أعماقَ الجبال، والمشتملةُ على ألوف الأصنام الحجرية التي تظهر للأعين على نور المشاعل فيُخَيَّل إلى الناظرين أنها عبيدٌ خُرْسٌ لربِّ الأموات؟ يكاد قلم الرسام الماهر ينقل إلينا جلال تلك القصور الرخامية الهائلة المرصعة بالحجارة الكريمة والمُشْرِفَة على أسوار من الغرانيت الأحمر كالدم القاني؛ فتبدو صاعدةً في سماء لا يحجب زَرَقَها سحاب.

ألا إن الماضي لا يتجلى للسائح كتجليه في بلاد الهند، وإن السائح لا يُحِسُّ ما اعتور أجيال البشر من تطور، وما بين هذه الأجيال من فروق، ومن روابط بأحسن مما في الهند؛ فالسائح يعلم هنالك، فقط، أن الحاضر منحدر من الماضي، وأنه يحمل في أثنائه بذور المستقبل، وأن خيالاتنا وطبائعنا ومبادئنا انتقلت إلينا بالإرث من غابر الأجيال التي لا نقدر أن نقلِّل من سلطانها وإن أمكن جهلُها، فمن خلال الأجيال القديمة نكتشف، بالحقيقة، أصولَ نُظُمنا ومعتقداتنا ونبصر ما لها من السلطان العظيم وأنها تقود كلَّ شيء إلى مصيره الخفيّ بسلسلة من التطورات البطيئة3.

3 لا أرى أن أختم هذه المقدمة قبل أن أشكر للأشخاص الكثيرين ما حبوني به من المساعدة التي لا تقدر بثمن في أثناء سياحتي في الهند، أو في إخراج هذا الكتاب، وإن أَنْسَ لا أَنْسَ العون الذي لقيتُهُ من حكومة الهند الإنجليزية، والقِرَى الذي نلتُهُ من موظفيها، ومن أمراء الهند الأصليين، وإنني إذ لا أستطيع أن أَعُدَّ هنا جميع من انتفعت بخِدَمِهم أقتصر على ذكر من عَلَق بذهني منهم اتِّفاقًا، فأذكر حكومة نائب الملك بكلكتة، ولا سيما وزارة الداخلية التي أَعُدُّني مدينًا لها بمجموعة ثمينة من الكتب عن الهند، وأذكر الجنرال أنيسلي الذي عُني بأمري عناية فائقة في أيام إقامتي بالهند، وأذكر حاكم الهند الوسطى سير ليبيل غريفين، وحاكم منطقة بَنْجِي سير فيرغوسن، ومفوض راجبوتانا الكولونيل براد فورت، ومفوض الحكومة الإنجليزية بأجمير مستر ساوندرس، والميجر كولينغوود بجبل آبو، والجنرال مارتر بأغرا، ومدير متحف لاهور مستر كيبلينغ، والوزير المقيم بأودي بور الكولونيل والتر، والبندت براتاب جوتيشي بأودي بور، والوزير المقيم بغواليار الكولونيل بيركيلي، والميجر روبرت أنيسلي ببنارس، وجراحي السفارة الإنجليزية بنيبال؛ الدكتور جيمليت، والقنصل الفرنسي العام بكلكتة مسيو كرتزتر، ومسجلي القنصليات الفرنسية مسيو موئت ومسيو فواكس، والقاضي بكلكتة مستر كاري، والقاضي بجكن ناتهه مستر بورش، ومستر هندز المهندس ببيجابور، ومستر هيث المهندس بأغرا، ومستر بلاك المهندس ببيجا نغر، وحاكم بوندي جيري مسيو ريثو، وجباة كنبه كونم وتري جنابلي ومدورا، إلخ، والكولونيل كوكبرن بحيدر آباد، ووصي مملكة جتربور بنديل كهند وصاحبة العظمة ملكة بهوبال، إلخ إلخ.

وإذا عَدَوْتَ بضعة رسوم أعدني مدينًا بها لمرمم تاج محل، والمهندس المفضال مستر هيث فلم أنشرها، وجدت معظم صور هذا الكتاب قد صنعت على طريقة التجويف الفوتوغرافي «الهليوغرافور» بحسب الصور الشمسية التي التقطناها، أي من غير استعانة بنقاش أو رسام، وقام مسيو بيتي بهذا العمل الشاق خير قيام، لا يسعني سوى الإعراب عن رضاي التام بما بذل من همة عظيمة ذاكرًا أن مجوفاته الفوتوغرافية «فوتوغرافور» على النحاس هي أعلى من جميع ما انتهيت إليه حتى الآن من الطرق المماثلة.

وقد رأى السادة «فيرمان ديدو» أن يكون هذا السِّفْر محلًّا لعنايتهم كما اعتنوا بكتاب «حضارة العرب»، فشملوه برعايتهم يوميًّا فلم يقصروا في الإنفاق بسخاء على طبعه، فأعلن شكري العظيم لهم.

الباب الأول: البيئات

الفصل الأول

الأرض والأجواء

(١) وصف بلاد الهند العام

يتألف من الهند عالَم مستقل في الكون من الناحية الطبيعية، فالطبيعة، كما يظهر، قضت على الهند بعزلة أبدية؛ لِما أحاطتها به من جبال هائلة، ومن بحار ذات أمواج مُزْبِدة تلطم سواحلها غير المِقراة،4 ويكفي المرء أن ينظر إلى حدودها؛ ليشعر بنشوء حضارة ثابتة فيها تقريبًا، وبهضمها للعناصر الأجنبية التي أغارت عليها، ولا تزال بلاد الهند الأرضَ المقدسةَ الحافلة بالأسرار التي حكى عنها شعراؤها الأقدمون، وظلَّت بلاد الهند الحصن المنيع مع إغراء كنوزها للفاتحين، واقتحام الكثيرين منهم لها في غضون القرون، ومع ما يبدو من سهولة مواصلاتها الحديثة التي زالت بها جميع العوائق، وقَرُبت بها كلُّ المساوف، فلا تجد طريقًا مهمًّا يمر من جبال هِمَالْيَة، ولا تجد ميناء سهلًا على شواطئها، فبلاد الهند هي، بالحقيقة، أكثر البلاد انغلاقًا وأصعبها انفتاحًا، ولم يخطر ببال شعب قديم عَمَرها أن يخرج منها بعد أن استوطنها.

وتلوح بلاد الهند المنعزلة أنها خلاصة العالم بتنوع مناظرها، فللهند كل الأجواء بسبب اتساعها وتفاوت ارتفاع بقاعها الكثيرة، فبينما يكون الحر شديدًا إلى الغاية في سواحل ملبار وكورومندل وسهول البنجاب ترى ربيعًا ساحرًا في رِداف الجبال وريحًا صرصرًا تلطم صُرُود5 الشمال العالية وأغطيةً من الثلوج مشابهةً لما في القطبين تسترُ شواهق هِمَالْيَة، وبينما تجري السيول مسرعةً في أوائل يونيو إلى السواحل الجنوبية الغربية فتغمرها وتملأ جداولها ينظر فلاحو أوريسة ووادي السِّنْد الذين أعياهم

4 المِقْراة: الكثيرة الضيافة.

5 الصرود: جمع صرد، وهو المكان المرتفع من الجبال.

الجفاف إلى سمائهم الصافية الحاقدة ضارعين باحثين في الرمال المحرقة عن أثر الأنهر الكبيرة النافدة.

وتشتمل بلاد الهند ذات المناظر الرائعة والعوارض المختلفة على سهول الغَنْج الخصيبة القريبة من صحاري تِهار الغُبر الدُّكْن، وعلى الأودية المُنْبِتة الواقعة بين هضاب الدَّكَن الجُرْد الجديبة، وعلى ما لا نظير له في الدنيا من الشِّعاف الهائلة المتصدعة المهيمنة على واحدة كشمير الجميلة المعدودة دُرَّة العالم.

ويمكن تفسيرُ تلك الظواهر الطبيعية التي رُئِي تسميتُها بنزوات الطبيعة في الهند بنتوء اليَبَس وعِظَم نَوْفه وبتفاوت توزيع المياه، فقد نجم عن ذَيْنِكَ السببين أن نشأ ألف بلد في بلد واحد، وأن جُمِعت الأماكن والأجواء في مساوف غيرِ متباعدة بما يزيد عن بضعة كيلو مترات مع انفصال بعض أمثالها عن بعض بألوف الفراسخ في خريطة العالم.

فلذلك نرى أن نعرف، قبل كل شيء، ارتفاعات بلاد الهند، واتجاه مجاريها، وعدد هذه المجاري وقيمتها، وسنُضيف إلى ما نعلمه من مسايل بلاد الهند وأنهارها بحثًا في توزيع أمطارها ورياحها الموسمية، فلِسماء الهند المِدْرار تقويم خاصٌّ ذو نتائج لا تقلُّ أهمية عما يجرى فوق بَرِّها.

وبلاد الهند مربعة الأضلاع مقسومةٌ إلى مثلَّثين متقاربين ذَوَيْ قاعدة مشتركة، فقِمَّة المثلث الشمالي هي ذروة جبل ننغا الذي هو من أعظم جبال هِمَالْيَة وقمة المثلث الجنوبي هي دروة جبل كُمَارى، والخط الذي يُعَدُّ قاعدةً مشتركة لذَيْنِكَ المثلثين هو الوَهْدة الضيقة العميقة الممتدة من خليج كَمْبي إلى نهر الغَنْج فيجري فيها نهر نَرْبَدَا ونهر سون اللذان يتَّجه أحدهما إلى الغرب والآخر إلى الشمال الشرقي.

وليس مجريَا ذَيْنِكَ النهرين وحدهما ما يُحَدُّ به ذانك القسمان الطبيعيان لبلاد الهند، بل يفصل بينهما، أيضًا، سلسلة جبال وِنْدهيَا في شمال تلك الوهدة، وسلسلة جبال سات بورا في جنوبها، فمن ثم تحول ثلاثة حواجز دون غزو الأجنبي للقسم الجنوبي من بلاد الهند برًّا على الأقل، وسترى أن

شواطئ هذا القسم الجنوبي ليست أقلَّ صلاحًا للدفاع عن تلك الحواجز الثلاثة.

ويتألف من المثلث الشمالي «الهندوستان الحقيقية»، وورد ذكر هذه الكلمة، التي تعني «بلاد الهندوس»، في أقدم أقاصيص الإغريق.

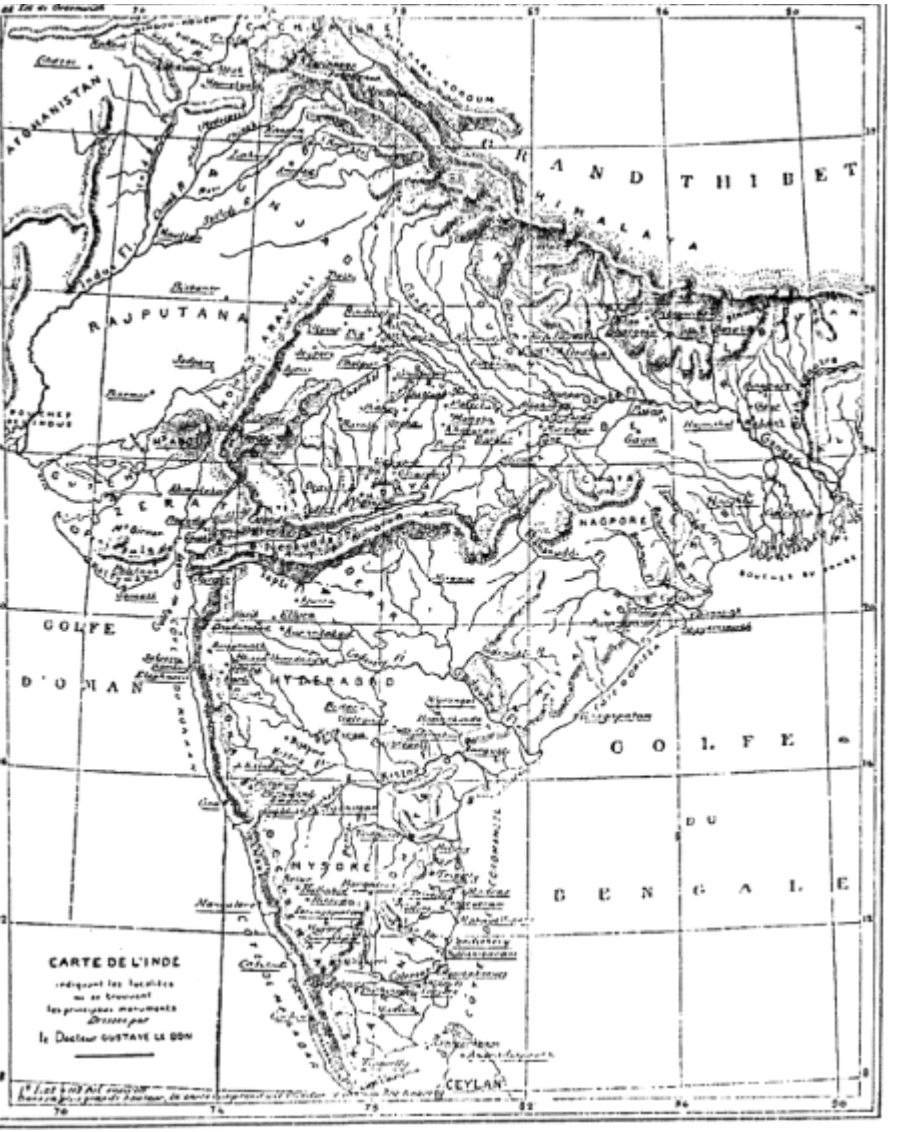
AFGHANISTAN
RAJPUTANA
HYDERABAD
NAGPORE
MYSORE
GOLFE D'OMAN
GOLFE DU BENGALE
CEYLAN
CARTE DE L'INDE
Le Docteur GUSTAVE LE BON

شكل ١-١: خريطة الهند «تشتمل علي اتساع يعدل ٧٥٠ فرسخًا تقريبًا، وفيها ذكر للأمكنة المحتوية على أهم المباني، وتعدل كل درجة عرض نحو ١١٢ كيومترًا»، «من تخطيط المؤلف».

أَجَلْ، يرى الغربيون أن نهر السِّنْد أعار من اسمه البلاد الحافلة بالأسرار الواقعة فيما وراءه فما فَتِئُوا يطمعون فيها، غير أنه لا يُسَلَّم بهذا على عِلَّاته ما احتمل اشتقاق اسم «الهند» من اسم الإله «إندرا».

والأمر مهما يكن فإن اسم الهند قد أطلق على كثير من البلدان، فمن ذلك أن تمثلت بلاد الهند لخيال الأوربيين أرضًا لكل عجيب ومنبعًا لكل ثروة، فبحثوا عن طريقها فبَدَوْا ضحية الأوهام في الغالب، فظن «كريستوف كولونب» أنه بلغها بسفنه حينما وصل إلى الدنيا الجديدة، فكان ما نعلمه من تسمية الدنيا الجديدة ببلاد الهند الغربية، ومن ذلك تسمية كثير من جُزُر آسيا والأوقيانوس بالاسم الذي أطلقه الإغريق على وادي السِّنْد.

وأما نحن فنقصد بكلمة الهند في هذا الكتاب شبه الجزيرة التي تحيط بها جبال آسام وهِمَالْيَة وكارا كورم وهندوكش وسليمان والبحر، ونقصد بكلمة «الهندوستان» المثلث الشماليَّ من بلاد الهند، ونقصد بكلمة «الدَّكَن» المثلث الجنوبي منها.

(٢) الهندوستان

يتألف أكبر حد للهندوستان من جبال هِمَالْيَة التي هي أعلى سلسلة في الكرة الأرضية، والتي ينظر الهندوس إلى شعافها المقدسة باحترام فيسمونها «سَقف الدنيا»، وتبدو هذه الجبال العظيمة في مجموعها كمصوَّر ضخم مائل يزيد ارتفاع طرفه الأعلى عن ستة آلاف متر، ويبلغ معدَّل علوِّه المتوسط أربعة آلاف متر، وتجد بين ذلك السد المنيع الهائل من الشواهق ما يصل ارتفاعه إلى ثمانية آلاف متر أو تسعة آلاف متر.

وأظهر ما يبدو ذلك في القسم الغربي من جبال هِمَالْيَة، ويتسع عرض هذه الجبال فوق منابع الأنهر الكبرى: السِّنْد والغَنْج وجَمْنَة وسَتْلِج، ثم تختلط

هذه الجبال بهضاب التِّبت العالية، ثم تفقد منظرها الملتوي فتمتدُّ من هنالك هضاب واسعة كئيبة تزيد ارتفاعًا عن أعلى ذُرَى جبال أوروبا، فما هي بالتابعة جغرافيًّا للهند ولا للتركستان ولا للتبت، وما هي بالتي ينمو فيها نبات، وما هي بالتي يجد الماء الذي يتجمَّع فيها أحيانًا منفذًا أو مُنحدَرًا ليسيل منه، وما هي بالتي يَصلُح هواؤها لتنفُّس السائح المِقدام، فهي «بلاد الموت الكريهة» كما يدعوها به أهالي تلك الأصقاع.

لم تُمسح ذُرَى كارا كورم المرهوبة المشرفة على جبال هِمَالْيَة في أي زمن، فقد يأتي زمن تخلع فيه إحداها مَلِك الجبال غوري شَنْكَر الرائع الخالع لبركان أند: جمبورازُو الذي عُدَّ أعلى جبل في العالم زمنًا طويلًا.

يقوم طود غوري شنكر متوجهًا إلى القسم الشرقي من جبال هِمَالْيَة، ويتألف من اتجاه شوامخ ديوَل غِيري وغوري شنكر وكنجنجنغها خطٌّ مستند إلى ما وراء هِمَالْيَة يعدُّ في مجموعه سلسلة تلك الجبال الحقيقية من غير أن يشتمل على الذُّرى المهمة، على حين تمتد إلى الشمال وإلى الجنوب سلسلتان أخريان مُتَآزِيَتَانِ تسمى إحداهما غنغ ديسري المشرفة على التِّبت، وتسمى الأخرى هِمَالْيَة الدنيا التي هي أقل ضخامة من تلك فتهبط بالتدريج بين روافد نهر الغَنْج الشمالية.

وتشغل جبال هِمَالْيَة أرضًا تزيد مساحتها على مساحة فرنسا، وهي أمنع مِتْرَاس أقامته الطبيعة بين بلدين أو أمتين، ومن الصعوبة أن تجد رابطةً بين أراضي شمال الهند العالية وأودية الجنوب الواسعة العميقة سواء في أمر السكان أو في أمر الطبائع والأخلاق.

شكل ١-٢: قرية دنكور في جبال هِمَالْيَة الغربية.

ولا يربط الهند بالصين غير طريقين ناقصين، وهما: طريق سِملا، وطريق دارجيلنغ الواقعتان على طرفي جبال هِمَالْيَة، وهذا إلى أنك تصادف بين حين وآخر سائحًا أو تاجرًا مخاطرًا يمر من التبت إلى وادي الغَنْج واضعًا متاعه الخفيف، أحيانًا، على ظهر معز أو متن ضائنٍ؛ لعجز أي حيوان آخر عن مجاوزة مَساربَ وعرةٍ معوجَّة مخيفة كالتي تُبْصَر في مُنحدَرات تلك الجبال.

وتكون تلك المسارب على حافة نهر في الغالب، بَيْدَ أنه ليس لمجاري المياه التي تنبُع في جبال هِمَالْيَة جوانب يسهل اجتيابها خطوة بعد خطوة ما هَوَتْ هذه المجاري، على العموم، في مضايق مظلمةٍ، ومسايلَ ممزّقةٍ للصخور خارقة لها خرقًا بليغًا ممتدة بين الصخور القائمة، وما أكثر ما يُسمع خريرها من أعماق الهُوِيّ والوِهاد فتُجاب إذ ذاك على

جُذُول6 الشجر أو بواسطة جبل، ثم يُصعد في طُنُف7 صخرة يصاب بها المرء من تخيله بالثَّوَل8 والدُّوار.

لم تسلم بلاد الهند من غزو الفاتحين لها من الشمال مع ذلك، فقد حلم أمراء الغرب المقاحيم، منذ أقدم القرون، بالاستيلاء على هذا القطر الغني الذي جاء في الأساطير أنه يدُرَّ الحجارة الكريمة ويُخرج النبات العجيب.

وفي الشمال الغربي من النطاق المخيف المنيع الذي ضربته الطبيعة حول بلاد الهند ثغرة نهر كابل؛ فمن ضفاف هذا النهر ولج الإسكندر والمغول والأفغان وغيرهم في شبه جزيرة الهند.

ولا مِرَاء في أن أولئك الفاتحين ساروا على الدَّرب الذي سَلَكه قدماء الآريين، ولا تَجِد طريقًا أخرى غير هذا الدرب يسهل على أي جيش أن يمر منها إلى أرض الإله إندرا، ويقوم وراء تلك الثُّغرة حاجز آخر من جبال سليمان المتصلة بجبال خيبر، فتكفي لوقف غزو الأجنبي مع أنها دون تلك الجبال أهميةً بمراحل.

وإذا ما استثنيت ذلك المَنْفَذ، الذي يدافع عنه بموقع بشاوَر وقلعة أتُك في الوقت الحاضر، وجدت جميع حدود بلاد الهند البرية منيعةً يتعذَّر اقتحامها تقريبًا.

ويظهر في طرف المنحنى الشرقي الكبير، الذي أكسبته جبال هِمَالْيَة شكل سيف، ثُلْمَةٌ كبيرة جوَّفها نهر بَرَهْمَا بوترا، فمن هذه الثُّلْمَة استطاع أناس من الجنس الأصفر أن يدخلوا بلاد الهند في دور قديم، وذلك بعد جهود عظيمة؛ لما نراه في كل سنة من انغلاق وادي بَرَهْمَا بوترا الأعلى الذي لم يقع ارتياده حتى الآن، وذلك بفعل ما ينجم عن رياح الجنوب الموسمية من الطوفان، فما ينزل على هذه المنطقة من الأمطار الهائلة يؤدي إلى

---

6 الجذول: جمع جذل، وهو من الشجرة أصلها الباقي بعد ذهاب فروعها.

7 طُنُف الصخرة: ما نتأ منها.

8 ثَوِلَ الرجل يَثْوَلُ ثَوْلًا: حَمُق.

طمس معالم كل طريق مسلوكة، ويحوّل الأنهار إلى سيول، والسهول إلى مستنقعات وغُدْران، ويوجب نموَّ نبات يعوق السير، وانتشار أبخرة وخيمة قاتلة مفسدة للهواء في كل حين، فلا نصادف في الأرض بلادًا مجهولة كتلك المنطقة مع قربها من الأمكنة العامرة.

شكل ١-٣: منظر في وادي السِّنْد «مملكة كشمير».

وتكتنف جبال آسام ضفَّة نهر بَرَهْمَا بوترا اليسرى، وينحني مجرى هذا النهر عند سفوح جبال كهاسي وجبال غارو التي هي أخرى الحلقات المحيطة بشمال الهند.

ويحيط ذلك النطاق بالسهل الهندي الغَنْجيّ الذي تتألف الهندوستان الحقيقية منه، وينخفض هذا السهل رويدًا نحو خليج البنغال من جهة ونحو بحر العرب من جهة أخرى، ويقسم وادي السِّنْد ووادي الغَنْج ذلك السهل إلى منطقتين مختلفتين أشدَّ الاختلاف متباينتين منظرًا، ويبدو

هذا الانقسام بارزًا في الجنوب بجبال أرَاولي التي يرتبط فيها أعالي جبل آبو، ويكاد هذا الانقسام يكون غير بادٍ في الشمال.

ووادي الغَنْج هو من أكثر بقاع الأرض سكانًا وخِصبًا وغنًى، ولا يقال مثل هذا عن وادي السِّنْد الذي يشتمل على الصحراء الهندية الكبرى الوحيدة، ويفسَّر تباين ذَيْنِكَ الواديين باتجاه ذَيْنِكَ النهرين اللذين يجرى أحدهما موازيًا لسلسلة الجبال التي يخرجان منها، ويجري الآخر عموديًّا بالنسبة إلى هذه السلسلة، فكلما سار نهر الغَنْج نال من جبال هِمَالْيَة التي يحاذيها روافد لا ينضُب لها معين بما يسيل إليها من مياه أحواض الثلج فيروي الحقول والمزارع التي يمرُّ منها بوفرة، وكلما ابتعد نهر السِّنْد عن الجبال خفت مياهه وقلت روافده؛ لضياع كثير منها في الرمال، وعجزها عن شقّ مسايل لها، فإذا كانت مقاطعة البنجاب ذات الأنهر الخمسة خصيبةً لم تلبث هذه الأنهر الخمسة أن تؤلف نهرًا واحدًا متوجهًا وحده إلى الجنوب الغربي تاركًا عن يساره أراضي واسعةً خالية جديبة كئيبة.

ومن المحتمل أن كان جميع وادي السِّنْد في غابر الأزمان مغمورًا بالبحر فجعل منه البحر خليجًا واسعًا، ونرى أن سهول شمال الهند وطبقات الجنوب من أسفل هِمَالْيَة قد تكوَّنت حديثًا ما كانت الصخور البِلَّوْرية والألواح الحجرية في أواسط هِمَالْيَة وما وراءها، وما كانت أقسام هِمَالْيَة المركزية وحدها مؤلفةً من الصوان والجلاميد المتحولة.

ويدل ما حول قمم هِمَالْيَة من بقايا نبات البحر، ومن رواسب الملح على مُكث مياه البحر بهضاب تلك الجبال زمنًا طويلًا.

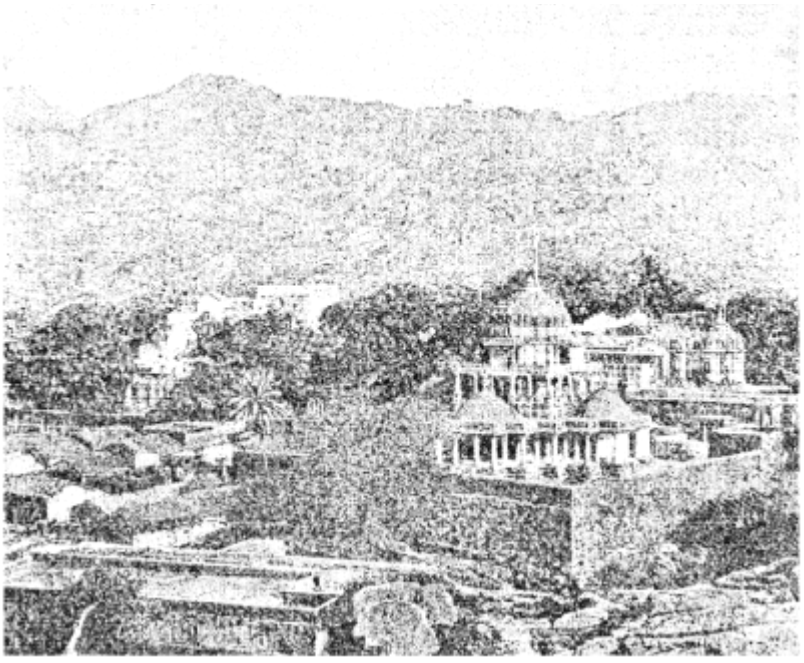

شكل ١-٤: منظر في جبل آبو «راجبوتانا».

وتشمل سلاسل الجبال الصغيرة الكثيرة، الممتدة من جبال هِمَالْيَة إلى منطقة البنجاب العليا، النظر بتركيبها ومنظرها، ونذكر منها «سلسلة الملح» التي يشاهد فيها، عدا رواسب الملح ومختلف المناجم، نماذجُ لجميع الصخور المترجِّح تكوينها بين الدور الجيولوجي الأول والدور الجيولوجي الثالث، فنشأ عن لطم أمواج البحر لسفوحها، وشقِّ الأمطار لشعافها منذ القدم تصدعها على شكل عجيب نالت به منظر الأبراج والقلاع التي أتقن الإنسان صنعها، وذلك إلى أنها كانت مستورة بالحصون التي لا تزال أطلالها الرائعة ماثلة على ذُرَى صخورها الناهضة، فيتمثل بها المتأمل بقايا آطام القرون الوسطى المملوءة بها بلاد الغرب، وذلك إلى أن هذا الشبه واقعيًّا أكثر منه عاطفيًّا ما أدى إليه قيام تلك المعاقل الدفاعية في

البنجاب وبُنْدِيل كِهَنْد من استعباد البلاد، وزيادة طغيان الأمراء الإقطاعيين، كما حدث في فرنسا بعد الغزو النورماني.

والأرض في جنوب وادي الغَنْج ترتفع بهضاب مالْوَا وبُنْدِيل كِهَنْد، ثم تبدو سلسلة جبال وِنْدهيَا.

وَتُعَدُّ سلسلة جبال وِنْدهيَا «حجابَ الهند الحاجز»؛ فلهذه السلسلة أهمية كبيرةٌ؛ لفصلها بين حضارتين وجوَّين وأرضين وعِرقين، فبينما يسود العنصر الغازي، أي العِرق الآريُّ، السهلَ الهندي الغَنْجي يقطن بهضبة الدَّكَن الكبرى، التي لها الوقاية بخندق نَرْبَدَا العميق وبسلسلتين من الجبال، العِرق الدراويديُّ الفطري الخالص المحافظ على أخلاقه وأوصافه الجثمانية ومعتقداته القديمة الثابتة مع مر القرون.

(٣) الدَّكَن

تألفت من الدَّكَن جزيرة حين كانت مياه المحيط تغمر، في سالف العصور، معظمَ السهل الهندي الغَنْجي فتلطِم الأمواج سفوح الجبال المحيطة به، ثم ارتدَّت هذه الأمواج عن شواطئه الضيقة التي تهيمن عليها الهضبة القديمة من ارتفاع يترجَّح بين أربعمائة متر وستمائة متر.

وفي الدَّكَن، لذلك، قسمان مختلفان بمنظريهما وإنتاجهما وبالعروق التي تقيم بهما، فيتألف القسم الأول من الشواطئ الدنيا الواقعة على بحر العرب والمشتملة على:

كونكن الشمالي وكونكن الجنوبي وملبار ومن الشواطئ: كورومندل وسكهر وأوريسة الواقعة على خليج البنغال، ويتألف القسم الثاني من الهضبة الواسعة المائلة من الغرب إلى الشرق، فتحيط بها جبال سات بورا وتوابعها، وسلسلة كهات الفاصلة لها عن المنطقة الساحلية تقريبًا.

وتسمَّى سلسلتا الجبال اللتان تفصلان الدَّكَن عن البحر بكَهَات الغربية وكهات الشرقية، وتقل سلسلة كهات الشرقية عن سلسلة كهات الغربية ارتفاعًا، وإليها يستند أسفل الهضبة، ويتخلل هاتين السلسلتين عدة أنهر تصب مياهها في خليج البنغال تبعًا لميل تلك الجهة العام.

وسلسلة كهات الغربية أكثر انتظامًا من تلك، وتتألف من حَلَقَات متصلة متوجهة عموديًّا إلى الساحل.

وبينما تبرز كهات الغربية الوعرة من ناحية البحر شامخةً بذُراها التي صدعتها أمطار الرياح الموسمية العاصفة تبدو أقلَّ روعة من الهضبة المشرفة عليها، وسلسلة كهات الغربية هذه لا ترتفع عن الشاطئ بأكثر من ١٢٠٠ متر، وهي ليست غير جلاميد قديمة محافظة على وضعها العام، وتغمر الأمواج هذه الجلاميد حيث يضيق الشاطئ في بعض الأمكنة، ويقطعها بين مسافة وأخرى فجاج9 تصل بين السهول العليا والمنطقة الساحلية، وَيُعَدُّ بُهُور كهات أهمَّها، وهو الذي سمي قديمًا بمفتاح الدَّكَن.

وتتسع سلسلة كهات الغربية في الجنوب، فكان لها بهذا الاتساع منظر أقلُّ وحشة من ذلك، وكان لقسمها المعروف بنِلْ غيري «الجبال الزرق» من سحر المنظر وحسن الجو ما دُعِيَت معه بسويسرة الدراويديَّة.

وتنفرج وراء نِلْ غيري «الجبال الزرق» فجوة10 بال كهات التي هي أهم انخفاض فيها، وتنتهي السلسلة برأس كماري.

وفجوة بال كهات أكبر طريق يصل بين الشاطئين، ويمرُّ من هذه الفجوة في الوقت الحاضر خط حديدي يربط مدينة مدراس بمدينة كالي كَت.

وإذا ما عصفت الرياح الموسمية الشمالية الشرقية على خليج البنغال وقفت جبال كهات تلك الرياح، وأمكن السفن أن تمخَر في بحر العرب بسلام، ولكن السفن إذا ما أصبحت أمام فجوة بال كهات كانت في بحر مائج، وذلك لأن الإعصار يتغوَّر في هذه الفجوة فيمر منها؛ ليثير أمواج الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند.

وعُدَّ جميع شواطئ الدَّكَن الدنيا انتصارًا على البحر في وقت قريب من دورنا، ثم وُقِف ارتفاع هذه الشواطئ، ودَلَّت المشاهدات الحديثة على حدوث عكس ذلك في بعض جهات الهند، واكتُشفت بقايا غابة غاطسة

9 الفج: الطريق الواسع الواضح بين جبلين

10 استغدر المكان: صارت فيه غدران، وهي جمع غدير، والغدير: قطعة من الماء يتركها السيل.

بالقرب من بمبي، ويلوح أن منطقة الجزر المستَغْدِرة11 الناشئة حديثًا في مصب نهر الغَنْج والمسماة سُنْدُرْبَن والبقعةَ القائمة عليها مدينة كلكتة ستخسفان، ذات يوم، في هُوَّةٍ هائلة تُجوّفها الأمواج، وينساب التراب نحوها ويَتِيهُ فيها المِرْجاس12 مع سهولة تعيين حافاتها.

ولا يكون للنبات أثرٌ في هضبة الدَّكَن التي سترتها حجارة البراكين في غابر الأزمان، لو لم ينشأ عن الأمطار الغزيرة التي تغمرها في كلّ سنة حلٌّ لهذه الحجارة البركانية في كثير من الأمكنة، وسحق لها، ثم كسحها وظهور أوديةٍ تؤدي كثرة مياهها وحرارة جوّها إلى نمو نبات وافر عجيب فيها.

واستطاعت أصقاع الدَّكَن العليا أن تقاوم حَمَلات الغزو المتتابعة، وأن تظل ذات صبغة خاصة بفضل سلسلتي الجبال القائمتين في شمالها وبفضل الخندق العميق الذي حفره نهر سون ونهر نربدا؛ فالحقُّ أن في جنوب جبال وِنْدِهِيَا بقايا قدماء سكان الهند والعنصر الدراويدي ومراكز الدفاع ضد غزو الأجنبي.

ورأس كمارِي هو أقصى نقطة في بلاد الهند، وتقع جزيرة سيلان بجانبه.

ومع أنه ليس من برنامجنا أن نَصِف سكان جزيرة سيلان، ولا أن ندرس تاريخها نرى أن نقول بضع كلمات عن جغرافيتها وجغرافية الجزر القريبة من الهند فنختم بذلك بحثنا الإجمالي في أرض الهند الناتئة التي يمكن تسميتها بهيكل الهند العظمي.

تكاد جزيرة سيلان، التي تَعْدِل مساحتها اثنتي عشرة مديرية فرنسية، تتصل بشبه جزيرة الهند، وإلى جزيرة سيلان تمتد متوجهةً سلسلةٌ من الجُزَيرات التي نَعُدُّ راميشوَرَم ومنار أهمها، فيتركب منتصف سلسلة الجُزيرات هذه من صخور وأكثبة يغمرها الماء بضع أقدام فتعرف بجسر راما، وتنفذ ثلاثة معابر فقط هذا السَّدَّ الطبيعي، وجُعل أحد هذه المعابر في الزمن الأخير صالحًا لسير السفن الصغيرة.

---

11 المرجاس: حجر أو ما يشابهه يُشد في حبل فيُدلَّى في الماء ليُعلَم عمقُه.

12 الشماريخ: جمع شمراخ؛ وهو رأس الجبل.

وفي شمال جسر راما ينقر خليجان شواطئ الهند، ويبدو أحد ذَيْنِكَ الخليجين مأمنًا للسفن الفارَّة من الرياح الموسمية.

وتقسم جزيرة سيلان إلى قسمين: يقع أحدهما في الشمال حيث السهول التي ينمو فيها نبات البلاد الحارة، ويقع الآخر في الجنوب حيث الجبال، وذُرْوَة آدم التي يبلغ ارتفاعها ٢٢٠٠ متر هي أشهر ذُرَى سيلان وإن لم تكن أعلاها، ففيها يتبصَّر الهندوسي الساذج أثر قدم بُدَّهة المقدسة.

وفي الجنوب الغربي من الهند توشِّي البحر المحيط مئات الجزر المعروفة بجزر لَكْ ديب وجزر مال ديب. وجزر مال ديب هذه هي التي استوقفت النظر فأوحت إلى العلماء كثيرًا من الفرضيات، فرأى العالِم الشهير داروين أنها شماريخ13 جبالٍ غابت عن الأنظار، ونشأت هذه الجزر عن تجمُّع الحيوانات ذات الشكل النباتي، وتبدو كل واحدة منها على شكل دائرة من الجلاميد محيطةٍ ببحيرة داخلية، وتكتسب تلك الجزائر المختلفة شكل دائرة أيضًا، وتبدو في مجموعها ذات وضع عام منسجم.

(٤) وصف أنهار الهند الكبيرة

لا تكفي المياه التي تجري فوق الهند لإخصاب جميع أراضيها مع أنها أكثر بلاد الأرض ريًّا، ولا تُمَدُّ مجاري الهند بالماء إمدادًا متماثلًا في كل سنة وفصلٍ فضلًا عن تفاوت توزيعها، فلا يلبث نهرها الذي يتَّسع ويعْمُق في الفصل الماطر أن يَضْمُر ويصبح ضحضاحًا في دور الجفاف، وإذا كانت سُحُب الرياح الموسمية دون العادة زاد تقلصه وقلَّ خصب الحقول التي تستقي منه، وليس بقليلٍ أن تغيِّر أنهار الهند مجاريها فتنقل بذلك أسباب الرخاء والخير من مكان إلى آخر وتؤدي بذلك إلى جدب المكان الذي هجرته وإقفار مدنه وعُمران المكان الذي هاجرت إليه وزُخور سكانه.

والهندوس، لكي يتلافَوا ما قد يطرأ على الأنهار من نقص عظيم ويتداركوا ما قد يصيبهم من خُسْرٍ كبير، اتخذوا في كل زمن طرقًا للريِّ مصنوعةً،

13 الأهوار: جمع هور، وهو البحيرة تجري إليها مياه غياض وآجام فتتسع.

فأقاموا الأسداد التي تَقِف المياهَ وتسلكها في القنوات أو في الأهوار14 التي احتفرتها يد الإنسان، وأنشئوا الحياض الواسعة التي تسطم15 واديًا بأسره في بعض الأحيان، ونذكر مما صنعته شعوب الهند في هذا المضمار سدَّ كاويري الذي لا يزال قائمًا مع أنه شِيدَ منذ خمسة عشر قرنًا، وأحواضَ حيدر آباد التي يبلغ وجه أكبرها أربعة آلاف هكتار، وبحيرات مهوبا الكبرى في بُنْدِيل كِهَنْد.

ولا مَعْدِل لمياه الهند عن أحد الاتجاهين: خليج البنغال الذي يتقبَّل معظمها، وبحر العرب، وإليك أهم أنهر الهند:

وادي الغَنْج

يرى الهندوس لكلِّ نهر صفةً إلهيةً؛ لما يحمله من البركات، وما ينشره من الخيرات في الأمكنة التي يمر منها، ولكنك لا تجد نهرًا قُدِّس مثل نهر الغَنْج، وإن شئت فقل الغَنْغا كما يسميه الأهالي، ما عبدوه كإلاهة.

وينبع نهر الغَنْج، كأكثر روافده، فيما وراء هِمَالْيَة، ثم يجاوز همالية قبل أن يوغل في السهل، ويتألف نهر الغَنْج من السَّيْلَين: أَلَكْنَنْدَا وبَهَاكي رَتِي المتدفقين من كتل الجليد التي يزيد ارتفاع محالِّها على أربعة آلاف متر، ويَعُدُّ الهندوس من الأماكن المقدسة ذَيْنِكَ المصدرين والجبال التي تعلوهما، ويرون فيهما الخطوة الأولى لتاج شِيوا، فطوبى للهندوسي الذي يستطيع أن يتسلق دَرَجَها مهما أصابه من نَصَبٍ.

والأوربيون، على الخصوص، هم أول من ارتقى ذلك المعراج فوجدوا أن بهاكي رتي يتدفق من طاقه الجليديِّ، فلما رأى حجيج الهندوس، الذي كانوا يقفون دون مدخل المراتج16 حتى أوائل هذا القرن، ذلك الإقدام تشجعوا على الارتقاء إلى ما هو أعلى فهلكوا حين ذهبوا لإتمام مناسكهم عند منابع ذلك النهر المقدس.

---

14 من سطم الباب يسطمه سطامًا: أغلقه وردَّه.

15 المراتج: جمع مرتج وهو الطريق الضيقة.

16 الرمث: خشب يُضم بعضه إلى بعض ويُركَّب في البحر، ويُجمع على أرماث.

ويُدعى المكان الذي يختلط فيه السيلان: ألكنندا وبهاكي رتي بـ «الملقَى الإلهي»، ويقوم هنالك معبد يزوره الهندوس كثيرًا، وتجذب معابد هَرْدَوَار الواقعة دون ذلك، وذلك في شهر مارس وشهر أبريل من كل سنة، مئات الألوف من الحجَّاج فيخيِّم حولها هؤلاء الذين قد يبلغ عددهم مليونين أحيانًا، ولا يقصدها هؤلاء جميعهم عن تقوى مع ذلك، بل تجد بينهم من يؤمُّونها سعيًا وراء الربح والغُنْم.

وتنْبُع جمنة، التي هي من أكبر روافد نهر الغَنْج، من جبال هِمَالْيَة غيرَ بعيدة من منبعه، وتُقدَّس جمنة كالغَنْج نفسه تقريبًا، وفي مجمعهما قامت الله آباد «مدينة الله».

وأُنشئت مدينة بنارس الشهيرة على شكل مدرَّج في الضفة اليسرى من النهر غيرَ بعيدة من الله آباد، وبنارس هذه هي المدينة المقدسة بالمعنى الصحيح، وهي مركز الهند الديني وعاصمة البرهمية.

وكان من احترام الهندوس لنهر الغَنْج، أو «لأمِّهم الغنغا»، أن ثاروا على الإنجليز حينما حفروا قناة دوآب الصالحة للريِّ وسير السفن، فحولوا المياه المقدسة إليها، وهذه القناة التي تسير من هَرْدوار، وتنتهي إلى كان بور هي أعظم قنوات العالم التي من نوعها؛ لما تطلَّبه حفرها من كسح ترابٍ كالذي تطلَّبه حفر قناة السويس.

ولم يكن الإنجليز أقلَّ خَطَلًا من الهندوس حينما حاولوا منعهم من إلقاء جثث موتاهم في نهر الغَنْج، فما فتئ الهندوس يمارسون هذه العادة ما تفلَّتوا من مراقبة قاهريهم، ويقوم ذلك على ربط الميت برمث17 صغير ذي مصباح، ثم تركه للأمواج المتقاذفة، فإذا ما أرخى الليل سدوله رُئِي من بعيد تسكُّع18 تلك الأرْماث السابحات على وجه المياه الأسحم19

17 تسكع في سيره: لم يهتد لوجهته.

18 الأسحم: المسود.

19 الوابل: المطر الشديد.

وتَعظُم جمنة قبل أن تنضم إلى الغَنْج بما تتلقاه في أثناء سيرها من الروافد المهمة التي نذكر منها جمبل وسِنْدَها.

ويتجه نهر الغَنْج إلى الجنوب الشرقي قبل أن يجتمع بجمنة، ثم يسير إلى الشرق فإلى الجنوب، فتتلقى ضفته اليمنى نهر سون، وتتلقى ضفته اليسرى روافد كثيرة جارية من وراء هِمَالْيَة، كغوغرا وغنداك وبهاك متى وكوسى.

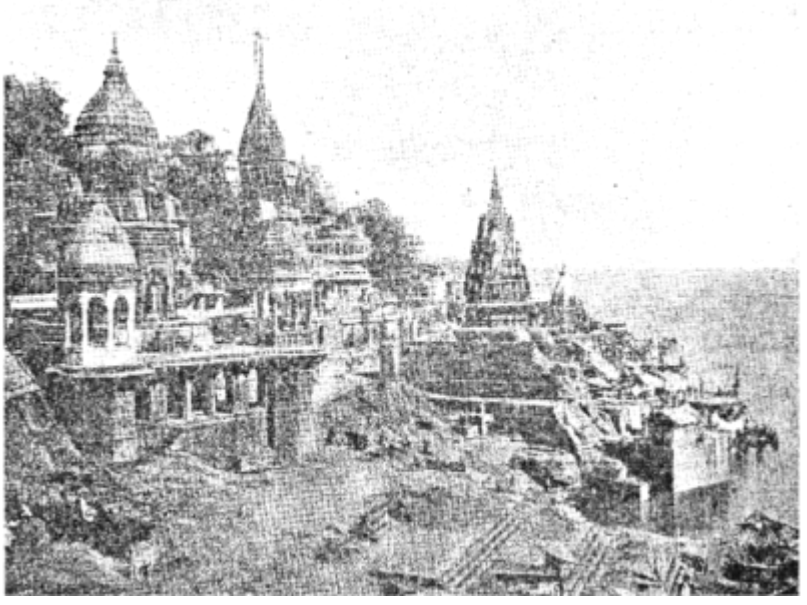

شكل ١-٥: ضفاف الغَنْج ببنارس.

وتجاوِز تلك الروافد منطقة تَرَائِي المشئومة قبل أن توغل في السهول التي ترويها بمياهها فتَهَبَ لها خِصْبًا لا مثيل له، ويطلق اسم تَرَائِي على الأراضي المستنقعة الواقعة في سفوح الجبال، ولا يمكن الإنسان أن يقيم بمنطقة تَرَائِي، ويخاطر الإنسان بنفسه إذا ما جابها.

وتبدو جبال هِمَالْيَة سدًّا شامخًا عظيمًا فتقف سُحُب الرياح الموسمية الماطرة فتوجب انصباب وابلها20 في المنحدرات الجنوبية فينجم عن ذلك رطوبة شديدة في البقعة الدنيا التي تلي تلك المنحدرات فتُستر بنباتٍ مُتَعَصٍّ وتَصْرَى21 فيها غُدُرٌ22 حَمِئَة 23 فيغدو هواؤها وَبِيئًا قاتلًا، فإذا عَدَوْتَ هذا الجزء الضيق المستطيل العاقر الغامر24 وجدت وادي الغَنْج أكثر بلاد الدنيا ثمرًا ودَرًّا.

ويُغيِّر نهر الغَنْج هيئته بحسب الفصول فتطمو25 مياهه في فصل الفيض وتطغى فتغمر ما لا حدَّ له من الأراضي فيرتدُّ الزراع أمامها؛ ليحرثوا الحقول البعيدة التي تُستنبت بين الفصلين، ثم ليعودوا حين يعود ذلك النهر إلى مجراه تاركًا لهم أطيانًا خصيبة.

وتحوِّل أضواج26 الغنج العظيم أوضاعها بسرعة، فيصعب تعيين مجراه وملاقيه بدقة، وتتحوَّل بعد كل فيضان شعابه الكثيرة التي ينصب بها في البحر وما تحيط به هذه الشعاب من الجزر المستغدرة،27 وبذلك تعود المرافئ، التي ترسو فيها السفن الكبيرة، غير صالحة لإيواء زوارق الصيد، ومدينة كلكتة وحدها هي التي أنفق الإنجليز عليها كثيرًا من المال، وقاموا في سبيلها بعظيم الأعمال، التي لا بد من تجديدها؛ ليجعلوا منها ميناءً صالحًا لاستيعاب السفن في كل وقت.

---

20 صَرَى الماء يَصْرَى صَرًى: طال مكثه وتغير.

21 الغُدُر والغدران: جمع الغدير وهو قطعة من الماء يتركها السيل.

22 الحمئ: الماء خالطته الحمأة أي الطين الأسود.

23 الغامر: الأرض الخراب.

24 طما الماء يطمو طموًا: ارتفع وملأ النهر.

25 الأضواج: جمع الضوج وهو منعطف الوادي.

26 استغدر المكان: صارت فيه غدران.

27 الأدغال: جمع الدغل، وهو الشجر الكثيف الملتف.

وكانت مدينة غور رأس دلتا الغَنْج فيما مضى، ولم يلبث سكان هذه المدينة التي كانت عاصمة لدولة عظيمة أن هجروها عندما هجرها ذلك النهر فعادت لا تكون اليوم سوى خرائب وأطلال ذات أدغال.28

وينقسم نهر الغَنْج إلى عدة شُعَب عندما يقترب من مصبه، وبَدْما التي هي من أهم هذه الشُّعب تسير لتتصل بجَمُونا التي هي بَرَهْمَا بوترا الحقيقية، وبهاغي رتي، التي هي أكثر تلك الشعب قدسًا، جزء من بهاغي رتي التي تمر من كلكتة باسم هوغلى فتَصِلها بالبحر.

وليست مياه الغَنْج أغزر ما يصبُّ في خليج البنغال، بل يدفق أغزر المياه في مِيغِهنا التي هي مصبُّ بَرَهْما بُتْرَا، وفي ميغهنا تتعذر الملاحة، تقريبًا، لشدة جري الماء، ولما تسفر عنه الأكثبة من العوائق والمراتيج التي يرتفع عبابها29 عدة أمتار، ثم ينهال فتسمع له جلجلة كقصف المدفع.

ويتجمع حول جزائر سُندرْبَن بعض الرمال التي يأتي بها نهر الغَنْج فتقدَّر بعدة مئات الألوف من الأمتار المكعبة فتزيد هذه الجزائر اتساعًا.

ويظهر أن الدلتا تهبط بالتدريج بدلًا من أن تتَّسع على حساب البحر، وأن الهوَّة التي تَفْغَر فاها أمام مصابِّ الغَنْج ستبتلع هذه الدلتا.

وتتقعر هُوَّة، كتلك، أمام مصابِّ أخي الغَنْغَا: نهر السِّنْد العظيم الذي يجري إلى الشاطئ الآخر من شبه جزيرة الهند حاملًا مقادير وافرة من الرمال، ولكن هذه الرمال لا تعتِّم أن تذهب مع الجريانات الناشئة في البحر فوق تلك الهوة.

ويبلغ طول مجرى نهر الغَنْج ٢٤٢٠ كيلو مترًا.

وادي السِّنْد

28 المراتيج: جمع المرتاج، وهو ما يغلق به الباب.

29 العباب: معظم السيل وارتفاعه.

يقلُّ وادي السِّنْد عن وادي الغَنْج ريًّا وخصبًا وانتظامًا: وتغمر صحراء تِهار التي تفصله عن بقية الهند أكثر من نصفه، ويكون معزولًا عن شبه جزيرة الهند لو لم تصله بسهل الغَنْج أراضٍ زراعيةٌ محاذية للمنطقة الجبلية.

تلك الأراضي هي البَنْجَاب، أو «البلد ذو الأنهر الخمسة» الذي مر منه جميع الفاتحين، بعد أن ساروا ونهرَ كابل فأوغلوا في الهند، وفي البَنْجَاب وحدها تجد المدن الكثيرة الأهل والحقول الغنيةَ غنى الحقول التي يسقيها نهر الغَنْج.

ويكون وادي السِّنْد في الصيف جافًّا لافِحًا، ولا تكون مياه روافده كافية لجلب الرَّخاء أو لبقاء ما هو موجود، وظاهرة هذه الروافد أن تضعُف كلما ابتعدت عن مِنطقة الجبال وأن يبطؤ جريها، ويقل فيضها كلما اقتربت من البحر، وليس بقليل أن يغور بعضها في رمال الصحراء قبل أن يبلغ اليمَّ30 كَسَرَسْوَتي، ولا يتم ما بقي منها سيره إلا بعد أن يجتمع بعضه إلى بعض ويصبَّ في السِّنْد.

وأسماء الأنهر الخمسة التي تنبع من جبال هِمَالْيَة الغربية فتشتهر البَنْجَاب بها هي: ست لج وجناب وبياس وجهلم وراوي.

وينبع نهر السِّنْد وروافده المهم سَتْ لَج من السلسلة المركزية العظمى التي يخرج منها نهر الغَنْج ونهر جمنا أيضًا، ولكن السِّنْد وست لج تابعان لمنحدر ما وراء هِمَالْيَة الجنوبي، فيطوفان بجميع سلسلة هِمَالْيَة فيُجوّفان فيها فجاجًا عميقة قبل الوثوب على السهل، ومما يحدث أن يقف سيرهما انقضاض الجلاميد فتتجمع مياههما على سُمُطٍ كبيرة إلى أن تتغلب على الجلاميد فتدفق من فوقها بشدة فتغمر ما تحتها، وتقضي على مدن بأسرها في بعض الأحيان.

ويجري نهر السِّنْد من الشرق إلى الغرب مسافةً غير قصيرة فيتغشَّى ننغابربت، ثم يخرج من المنطقة الجبلية بالقرب من هري بُور متوجهًا إلى

30 اليم: البحر.

الجنوب، ثم يتلقى عن اليمين الرافد كابل المهم الذي هو باب للتجارة والمغازي.

ويقوم الحصنان أتُك وبيشاور على السِّنْد ورافده كابل لحراسة الإمبراطورية الإنجليزية الهندية، ويقطع السِّنْد خطٌّ حديديٌّ ممتدٌّ إلى الحدود.

وسهل وادي السِّنْد مستوٍ، فليس فيه من الانحدار ما تتوجه به الأنهار التي ترويه، فتتسكع هذه الأنهار مبدِّلة مجاريها أمام أي عائق، وتعدل الأنهر الجافة، التي تحوّل الأراضي الواسعة إلى صحار بعد خصب، الأنهر الجارية كثرةً، وتُبْصر عدة قنواتٍ فارغة لا تلبث أن تمتلئ بسرعة وقت الفيضان فتصل بين روافد نهر السِّنْد، وتؤلف بينها شبكة معقدة متقلبة على الدوام.

وليست مصابُّ نهر السِّنْد أقلَّ تقلبًا مما تقدم، فهي تنسدُّ بما تحمله من الرمال الكثيرة فتحدث منافذ أخرى، فيؤدي ذلك إلى تعذر الملاحة فيه تقريبًا، كما يؤدي إلى استحالة ازدهار أي ميناء في مخارجه، وأما روافده فتكون تارة مجاري واسعة صالحة لسير السفن الكبيرة، وتكون تارةً مجاري مبسوطة فيستطيع السياح أن يعبروها خوضًا.

وينحرف نهر السِّنْد بالتدريج نحوَ الغرب فضلًا عن تقلب أضواجه،[31] ويُفترض أن مياهه كانت توزَّع توزيعًا متساويًا، وأنه كان يتلقَّى روافد أكثر مما يتلقى الآن، وأن الصحراء كانت أضيق مما هي عليه اليوم، ودليلنا على ذلك تسمية كتب الهندوس القديمة لتلك المنطقة ببلاد «الأنهر السبعة» لا بلاد «الأنهر الخمسة» كما تسمَّى في الوقت الحاضر، ومما جاء في تلك الكتب القديمة وصفٌ لأنهر بأنها مجارٍ واسعة مع أنها غير موجودة في زماننا، ومما نصَّت عليه تلك الكتب أن سَرَسْوَتِي كان نهرًا جليلًا متدفقًا إلى أن يصب في نهر السِّنْد غضبان أسِفًا على فرار الإلهة، مع أنه يمَّحي اليوم في رمال الصحراء، وإلى مثل هذا المصير ينتهي

31 الأضواج: جمع الضَّوْج، وهو منعطف الوادي.

كثير من المجاري، وإن لم تغُر تمامًا ما ادَّخلت في مسيل واقع تحت الأرض، وما ثبت ذلك من الآبار التي تُحْفَر في اتجاهها بعيدةً بعض البعد من المكان الذي توارت فيه.

ونهر السِّنْد أطول أنهار الهند، ويبلغ طول مجراه ٢٩٠٠ كيلو متر.

وادى نَرْبَدا ووادى تابتي

نَرْبَدَا وتابتي نهران يفصِلان هما والجبالُ التي يمران بينها المنطقتين الكبيرتين: الهندوستان والدَّكَن، وطول مجرى نَرْبَدَا ١٢٨٠ كيلو مترًا، وطول مجرى تابتي ٧٠٠ كيلو متر.

وينبع نهر نَرْبَدَا في جبال أمر كنتك التي هي عقدة جبال الهند الوسطى، ويجري من الشرق إلى الغرب بسرعة نحو البحر، وذلك في مجرى ضيقٍ عميق واقع بين سلسلة جبال سات بورا وسلسلة جبال وِنْدهيَا، ولا يصلح للملاحة؛ لما فيه من الشلالات الكثيرة، ويبدو ذا مناظر ساحرة عند مضيق «صخور الرخام الأبيض» غير البعيد من منبعه فتجري المياه منه صافيةً هنالك فيكتسب معها صباح مساء ألوانًا عجيبة بفعل أشعة الشمس.

ويقدِّس الهندوس نهر نَرْبَدَا بعد نهر الغَنْج، ويأتون إليه من الأماكن البعيدة؛ ليغتسلوا في مياهه، وليأخذوا من ضفافه حِصِيًّا يتخذونها تمائم وتعاويذ غالية قادرة، وكان من تزاحم الحجيج على ضفافه في كل زمن أن فُتح الدَّكَن للمؤثرات الأجنبية بما لا يتم بقوة السلاح.

ويصب نهر نَرْبَدَا في خليج كمبي غير بعيدٍ من مصب نهر تابتي الأقل أهمية والأكثر فيضًا، وتقوم مدينة سُورت على مصب نهر تابتي، فتدفع عنها المياه بالأسداد المُحكمة.

وتقع ثلاثة أنهر صغيرة في شمال نهر نربدا؛ فتجري من الجبال المحيطة بسهل كجرات فتصب في خليج كَمْبي، وأهم هذه الأنهر الثلاثة نهر ماهي الذي يبلغ مجراه ٥٣٠ كيلو مترًا، ونهر سابَرْمَتِي الذي يمر من مدينة الله آباد الشهيرة فلا يزيد طول مجراه على ٣٠٠ كيلو متر.

أودية الدَّكَن

لا يصب نهر مهمٌّ بين مصب نهر تابتي، ورأس كماري من شواطئ بحر العرب، فقد بلغت جبال كَهات الغربية من القرب إلى الساحل، ما لا تكون به المياه المنحدرة منها غيرَ جداول؛ فتتحول هذه الجداول إلى سيول بفعل رياح الجنوب الغربي الموسمية.

ويتكون من ثغرة بال كهات ممرٌّ لنهر بوناني الصغير الذي ينبع في شرق الجبال، ويختلط هنالك منحدرًا الدَّكَن الكبيران، وينبع بعض روافد كاويري من غرب جبال كهات.

والساحل الذي يقع في جنوب بوناني ذو غدران كثيرة محاذية لشاطئ البحر متصلٍ بعضها ببعض، ويتألف من هذه الغدران قناة صالحة للملاحة، ويفضِّل ربابنة السفن السير في مياهها الهادئة على السير في البحر المحيط، وتكاد تجارة كوجين وترانكور تتم بها.

أودية الدَّكَن الشرقي

لا أنهار كبيرة في الدَّكَن غير التي تجري شرقًا إلى خليج البنغال، ومن هذه الأنهار نهر سبماريكا الذي يُرَى بعد مصب نهر الغَنْج، والذي ينحدر من عاليات جوتا ناغبور فيصب في البحر بعد أن يسير ٥٠٠ كيلو متر.

ونهر مَهَانَدِي البالغ طوله ٨٣٠ كيلو مترًا هو أهم الأنهر بعد ذلك، فإذا ما اجتمع هذا النهر بنهر بيترني البالغ طوله ٥٥٠ كيلو مترًا وبرهمني البالغ طوله ٦٥٠ كيلو مترًا تألفت بلا انقطاع في ساحل أوريسة دلتا واسعة تمتد تحت البحر إلى مسافة بعيدة مع زيادة غِرِيَنها.

ويتفتت تراب الدَّكَن البركاني بفعل الأمطار ومياه الفيضان، وتحمل الأنهار الرمال والنُّثار؛ لتودع الساحل إياها فتزيدها تلك الدلتا سمكًا.

وتجمَّعت بالقرب من مصب مهاندي لفافة رمال فاشتملت على بحيرة شِلكا التي تصلها قناة بالبحر.

والجفاف أظهر ما يصاب به ساحل أوريسة الذي تجوبه شعاب مهاندي الكثيرة، فكان ما تراه من بؤس سكانه وتوحشهم، فإذا تفلَّت ساحل

أوريسة من هذا الجفاف، أحيانًا، فلكي يخرّبه الفيضان، وساحل أوريسة هذا بلغ من الانخفاض والاستواء ما يغمره به البحر في الغالب فينشأ عنه ما لا يتصوره إنسان من التلف والضرر، وساحل أوريسة هذا أصيب في سنة ١٨٦٦ بإعصار فخرَّب قُراه وأهلك ١٢٠٠٠٠٠ شخص من سكانه، وذلك بعد قحطٍ نجم عن الجفاف فأمات ربعهم.

والجفاف آفة الدَّكَن، والهنودُ، لكي يدفعوه، يقيمون الأسداد ويُنشئون الحياض الصالحة لوقف طِفَاح أمطار الرياح الموسمية المؤدية إلى ضِخَم الأنهر في بعض أوقات السنة، وذلك كالحواجز التي صُنعت في مصاب مهاندي وغوداوري وكرشنا لتُحوّل المياه، عند الفيضان، إلى قنوات الري أو إلى البرك المصنوعة، ويقدس الهندوس تلك الأنهر ويقيمون الشعائر على ضفاف كل واحد منها.

ويقع نهر غوداوري، الذي هو أعظم أنهر الدَّكَن والذي يبلغ طوله ١٤٤٠ كيلو مترًا، تحت نهر مهاندي ثم يليه نهر كرشنا الذي يبلغ طوله ١٣٠٠ كيلو متر، ثم نهر بنار الذي يبلغ طوله ٥٧٠ كيلو مترًا، ثم نهر كاويري الذي يبلغ طوله ٧٥٥ كيلو مترًا.

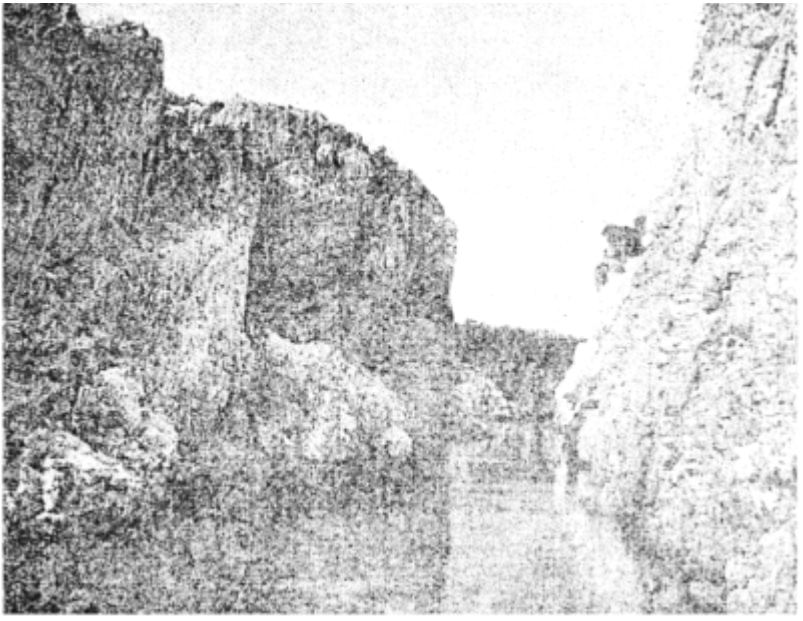

شكل ١-٦: مضيق صخور الرخام على ضفاف نَرْبَدَا بالقرب من جبل بور.

ويجري نهر كرشنا في مجرى ضيق فلا يصلُح للملاحة، ويفقد مياهه بما يرويه من ضفافه، ولكن أهميته تبدو ما قَطَع شبه جزيرة الهند من الشرق إلى الغرب، وما فصل مِنطقتين وفرَّق بين حضارتين، فليذهب إلى المنطقة الجنوبية منه من يرغب في درس طبائع الشعب الدراويدي ولغته؛ ليبصر أنها أقلُّ فسادًا بالعناصر الغريبة مما في أي مكان آخر.

وبلغ كثير من الفاتحين نهر كرشنا مجاوزين جبال وِنْدهيَا وجبال نَرْبَدَا وجبال سات بورا وتوابعها الممتدة إلى مصب نهر الغَنْج، ولم يعبر الفاتحون كرشنا أو لم يستطيعوا أن يعبروه بكثرة فيختلطوا بالمغلوبين اختلاطًا تختلف به سحنات الشعوب الدراويدية القديمة.

وأول ما علمه الغرب عن تلك المنطقة المنقطعة هو ما أتى به التجار الذين قصدوا سواحلها فملئوا الأخيلة بالأقاصيص العجيبة عنها، ولا غَرْوَ،

فتلك هي بلاد الهند الحقيقية، تلك هي البلاد التي تجمع الشمس حرارة أشعتها في أبازيرها وتوابلها وتجمع أنوارها الوهاجة في حجارتها الكريمة.

شواطئ الهند ومرافئها

ظل الوصول إلى جنوب الهند مقصورًا على البحر زمنًا طويلًا مع صعوبة ذلك، وليس في شواطئ شبه جزيرة الهند الممتدة من مصابِّ نهر السِّنْد إلى مصاب نهر الغَنْج مكان يسهل بلوغه بحرًا أو بقعة صالحة لإنشاء ميناء عليها، ولا نذكر مرافئ بمبي ومدراس وكلكتة البحرية العظيمة ما قامت هذه المرافئ بعزم الإنسان وعمله.

ومع اشتقاق كلمة بمبي من كلمة «الفُرْضة الصالحة Bonne Baie»، كما قيل، فإن نزول السياح والسلع إليها لا يتم بغير صعوبة، فإذا كانت هذه الفرضة رائعة فإنها عاطلة من أرصفة، ولا تعدُّ مدراسُ ملجأ للسفن، فترسو هذه السفن في عرض البحر، وترسل ما فيها من العروض والأمتعة والركاب إلى البر في قوارب أو أطواف32 لا تسير في اللجج من غير خطر، واليوم تشتمل مدراس على رصيف يبلغ ٣٣٥ مترًا مع خرابه غير مرة فيما مضى، ويفكر القوم في حفر خليج لها، ولم يسهل الاقتراب من كلكتة في أي زمن، وتقوم سلامة مينائها المفتوح وسلامة فرع الغَنْج الغربي هوغلي الصالح للملاحة على متصِل الأعمال.

وإذا عَدَوْتَ ساحل ملبار الذي يشتمل على بضعة مرافئ صغيرة صالحة لإيواء المراكب وجدت جميع شواطئ الهند خطرة، ولم ترَ مكانًا مناسبًا في خليج البنغال، وكلنغابَتم، الواقعة بين دلتا مهاندي ودلتا غودافري، وحدها هي الملائمة لبعض الرسو على مسافة ستمائة كيلو متر.

(٥) الأجواء

32 الأطواف: جمع الطوف، وهو قطع خشب تُشد فتصير كهيئة سطح، ويُرْكب عليها في الماء أو تُحمل عليها الأثقال.

بلاد الهند من أشد بلاد الدنيا حرًّا، واختلاف بلاد الهند في الارتفاع يجعل لكل منها جوًّا خاصًّا، فيستطيع السائح أن يقطع فيها درجاتٍ متباينةً من الحرارة في بضعة أيام.

ومثل هذه الانتقالات يلاحظ في جبال هِمَالْيَة على الخصوص، فبينما يتوج الثلج والجليد ذُرَى تلك الجبال الرائعة تتمتع منحدراتها بجو معتدل كجوِّ فرنسا وإيطاليا، وتكاد سفوحها تُلفَح بحرارة دائرة الانقلاب الصيفي.

والحد الذي تَثبُت الثلوج فوقه من جبال هِمَالْيَة عالٍ، ويترجح ارتفاعه بين ٤٠٠٠ و٥٠٠٠ متر، ولا يسقط الثلج تحت هذا الارتفاع إلا قليلًا، وإذا ما سقط ذاب سريعًا، وفي القسم الغربي من جبال هِمَالْيَة يُمسك واسع الهضاب كُتَلَ الجليد، وفي ذلك القسم الغربي يكون لديها من الوقت ما تكوَّن فيه، على حين تنهال كُوَم الثلج في منحدرات جبال هِمَالْيَة الشرقية الواقفة.

ولا تجد لحقول الجليد التي تُشاهد في هِمَالْيَة الغربية وفي كاراكورم مثيلًا في غير البقاع القطبية، وتترجَّح تلك الحقول بين ٢٥ و٣٠ و٥٠ كيلو مترًا طولًا، وهي مشهورة بما تقدُّه من النِّثَارِ في أثناء انهيالها، ومما يحدث أحيانًا أن يتجمع التراب بين الجلاميد فينبت فيه العشب فيحجب كتل الجليد الكئيبة غطاءٌ أخضر.

وتمتد في جبال هِمَالْيَة الأمامية بقاع يترجح ارتفاعها بين ١٠٠٠ و٣٠٠٠ متر، فيذكِّرنا جوها وإنتاجها بأفضل بقاع أوروبا، فإليها يجيء الإنجليز في كل سنة باحثين عن ملاجئ فرارًا من قيظ الصيف ببلاد الهند، فيستردون فيها قوتهم التي أوهنها حرُّ السهل، ففيها أقاموا «مدن الصحة» التي تُعَدُّ سِملا ومسوري ودارجي لِنغ أهمَّها.

وإلى سِمْلا ينتقل أكابر الموظفين في بدء فصل الحر، فتصبح مقر الحكومة لبضعة أشهر، فيعتقد المرء أنه أضحى بإنجلترا عند تأملها وتأمل ما فيها من غاب البلوط والزَّين والأشجار المثمرة المألوفة في الغرب.

وفي الهند نواحٍ كثيرة لها ما لتلك المنطقة من الروعة، وأهمها جبال نِلْغيري التي تبدو في الجنوب ممتدة من جبال كهات الغربية، ففي تلك الجبال أُنشئت، أيضًا، مدن للصحة، وَتُعَدُّ أوتاكمند أعظمها شأنًا، ولتلك المدن جوٌّ أكثر اعتدالًا من جو منحدرات هِمَالْيَة ما اتفق لها ربيع دائم وثمرات الصيف، وما غرَّدت الطيور الأوربية والصيقان الشقر والعنادل والبلابل في أدغالها، وإليها جلب الإنجليز عصافير دُورِيَّة ففرَّخت وكثرت حول بيوتها.

وإذا استثنيت تلك المناطق وجدتَ حَرَّ بلاد الهند يترجح بين درجة الصفر والدرجة ٥٢ بمقياس سَنتِغْراد.

وظاهرة مقاطعة البَنْجَاب أن تجمع أقصى درجة البرد وأقصى درجة القيظ في الهند، وأن تنقلب الأجواء فيها أكثر مما في غيرها.

وكلما سار الإنسان إلى جنوب الهند بدا له تناقص الفروق بين الصيف والشتاء، فإذا بلغ أقصى الهند رأى استواء الجوِّ في مختلف الفصول.

أَجَلْ، إنه يجد هنالك ارتفاعًا في الحرارة بسبب درجة العرض، ولكن نِسَام[33] البحر تلطفها، وهي تترجح بين ٢٦ و٢٨ درجة بمقياس سنتغراد في جميع أيام السنة.

ويُميَّز في الهند ثلاثة فصول وهي: فصل المطر ويدوم من مايو إلى أكتوبر، وفصل البرد ويدوم من نوفمبر إلى آخر فبراير، وفصل الحر ويدوم من أول مارس إلى أول يونية، ويختلف زمن كل فصل بين منطقة وأخرى اختلافًا جزئيًّا، وأصلح فصول الهند على العموم هو الذي يستطيع الأوروبيون أن يسيحوا أو يستقروا فيه من غير سوء، أي الذي يبدأ في أكتوبر وينتهي في أبريل.

ويصبح الحر مضنيًا في الشهرين أبريل ومايو، فيقاسي الأهلون في أثنائهما كبير عناء، فيبلغ الحر في وادي السِّنْد وفي سواحل الدَّكَن شدة لا تجد مثلها في بقعة من الدنيا، فيغيض الحر مياه الأنهر ويُذْوي النبات،

33 النسام: جمع النسيم.

فتشخص الأبصار إلى السماء الصافية فيحجب هذه السماء في نهاية الأمر، كبقية الطبيعة، ضبابٌ من الغبار الدقيق الخانق فتبدو الشمس من خلالها قُرصًا نَحِسًا عاطلًا من الشعاع.

هنالك ينفد صبر الناس، فينتظرون الفَرَج فيرتقبون ما في أفق الجنوب من الرياح الموسمية الماطرة التي تجيء صائلةً هائلةً للخير حاملةً.

الرياح الموسمية

لا تجد حادثة، كالرياح الموسمية، متجبرةً في ظاهرها نافعةً في نتائجها.

يرى الإنسان سُحُبًا كثيفة تتلبَّد في السماء في يوم أو يومين، ثم تهتز وتُقبل وئيدة34 غاشية نصف الأفق بغطاء مأتَمي على حين يضيء نصفَ الأفق الآخر بيوتُ القرى البِيضُ وضفاف الأنهر، ثم لم يلبث الجميع أن يُعَتِّم، فهنالك ترتعج35 البروق وتقصف الرعود وتنزل الصواعق بما يمزّق القلب ويخلع الفؤاد، ثم تتشقَّق الأضوار36 الطاخية37 كالظروف والقِرَب المملوءة فينهمر طوفانها على الأرض، ويملأ مجاري الأنهار الجافة، ويحوّلها إلى سيول، فتجرع الأراضي المتلظِّية من مياهه المباركة فتبدو للناظر حياة جديدة آتية من السماء؛ لتسري في عروق العالم فيعود إلى شبابه.

ولم تُعَتِّم تلك الزوبعة الأولى أن تهدأ فتنقشع تلك الغيوم المكفهرَّة عن سماء ضاحكة وعن نبات رطيب نضير يخرج فورًا فيعود إلى الأحياء نشاطهم، ويتحول كل شيء في بضعة أيام، ولكن رياح الجنوب الغربي الموسمية لا تنفكُّ تجيء من فوق البحر في خمسة أشهر أو ستة أشهر حاملةً الرطوبة والندى خافقةً ماطرة بين حين وحين.

---

34 وئيدة: على تؤدة.

35 ارتعج البرق: تتابع.

36 الأضوار: جمع الضور وهو السحابة السوداء.

37 الطاخية: المظلمة.

ذلك هو فصل المطر، وذلك ما يحدث في السواحل الجنوبية الغربية، ولا يحدث مثله في بقاع الهند الأخرى من كل وجه ومن حيث الزمن والأحوال، وإليك ما قيل في مصدر ذلك الحادث وسيره من النظريات الجديدة:

يهُبُّ ببلاد الهند ريحان مختلفتان مقتسمتان لأيام السنة، تخفق إحداهما من الشمال الشرقي فتدوم من نوفمبر إلى مايو، وتخفِق الأخرى من الجنوب الغربي فتدوم في الأشهر الستة الأخرى، فأما الريح الأولى فتأتي من آسيا الوسطى غير مارَّة بغير البُرُور فلا تحمل قابَّةً،[38] فتُدعى بالريح الموسمية الجافة، فتختلط بالرياح التي تهبُّ بين دائرتي الانقلاب من الشرق إلى الغرب، فلا تكون حادثة ذات طابع خاصٍّ، وأما الريح الثانية فتجوب البحر الهنديَّ فتحمِل أبخرة يُسفر تكاثفها عن وابل هاطل، فتدعى بالريح الموسمية الماطرة، فهي وليدة تفاوت توزيع البُرُور والبحار وقيظ الصيف في أشهره الثلاثة.

تمتد طبقات هواء الهند في آخر الفصل الحارّ وتنبسط شيئًا فشيئًا بفعل ارتفاع الحرارة فتتصاعد في الجو فتتحول الهند إلى أتون مستغيث فتهتزُّ حينئذ السحب التي تغشى البحر الهندي وتسير لتملأ ذلك الفراغ الحادث، وتدوم على هذه الحال إلى أن يعود التوازن الذي اختلَّ في الجو، وإذا أصبحت سُحُب رياح الجنوب الغربي الموسمية فوق شواطئ الهند وَقَفَتْها جبال كهات وحملتها على الانصباب في جانبها الغربي، فيؤدي هذا الوابل الهاطل إلى تصدُّع تلك الجبال وتقطيعها بروجًا ومِسَلَّات، واكتسابها منظرًا ساحرًا عجيبًا خاصًّا بها.

وإذا استطاعت تلك السُّحب أن تنفذ سلسلة كهات كان ذلك وهي أقل قَطْرًا فصبَّت في جانب هذه السلسلة الشرقي وفي هِضاب الدَّكَن مياهًا دون تلك مرتين أو ثلاث مرات، وهي إذ تعجز عن قطع جبال كَهات الشرقية تجري إلى الشمال الشرقي غير حاملة قطرةً إلى شاطئ كورومندل.

---

38 القابة: القطرة من المطر.

والرياح الموسمية الشمالية الشرقية هي التي تروي، بما لا يكفي، منطقة كورومندل بعد أن تحمل بعض السحب من خليج البنغال.

والجفاف بليَّةُ منطقة كورومندل في الحقيقة، وليس في الهند مكان يحتاجُ إلى الحياض المصنوعة كهذه المنطقة، فأُنشئ فيها من الحياض الكثيرة ما تبلغ مساحته أحيانًا مساحة الأراضي الزراعية التي يرويها.

وحينما تكون الرياح الموسمية الجنوبية الشرقية فوق البنغال تقطع البحرَ ثانية فتنحرف بفعل جبال بن ماني وآسام فتهبُّ عموديةً على شواطئ سُنْدَرَبْن كأنها آتية من الجنوب توًّا، وهي إذ تكون حاملة سُحُبًا كثيفة في هذه المرة تُغَوِّر39 في وادي بَرَهْمَا بوترا العليا، فهنالك، حيث جبال آسام وطرف سلسلة هِمَالْيَة الشرقي، تُنزل من الأمطار الهائلة ما لا مثيل له في الدنيا، فقُدِّر ارتفاع ما سقط منه في سنة ١٨٦١ على جيرابونجي، الذي هو من شوامخ كهاسي، بعشرين مترًا، فنجم عن ذلك أن تصدَّعت شِعاف تلك المنطقة كما في جبال كهات.

وتغير الرياح الموسمية بعد ذلك تغييرًا تامًّا، فهي إذ تعجز عن مجاوزة جبال هِمَالْيَة تجري محاذية لهذه الجبال متوجهة إلى الشمال الغربيّ فتنشر الرطوبة في طريقها، ثم تصل إلى البنجاب الذي ينتظرها ليَسُحَّ40 فيه وِقْرُها.41

ولا يكفهر جو البَنْجَاب إلا في أواخر يونية، وتجوب الرياح الموسمية تلك السبل بصولة متناقصة في عدة شهور، وينال وادي السِّنْد وساحل أوريسة أسوأ حصة من مياهها، فإذا ما ساء الحظ فقلَّ مقدار ما يأخذانه من الماء عادةً، مع عدم كفايته، أسفر ذلك عن مجاعة أشد من الغزو والوباء، فهلك مئات الألوف من الناس، فليس من العبث، إذن، أن عَبَد الهندوسُ الأنهارَ والآلهة التي توزّع على الأرض مياه الخير والبركة، جاء

39 غور الماء: ذهب في الأرض.

40 سح: سال وانصب غزيرًا.

41 الوقر: السحاب المثقل بالماء.

في المهابهارتا: «يأتينا المطر من الآلهة فهَب لنا النبات الذي هو قِوَام نعمة الإنسان.»

ويرى الإنسان في الدَّكَن الجنوبي المناظر المختلفة التي هي وليدة الري المتفاوت، فالمطر ينزل عليه، بالحقيقة، نزولًا غير متساوٍ بسبب الموانع الجبلية وما إليها، فهنا يهطل مدرارًا فيخرج نباتٌ بري جامح فتقوم غابة استوائية، وهناك تجد حقولًا حقيرة تنبت فيها الخيازر42 نباتًا متفرقًا، وهنالك، حيث التراب البركاني، تبصر الجدب والجفاف.

أَجَلْ، إن المجاعات التي تنشأ عن تفاوت نزول الأمطار هي أشد ما تُبتلى به بلاد الهند، ولكنها ليست كلَّ ما تصاب به، فلتُضَف إليها الأعاصير والهَيْضَة43 والحمَّيات.

ترتفع الأعاصير فتخرب كل شيء يعترض لها، وتثير أمواج البحر أحيانًا فتقذفها إلى مسافات بعيدة، ومنشأ الأعاصير هو ما بين رُكام الجوّ من تفاوت، وفي أواخر فصل الحر، على الخصوص، تهبُّ الأعاصير فوق شواطئ كورومندل وَسكْهر وأوريسة، وما تحدثه الأعاصير من الضرر يذهب بلُبِّ الرشيد، ومن ذلك أن غرقت في سنة ١٧٨٩ منطقة مدابُولم القريبة من مصاب غوداوري فهلك ألوف من الناس، فحملت السفينة ليفيفرية مسافة فرسخ في البر، ومن ذلك أن دُمِّرت في سنة ١٨٦٤ مدينة مجهلي بُنَم المتوسطة الأهمية الواقعة على ذلك الساحل، ومن ذلك الخراب الذي تُعَرَّض له جُزُر سُنْدَرَبْن الرملية التي يتألف منها مَصَابُّ نهر الغَنْج فيتعذَّر دفعه.

وفي غدران جزر سُنْدَرَبْن تلك وبين أبخرتها المنبعثة من التراب الرطيب، وفي غياضها المتعصية الوبيئة بؤرة الْهَيْضَة الآسيوية الدائمة مع تقطُّع تفشِّيها في بقية بلاد الهند، وفي منطقة تَرَائِي ذاتِ المستنقعات الواقعة في سفوح جبال هِمَالْيَة مصدر حُمَّيَات الآجام التي لا تقلُّ فتكًا عن الهيضة،

42 الخيازر: جمع الخيزران.

43 الْهَيْضَة: الكوليرا.

فليُقم بتلك المنطقة أو ليُوغل فيها من يرغب في الموت، فالموت، وإن لم يلاقه فيها على الدوام، يُنْشِب أظفاره فيه إذا ما غفل عنه فيندر أن يتفلَّت منه.

ولا يقال، مع ذلك، إن بلاد الهند الرائعة، التي لا ينضُب لها مَعِين، وبيئةٌ في مجموعها، فيمكن الأوربيين أن يستقرُّوا بها من غير أن يخاطروا بأنفسهم ما سلكوا سبيل الرشاد فبدَّلوا منازلهم فيها، وغيروا ما هم فيه من هوائها وأجوائها بحسب الفصول، وهذا لا يكون لزمن طويل مع ذلك، فقد هدتهم التجارب إلى استحالة اختيارهم لها وطنًا ثابتًا فتراهم يرسلون أولادهم إلى إنجلترا ليُنَشَّئوا فيها، ما تألَّف ممن يبقى منهم في الهند عِرق منحط سخيف ضعيف محكوم عليه بالأفول قريبًا، وما أحسن قولَ بعضهم: «يتصف جيل البِيض الأول في بلاد الهند بالضَّعف والسُّخف، ويتصف جيلهم الثاني فيها بالعجز والكَسَح، ولا تسمع عن جيلهم الثالث فيها خبرًا.»

والهند إذا أريد وصفها وصفًا أساسيًّا قيل إنها بلادٌ حارَّة يقل فيها الاحتياج إلى المساكن والملابس والمآكل، وتكثر فيها الأراضي الخصيبة التي تُخرج، بغير عمل، ما يُضطر إليه الأهلون من المحاصيل القليلة، ففي أحوال كتلك لا يتطلب الصراع من أجل الحياة كبير جهودٍ، فلا ينمو فيها خُلُق المبادرة والنشاط والحزم، فكأنه كتب على العروق الخاضعة لمثل تلك الأحوال أن تكون مستعبَدة، فهي تظل فريسة للفاتحين، مستعدة للعمل بأوامر الغالبين.

□

الفصل الثاني

وصف مناطق الهند العام

لمناطق الهند حدود طبيعية على العموم، كأن يفصل نهر أو سلسلة جبال بين منطقتين منها مختلفتين عِرقًا وحكومةً وحضارةً، والضرورات السياسية تؤدي، في الغالب، إلى تذليل تلك الحواجز وتبديل غيرها بها، ولم ينجم عن الفتح أو الحِلف، مع ذلك، تقريبٌ مستمر لنصفي شبه جزيرة الهند؛ «الهندوستان والدَّكَن» اللذين تفصل بينهما جبال وِنْدهِيَا ما بقيت هذه الجبال حجابًا حاجزًا، فكان ما تراه من اختلافهما في الأجواء والحاصلات والشعوب والطبائع والعادات.

وأهل الشمال الذين تعوَّدوا الانتقال بين القيظ والقُرِّ أعظم بِنْية وأكثر نشاطًا وأشد بأسًا من أهل الجنوب، والمَرَاتها الذين يسكنون المناطق الجنوبية يقاسون وحدهم بأولئك، وسكان الدَّكَن الذين يقطنون بِقُطْرٍ شديد الحرارة غير متقلب فلا ينمون جسمًا وأخلاقًا يبدون قصارًا أخلياء كُسالَى، وتختلف جلودهم عن جلود أهل الشمال لونًا، ويتدرج لون البشر من الجنوب إلى الشمال على العموم فتراه أسود في الجنوب، نحاسيًّا فأبيض في الشمال كما عند الراجبوت.

وسنبدأ بالشمال فنصِفَ سَحَنَات سكان كل منطقة وخواصَّها ومحصولاتها المحلية وصفًا إجماليًّا.

(١) هِمَالْيَة الشرقية «نيبال وسِكِم وبهوتان»

تشتمل هِمَالْيَة الشرقية على دولتين مستقلتين على الرغم من الإنجليز، وهما: نيبال وبهوتان.

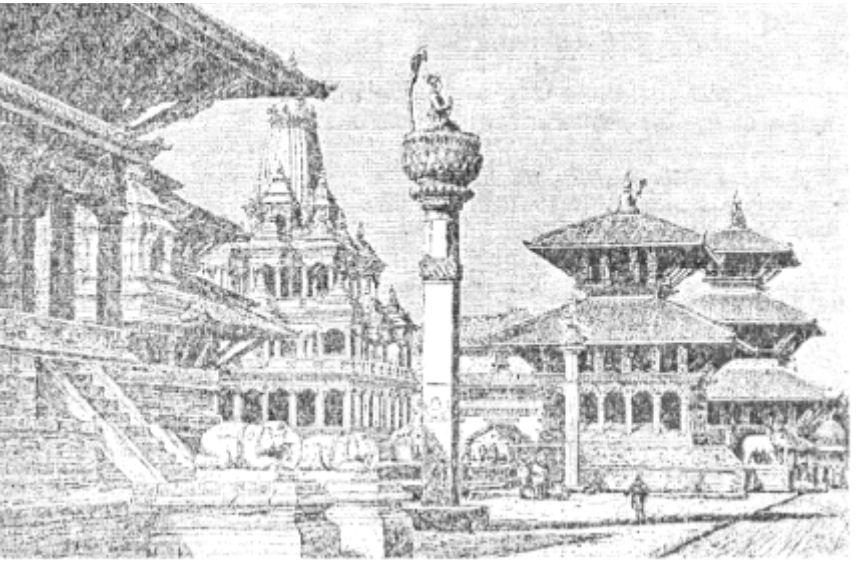

شكل ٢-١: منظر في بتن «نيبال»، «التقط المؤلف هذا المنظر من طرف الشارع المهم ببتن، وتجد تصويرًا للمعبد الكبير، الذي تحجب الفيلة قاعدته، في هذه الصورة، وتصويرًا لمختلف مباني هذه المدينة في مكان آخر من هذا السِّفْر.»

ونيبال هي واد طويلٌ واقع بين سلسلتي الجبال المتوازيتين: هِمَالْيَة وما تحت هِمَالْيَة.

وليست سلسلة ما تحت هِمَالْيَة هي الحاجز الوحيد الذي يفصل نيبال من الهند، فإليها نُضيف منطقة تَرَائِي المرهوبة التي تحاذيها جنوبًا فينشأ عن أوبئتها القاتلة حدٌّ طبيعيٌّ ثانٍ.

ولنيبال المنعزلة على ذلك الوجه طابع خاص، وبلغ أهل نيبال من الغَيْرَة على استقلالهم ما رضوا به وجود سفير إنجليزي لدى بَلاطهم بعد حربين طاحنتين، على أن يكون هذا السفيرُ الأوربيَّ الوحيدَ الذي يُسمح له بدخول نيبال، ولم يُؤْذن لي في زيارة هذا الصُّقع العجيب، الذي لم

يَسْطِع الرحالة جاكمون أن يدخله مع ما أتاه من جهود عظيمة، إلا بعد مفاوضات رسمية طويلة، فكنتُ أول فرنسي طاف فيه.[44]

ويبدو في نيبال جلال جبال هِمَالْيَة ووحشتُها، وتُناطِح شعافُها السماء، فهيمن على وادي نيبال الطويلة جبل ديول غِيري من الغرب وجبل كَنجِنجنكها أو «جبل الكتل الجليدية اللامعة الخمس» من الشرق، وجبل غوري شَنْكر أو «ملك الجبال» في الوسط، فتكتسب نيبال بذلك مناظر رائعة لا ترى مثلها في مِنطقة أخرى، وتشاهد من السهل ذُرَى تلك الجبال المنيعة ذوات الثلوج، فإذا خاطر المرء بنفسه فتسلَّق مساربها ارتعد من التبايُن بين الهُوَى السود النافذة في بطن الأرض وجُدُر الصوَّان الشاهقة وفِقَر الثلج التي تتدرج إلى السماوات.

وأشهر الشعاب ذوات المهالك التي تصل الهندَ بالتبت هو شِعب نِيَالو الذي يؤدي إلى بحيرة مانْسَرُوور الواقعة في أسفل جبل كَيْلَاس، ففي مجاهل هذا الجبل تكمُن، كما يعتقد الهندوس، حيوانات خَفِيَّة قاذفة من أفواهها المُزْبدة أنهُرَ الهند الأربعة: سانغ بو «مجرى بَرَهْمَا بوترا الأعلى على ما يُحتمل» والسِّنْد وسَتْ لج والغنغا.

وروافد نهر الغَنْج الآتية من نهر نيبال كثيرة، وتقطع هذه الروافد حدود نيبال الطبيعية قطعًا عموديًّا، وينبع بعضها من سفح هِمَالْيَة الشمالي فيجوب نيبال، ولا تصلُح للملاحة ما صدَّعت الجبال فَجَرَتْ بسرعة من نيبال نفسها فأضحت بذلك غير نافعة لسوى نقل الحطب وأعمال الري.

وتقسم تلك الأنهُر منطقة نيبال إلى عدة أصقاع يختلف سكان بعضها عن سكان بعض، ويؤدي تفاوت ارتفاع هذه الأصقاع إلى اختلاف سكانها أيضًا.

ويتجلى أثر التبت في قسم نيبال الجبلي على الخصوص، وتغيَّر هذا الأثر، مع ذلك، تغيرًا محسوسًا بما تم من الاختلاط بالعناصر الآرية التي

44 بسطتُ رحلتي إلى نيبال في الصحيفة: «سياحة حول العالم»، "أبريل سنة ١٨٨٦."

نتكلم عنها في فصل العروق، فنيبال هي منطقة الانتقال بين الهند ومملكة ابن السماء عروقًا وعمارةً وطبائعَ وعاداتٍ.

وتقع بين نيبال وبهوتان دولة سِكِم الصغيرة التي يملكها أحد الراجوات، ولا تعدو عاصمته تَمْلُنْغ قريةً، ولا يزيد سكان هذه الدولة على ستين ألفًا، وهي ذات طابع تبتيٍّ خالص.

وسكم جبلية رطيبة جدًّا، وتصعب الإقامة بها في أكثر أيام السنة، ومن دولة سِكِم القديمة سلخ الإنجليز أخصب بقعة، فجعلوا منها مديرية، وجعلوا من مقرها دارجي لنغ مصحًّا ومصيفًا مهمًّا في فصل القيظ، فعد نِدًّا لسِمْلا الواقعة في هِمَالْيَة الغربية، وإن كان دونها لرطوبة جوه، وتبدو مدينة دارجي لنغ سوقًا عظيمة يقصدها الهندوس وأهل التبت للمقايضة والمعاوضة.

وتشابه منطقة بهوتان منطقة سِكِم الفاصلة لها عن نيبال، وتقع على منحدرات الجنوب من منطقة هِمَالْيَة الشرقية، وتقسم إلى ثلاث مناطق زراعية: المنطقة السهلية التي ينبت فيها نبات البلاد الحارة، ومنطقة المنحدرات التي ينبت فيها نبات البلاد المعتدلة، ومنطقة غابات الصنوبر المرتفعة الجليدية، وتروي الرياح الموسمية سفوحها الجنوبية إرواءً تامًّا، ولا يقطن بها غير الجبليين، وتقوم مدينتاها المهمتان على أماكن مرتفعة، وتحاذيها منطقة تَرَائِي.

(٢) البنغال

يلي سهل البنغال الواسع شواهق سِكِم وبهُوتان من الجنوب، ويرى الناظر إلى هذا السهل من جبال هِمَالْيَة بساطًا أخضر من النبات الريان[45] الزاخر حيث تجري أنهار رائعة وروافد وجداول متشبِّكة، ويرى في أثناء الفيضان من الماء ما يعدل اليبس، ويرى في أثناء الطوفان الذي تُسفر عنه الرياح الموسمية الجنوبية رطوبةً شديدة.

45 الريان: ضد العَطِش.

ومن يُنْعِم النظر في البنغال يقطع بأنها تابعة للبحر أكثر من اتباعها لليابسة، ما كانت مجاري المياه التي على سطحها لا تزيد عن البُحيرات والأنهار الواقعة تحتها، وليس بقليل أن يجد فلَّاحها الذي يقلب الأرض بمِعْزَقه[46] سماطًا سائلًا على عمق قدم أو قدمين.

وما هو آهلٌ معمور من البنغال يتنازعه الماء الغامر وشعاع الشمس الحار، ولولا هذا الشعاع ما سلمت في البنغال أرض من الغرق، وينجم عن تناوب الحر والبلل للبنغال قوة إنبات لا تُنْعَت، وأبخرة وخِيمَةٌ لا تُحَدُّ، وجوائح[47] لا يُحصيها عَدٌّ، فمن البنغال تَثِبُ الهَيْضَة[48] على العالم، وعلى البنغال تسيطر الْهَيْضَة والحُمَّى في كل زمن.

والبنغال، مع ما فيها من الآفات والضواري وأنْمُرِ الآجام وتماسيح الأنهار، تُعَدُّ من أكثر البلدان سكانًا وأصلحها أطيانًا؛ فأراضيها تُؤتي أُكُلَها مرتين أو ثلاث مرات في السنة من غير عناء كبير، وهي، لأنها ذات شواطئ، تَجِدُ إلى البحر من المنافذ ما تُصَدِّر منه حاصلاتها، ويغشى الأرز سهولَها الرَّطْبَة المطمئنة، ويغشى الشعير والبُرُّ[49] والدُّخْن،[50] إلخ، حقولها المرتفعة، وينبت فيها القطن وقصب السكر والتبغ والقِنَّب والخَشْخَاش[51] والعِظْلِم[52] وما إلى ذلك من النبات الغذائي الصناعي بسهولة عجيبة.

وتقوم مدن كثيرة عامرة زاهرة على ضفاف الأنهُر التي تشقُّ البنغال، ويظل زهو هذه المدن ما ظلت على هذه الضفاف، فإذا حوَّل النهر مجراه خَرِبت كما حدث لمدينة غور، وأهم مدن البنغال مدينة كلكتة التي هي

---

46 المِعْزَق: المِذْرَاة، الآلة من حديد ونحوه مما يُحفر به.

47 الجوائح: جمع الجائحة وهي البَلِيَّة والنَّهْلُكة والداهية العظيمة.

48 الْهَيْضَة: الكوليرا.

49 البُرُّ: القمح.

50 الدخن: نبات حبه صغير أملس.

51 الخشخاش: نبات يحمل أكوازًا بيضًا وهو مُنَوِّم مُخَدِّر.

52 الْعِظْلِم: نبات يُصبغ به.

عاصمة الإمبراطورية الإنجليزية الهندية، والتي هي من أعظم مرافئ شبه جزيرة الهند.

وأهل البنغال مزيجُ أُنَاسِيَّ مختلفين، والمثال الهندوسي في هذا القطر كريهٌ خَلقًا وخُلقًا، ويراه الأوروبيون خلاصة جميع العروق التي تسكن شبه جزيرة الهند، ويرجع ذلك إلى أن أكثر سياح الغرب لم يبصروا غيره، ويتصف البنغالي بالقِصَر والهُزَال والاسمرار والتكرُّش، ويهضم البنغالي ما يُلَقَّنَهُ، ويبدو البنغالي من الناحية الخُلُقية خَنِثًا جبانًا نذلًا مرائيًا.

(٣) أَوَدْهَة

تقع ولاية أَوَدْهَة، التي هي من أَرْغَد بقاع الأرض، في شمال البنغال الغربي، بين وادي الغَنْج وجبال هِمَالْيَة، وتتمتع بجو أطيب من جو البنغال، ويختلف سكانها عن سكان البنغال اختلافًا كثيرًا، ويقرب عرقهم الجميل البهيُّ القوي من العروق الأوربية قربًا كبيرًا، ويتصف بالطول وانتظام الوجه وانسجام اللون، ولا إفراط في رطوبة أَوَدْهَة، وتكفي لإنبات أراضيها نباتًا عجيبًا، ولا مراء في قيظ صيفها، ولكنَّ قُرَّ شتائها يُطَرِّي الجو فيتقوَّى أهلوها ويتجدد نشاطهم.

وفي أَوَدْهَة غاباتٌ ساترة لِما يَلِي الجبال من الأراضي غنية بالقنائص، كَثَّةٌ بالأشجار الصالحة لاستخراج العطور الفاخرة، وفي أَوَدْهَة سهول هابطة بالتدريج إلى نهر الغَنْج ذات غلَّات سنوية تورث وَفْرَتُها العجب، وليس بضائرٍ أن يشتمل تَرَائِي على قطعة مهمة من أَوَدْهَة ما تغلَّب الإنسان بقوة إرادته ومضاء عزيمته على الطبيعة فاستطاع أن يحيي أجزاء كثيرة من تلك القطعة الخطرة، ويجعلها طيبة صحية.

وفي أساطير الهندوس ذكرٌ لجمال أَوَدْهَة وخصبها، وفي قصائد الشعراء ترنُّمٌ بهذه المملكة التي كانت تسمى كُوسَلَة، وبعاصمتها القديمة أجودهيا الخَرِبة في الوقت الحاضر، جاء في ديوان الرماينا:

هنالك قُطْرٌ واسع اسمه كوسلة واقع على شاطئ سراجو زاهر عظيم الخيرات كثير القطاع وافر الغلَّات، وهنالك مدينةٌ شهيرة في العالم بأسره أنشأها سيد البشر مَنُو فدُعيت بأجودهيا.

وأضحت تلك المدينة الآهلة أَوَدْهَة الحديثة مؤخرًا، وبهذا الاسم يسمى البلد الذي كانت تلك المدينة عاصمة له فكانت واقعة على شواطئ غوغرا.

وغيَّر بلدُ أَوَدْهَة، كبقية بلاد الهند، عاصمتَه غيرَ مرة، فأضحت مدينة لَكَهْنَئُو عاصمة له بعد أن كانت فيض آباد، ومدينة لَكَهْنَئُو تلك نالت أهمية كبيرة منذ صارت منطقة أَوَدْهَة التي هي «فردوس الهند» مُلك إنجلترا، وهي تجتذب فريقًا كبيرًا من الأوروبيين بسبب موقعها الساحر، وهي مركز الأناقة، وهي ذات مبانٍ مؤثرة من بعيد، وإن عددناها نموذجًا لانحطاط الفنّ الهندوسي في العهد الأوروبي.

(٤) هِمَالْيَة الغربية «كشمير»

وادي كشمير أفضل من قطر أَوَدْهَة، وأشهر منه في أقاصيص الهند وأساطير العالم، ولا يَعْدِلُه سوى منطقة نيبال حسنَ جوّ وروعةَ منظرٍ، ويقع بين فروع جبال هِمَالْيَة الغربية الأخيرة وشواهق كاراكورم الأولى، وتهيمن عليه الذُّرا ذات الثلوج، وتحيط به أسوار من جلاميد تتحدَّى أقدام الناس بمنحدراتها الوعرة الصعبة الكامدة، وتحتوي سهوله النَّضِرة الأرِجَة[53] على بحيرات وأهوار[54] بلَّورية هادئة وقرًى ذات مساكن رائعةٍ، ومعابدَ وقصورٍ ذات حياط[55] بِيضٍ.

والمرء حين يسير وَضِفَّة نهر ذلك الوادي الوحيد جِهيلَم «الذي يدعوه الآريون بفيتاستا ويسميه الإغريق بهيداسبس» فيرفع ناظريه يرى ذُرَى ننغا بربت الهائلة التي يتألف منها حد إمبراطورية الهند المُقَرَّن، ويرى ذُرَى

53 الأَرِجُ: ذو الرائحة الطيبة.

54 الأهوار: جمع الهور وهو البحيرة تجري إليها مياهُ غياضٍ وآجام فتتسع.

55 الحياط: جمع الحائط.

دبسنْغ الذي هو جبل الدنيا الثاني البالغ ارتفاعه ٨٦٦٠ مترًا، والمرء حين يخفض ناظريه يرى منظرًا دون ذلك جلالًا، وأكثر من ذلك سِحْرًا وسناءً، أي يرى مبانيَ رائعةً تُبَلِّلُ أسفلها الرخاميَّ بحيراتٌ زرق هادئة بهيجة محاطة بنبات فاتن ذي اخضرار وأزهار.

وتقع مدينة شِرى نَغَر، التي هي أكبر مدينة في ذلك القسم من هِمَالْيَة، في وسط وادي كشمير وعلى ضِفَّتَيْ نهر جهيلم، ودعيت هذه المدينة بـ «بندقية الهند» لما يشقُّها من القنوات.

وتغطِّي سُقُفَ بيوت مدينة شِرى نَغَر طبقة تراب رقيقة، حيث ينبت الخضر والزهر فتبدو هذه المدينة حديقة واسعة معلَّقة، وتشاهد حدائق فوق أطوافٍ[56] عائمة في البحيرات فيزرع أهالي شرى نغر الماهرون فيها القِثَّاء والبطيخ فلا تقل غرابةً عن تلك.

ويلائم جمالُ الإنسان في ذلك «الوادي المبارك» جمالَ الطبيعة فيبدو رجال كشمير أكثرَ رجال الهند تناسُبًا وبياضًا، وتبدو تقاطيع نسائها الجميلة مشهورة في أسواق نخاسة الشرق.

56 الأطواف: جمع الطوف، وهو قطع خشب يشد بعضها إلى بعض فتصير كهيئة سطح، ويُرْكَب عليها في الماء، أو تُحمل عليها الأثقال.

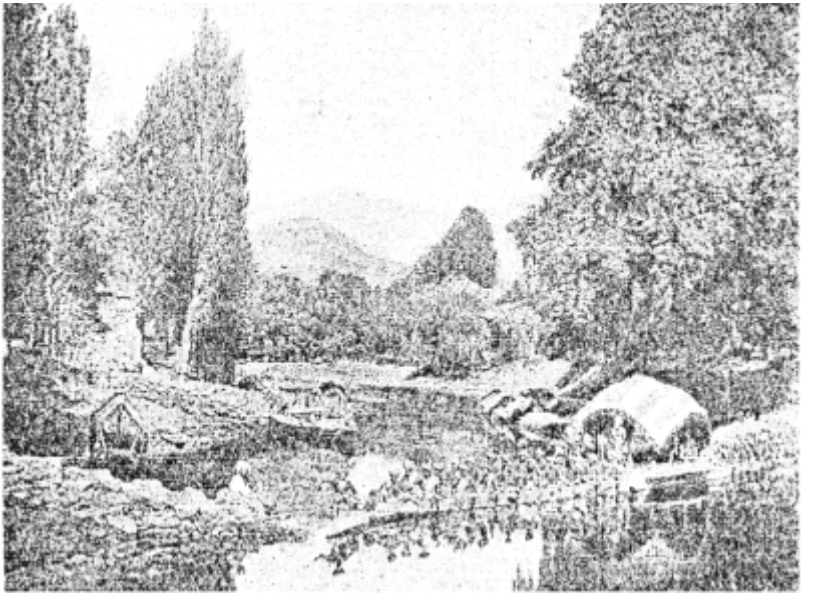

شكل ٢-٢: نهر جهيلم يقطعه قارب مهاراجة كشمير.

وظلت صناعة الشالات الكشميرية منبع ثروة لذلك البلد زمنًا طويلًا، ثم نقصت أهميتها لتقلب الأزياء في أوروبا، ولكن أهالي ذلك البلد وجدوا في صناعة عطور الورد، وصناعة الأدوات المعدنية المرصعة وما إليها ما يشغلهم.

ويتألف من وادي كشمير بقعةٌ ذاتُ طابع خاص في مجموعة الولايات الكشميرية، وتشتمل هذه الولايات، التي اتخذت جمُّو الواقعة على نهر جناب عاصمةً لها، على أودية نهر السِّنْد العليا، وعلى روافده، وعلى جميع الهضاب المجاورة للتبت، وتُعَدُّ لدَّاخ وبالْتِي من أجزائها سياسيًّا.

ويستوقف تكوينُ وادي كشمير النظر كثيرًا، فيدل البحث العلمي على أن هذا الوادي كان بحيرة في سالف العصور، وأن انقلابًا حدث فأسفر عن انفتاق سلاسل جبال الدنيا وجريان مياه تلك البحيرة، وأساطير الهند

مملوءٌ بأخبار ذلك الأمر العُجاب الذي حدث قبل ظهور الإنسان في الدنيا.

(٥) الهند الإسلامية: «البَنْجَاب وراجبوتانا والسِّنْد، إلخ»

يشتمل وادي السِّنْد على البَنْجَاب وراجبوتانا والكجرات والسِّنْد، ويُسَمَّى هذا الوادي بالهند الإسلامية لسيطرة الفاتحين المسلمين عليه، ولِما احتواه من المباني التي أسفرت عنها الحضارة الإسلامية.

وتضاف إلى ذلك القطر منطقة وادي الغَنْج الأعلى التي يسميها الإنجليز بالولايات الشمالية الغربية، واتخذ نهر جمنة الذي هو رافد ضفَّة نهر الغَنْج اليمنى حدًّا رسميًّا بين البَنْجَاب وتلك الولايات الشمالية الغربية.

وتبدو منطقة البَنْجَاب الآهلة العامرة المستطيلة في أسفل هِمَالْيَة أنها تمطُّ سهل الغَنْج الخصب إلى ما وراء نهر السِّنْد فتكون أداة وصل بين واديي الشمال العظيمين اللذين يظلان منفصلين بغيرها.

وفي منطقة البَنْجَاب حقولٌ حسنةُ الرِّي جيدة الخصب، وسكان كثيرون، ومدنٌ زاهرة شهيرة كالمدن: لاهور وأمرت سر ودهلي، إلخ.

ولكن الإنسان إذا سار إلى الجنوب شاهد انبساط الصحاري الواسعة الكئيبة، واتجاهها إلى بحر العرب، وشاهد بيوتًا تتباعد أو تغيب، وتتعذر الزراعة في تلك الصحاري فلا تحتوي على غير مَرَاعٍ ضعيفة هزيلة.

ويتصف جوُّ ذلك القطر باختلاف حرارته بين فصل وآخر، وتزيد تقلبات هذه الحرارة على خمسين درجة، ولا يُشاهَد هذا في صحراء تِهار وحدها، بل يُشاهد في مدن الشمال أيضًا، فمن هذه المدن أغرا التي تكون من أشد البلاد قيظًا فلا يندُر أن تصبح ذات قُرٍّ في الصباح والمساء من أيام الشتاء.

وفي فصل الجفاف تَهُبُّ في الصحراء رياح لوافِحُ كأنها خارجة من الجحيم، فلا تضع الحيوانات أرجلها على رمالها المحرقة من غير أن تألم،

فيستفيد من ذلك أناس راكبون خيلًا أو جِمالًا فيتصيدون ذِئابًا لعجزها عن الهَرَب في ذلك السعير.

وتمتد بقعة غربية مستوية من جنوب صحراء تِهار وتسمَّى رن كجَّة، ويترجح عرضها بين ٦٠ و١٠٠ كيلو متر فتكون في الصيف قاسيةً متماسكة كالمرآة، فإذا حلَّ الشتاء غمرتها طبقة ماء عمقها متر واحد، فلا يفصلها عن البحر تقريبًا سوى جزيرة كَجَّة البارزة قليلًا، والحاوية بضع قرًى ونباتًا ضعيفًا، فيتموَّج فوق رَن كَجَّة تلك سرابٌ تِلْوَ سراب بفعل أشعة الشمس فيمسُّ السائحَ لُغُوب،[57] فهيم فيتعذر — لهذا الهَيْمِ وانعكاس النور على الرمل أو على البِرَك — اجتياب رَن كَجَّة تلك نهارًا إلا بعد غياب الشمس.

ويقع في جنوب كَجَّة الشرقيّ وغديرها[58] شبه جزيرة كاتهياوار التي هي جزء من ولاية الكجرات سياسيًّا.

والكجرات من أمدن بلاد الهند، ومدينة أحمد آباد، التي هي قاعدتها زاهرةٌ ذات جدٍّ وعمل وتجارة رابحة، وليست مرافئ كاتهياوار بمجهولة لدى سفن العالم، ويصب في خليج كَمْبِي الذي يُبَلِّل شواطئها نهرُ نَرْبَدَا ونهر تابتي.

وترتفع جبال أراولي وطود آبو المنفصل منهما في شمال الكجرات وشرق صحراء تِهَار، ولطود آبو هذا صيتٌ بعيد في جميع بلاد الهند حيث يقدِّسه الناس، فأُنشئت في جوانبه معابد جَيْنِيَّة أظهر مُتَفَنِّنُو الهندوس فيها ما لديهم من الحِذْق في النحت العظيم الرائع الساحر.

ويسكن الراجبوت الذين هم من أقدم عروق الهند جبالَ أراولي والبُقعة الوعرة التي تهيمن عليها هذه الجبال، وظلَّ الراجبوت مستقلين تقريبًا مع غزوات الأجنبي بفضل طبيعة بلدهم ذي الآطام[59] والمعاقل

57 لغب يَلْغُبُ لغوبًا: تَعِبَ وأعيا أشدَّ الإعياء.

58 الغدير: قطعة من الماء يتركها السيل.

59 الآطام: جمع الأطم وهو الحصن.

الطبيعية، أي بفضل بلدهم ذي الصخور التي يُخَيَّل إلى الناظر من بعيد أنها حصون وأبراج، فإذا أقيمت فوقها قلعةٌ صَعُبَ تمييز ما صنعه الإنسان فيها مما شادته يد الطبيعة.

وتقع ولاية بُنْدِيل كِهَنْد وولاية بها كِيل كهند في شرق راجبوتانا، وتحتوي تانك الولايتان الجبليتان على مناجم حديد وفحم حجري، وكانت مدينة كَهْجُورا قاعدة بُنْدِيل كِهَنْد فأضحت مهجورة مع اشتمالها على معابدَ معدودةٍ أعجبَ ما في الهند.

وتصل هضبة مَالَوا وجبال وِنْدِهيَا ذلك القسم الهندوستاني بولايات الهند الوسطى العالية.

(٦) ولايات الهند الوسطى وساحل أوريسة

يُعرف بِغوندوانا قسمُ الهند الذي يسميه الإنجليز بالولايات الوسطى، ويتوسط هذا القسم الهندوستان والدَّكَن بحيوانه ونباته وموقعه الجغرافي، وبدا هذا القسم مستورًا بآجام موبوءة مهلكة لا تُنْفَذ، وظلَّ إلى القرن الثامن عشر حاجزًا لم يقدِر الغزاة على مجاوزته إلا بالدَّوْر حوله، وبقي إلى ما قبل ثلاثين سنة مجهولًا كأفريقيا الوسطى.

وتتألف غوندوانا من سلسلة هِضاب يترجَّح ارتفاعها بين ٣٠٠ و١١٠٠ متر، وتتخللها أودية وفِجاجٌ عميقة، وتظهر هضبة أَمَرْكَنْ تَك، التي هي أعلى تلك الهضاب، عقدةً جبلية مهمة ينبع منها ستة أنهار كبيرة نذكر منها سون ومهاندي وَنَرْبَدَا.

ويقطن في قسم من غوندوانا وحوش الغوند الذين سندرس أمرهم في فصل آخر.

ويقع ساحل أوريسة في شرق غوندوانا، وهو بقعة فقيرة قَفْرٌ مُعَرَّضة للجدب والفيضان والجوع في الوقت الحاضر، بعد أن كانت مقرًّا لدولة قوية سَنِيَّة في غابر الأزمان، كما يشهد بذلك ما تركته تلك الدولة من المعابد البهية، وتُعد معابد بهو ونيشور وجكن ناتها من أشهر معابد الهند، لألوف الحجيج الذين يقصدون هذه الأخيرة من جميع أنحاء الهند.

ويمتد ساحل أوريسة إلى الجنوب من شاطئ سكهر، ويُرى تحت بحيرة جلكا ممرٌّ ضيق يعرف بترموبيل سكهر، فيمر بين الجبال والبحر بعد أن يقطع مدينة بَرَهْمَا بوترا المهمة، فمن هذا الممر اضطر الفاتحون أن يسيروا ليدخلوا الدَّكَن من هذه الناحية، فهذا هو الحد بين اللغات الآرية والدراويدية، فيتكلم الناس بالأوريَّة في الشمال، ويتكلمون بالتليغو في الجنوب.

(٧) الدَّكَن

كان اسم الدَّكَن يطلق على قسم الهند الجنوبي المقابل للقسم الشمالي المعروف بالهندوستان، واليوم يطلق على منطقة الهضاب عدا الولايات الوسطى والسواحل.

وتلك الهضابُ ذاتُ التراب البركاني غير خصيبة، وقليلة السكان على العموم، ويُستثنى من ذلك ضفاف الأنهار والأودية ذوات الأطيان السود، والجزء الغربي الذي تحمل الرياح الموسمية الجنوبية إليه سيولًا مباركة في كل سنة.

ويقطن في الشمال الغربي من ذلك القطر المَرَاتها الذين كانت لهم دولة قوية محارِبة مرهوبة في الهند بأسرها فيما مضى.

قهر المراتها سكانَ تلك الجهات الأصليين البهيل، واستقروا بعُرضَي جبال كهات وبالهضاب العالية وبسهول كونكن الغنية، وثار المراتها على الإنجليز غير مرة، ولاقى هؤلاء الأَمَرَّيْن في رد جماحهم، وإذا عَدَوْت المراتها وجدت أهالي الدَّكَن من الدراويد، أو من الذين تغلب عليهم العنصر الدراويدي على الرغم من كل توالد.

ولم يبقَ سوى دولة ميسور ودولة حيدر آباد من الدول الكبيرة التي استولت على جنوب الهند فاتخذت غولكندا وبيجابور وبيجانغر عواصم لها فكان لها في أخيلة الأوربيين أعجب الذكريات.

وتقع مملكة ميسور على الجانب الشرقي من جبال كَهَات الغربية، ويستند جنوبها إلى جبال نل غيري، وتفيض سحب الرياح الموسمية عليها

بعد أن تصب بصولة في ساحل ملبار، ويستر بعض مملكة ميسور، لذلك، نبات قوي، وتشتمل على غابٍ عجيبة يكثر فيها شجر الصندل الطيّب الشذا الذي يُتقن الهنود نقره وترصيعه، وتُصَدِّر القطن والحبوب والأبازير إلى الخارج، وتظهر عاصمتها التي تسمى ميسور أيضًا مدينةً صحية هيفاء، وإن كان الأوربيون يفضلون عليها أوتاكامند الواقعة في جبال نل غيري، والمعدودة مدينة الصحة في جنوب الهند.

وفي ميسور، في جنوب نهر كِرشْنا، على الجانب الغربي من جبال كهات، ينبع نهر كاويري الذي هو أهم أنهار جنوب الهند، فيترك منطقة الهضاب فورًا من شلال يزيد ارتفاعه على مائة متر، فيبدو في زمن الفيضان من أروع شلالات الدنيا، فيتألف في آخره دلتا واسعة تُسمى ضلعُها العريضة كولَرُون فيُقَدَّس كما يُقَدَّس أكثر أنهار الهند، فأقيمت في الأماكن التي يجري منها؛ «أي في تانجور وترِي جنابلي وكنبه كُونَم ومدورا»، معابد مشهورة تختلف عن معابد الهند الأخرى بأبوابها الهرمية الكبرى المغطاة بألوف التماثيل ذات الأثر الرائع في مجموعها.

ويتكوَّن من أقصى الهند الواقع في جنوب نهر كاويري منطقة جبلية وحشية ذات غابات كثيرة مملوءة بالضواري والأفاعي، وذات أودية غير صحية، وتُبْذَل جهو طيبة في الانتفاع بترابها، وتقام مدن لهو في منحدرات جبالها حيث تلطف الحرارة وتجيء نِسامٌ[60] لَيِّنَة ملائمة للصحة.

وتشتمل دولة نظام الكبيرة، التي هي أوسع دول الهند شبه المستقلة، على جميع القسم الأعلى من الدَّكَن، وعاصمتها حيدر آباد الإسلامية من أكثر مدن الهند وقفًا للنظر، فهي تَصلُح مثالًا لما كانت عليه عواصم الشرق، كبغداد، أيام سلطان العرب.

وتقع مدينة غول كوندا، التي غدت قريةً حقيرة، بالقرب من حيدر آباد، ويُثير اسمها في الخيال صور القصور الرائعة الخرافية ذات الشُّفوف والوِشاء الزاهية والحجارة الكريمة المتألقة، وتسودها القعلة

60 النسام: جمع نسيم.

ذات الألغاز التي هي مفتاح تلك المنطقة، فلم يوفق لزيارتها قبلنا غير فئة قليلة من الأوربيين.

ولم تكن عاصمة الدَّكَن السابقة غول كوندا وحدها هي التي آلت إلى الخراب، فليس قليلًا خَرِب العواصم السابقة في الهند، فأكثر هذه العواصم الخَرِبة وقفًا للنظر هو بيجابور وبيجانغر اللتان تجد صورًا لكثير من مبانيها في هذا الكتاب، وبيجانغر هذه أصبحت ركامًا من المعابد والقصور على مساحة تعدل باريس فصار لا يطؤها إنسان، وعاد لا يأوي إليها سوى الضواري، فعلى المرء أن يطوف على نور القمر في تلك المعابد المهجورة وفي مسالك تلك المدينة الميتة المصفوف على جوانبها متشبّكُ العماد والأروقة؛ ليدرك ما في الأشياء الصامتة من بيان بليغ في بعض الأحيان، فبمثل هذه المناظر الماثلة استطعنا أن نُخْرج من أعفار القرون طيف حضارة بائدة.

الفصل الثالث

النباتات والحيوانات والمعادن

(١) النباتات

تشتمل الهند على أنواع النبات والحيوان اشتمالَها على مختلف الأجْواء، ولا تمتاز الهند بنوع خاصٍّ من الحيوان والنبات.

فبينما ترى منحدرات جبال الهند مكسوَّة أزهارًا وأثمارًا كالتي تُشاهَد في أوروبا، تُذكِّرك سهولها بسهول فارس والصين، وتذكرك بقاعها الجافة المحرِقة بأفريقيا الوسطى، ويذكرك نبات تَرَائِي وسُنْدَرَبْن القوي الأشعث بنبات جزائر الملايو.

وبلاد الهند في مجموعها غنية خَصْبَة كافية لتموين سكانها وإطعامهم عن سَعَةٍ، وتنشأ مجاعاتها الهائلة التي تُخَرِّب بعض بقاعها أحيانًا عن افتقارها، في الغالب، إلى طُرُق منتظمة صالحة لنقل ما يزيد على احتياج بعض مناطقها إلى مناطقها التي تنقص حاصلاتها.

وتنشأ تلك المجاعات، كذلك، عن فقر طبقاتها الدنيا المدقع الذي لا يجد أفرادها معه ما يشترون به قليلًا من الأرز أو البُرّ فيهلِكون جماعاتٍ على حين توسق في السفن مقادير عظيمة من حبوب الهند لتباع في الأسواق الأجنبية.

وَتُعَدُّ الحبوب في الهند أهم ما تنبته الأرض، فيُزرع فيها القمح والأرز والذُّرة والدُّخن بكثرة، فيكون للأهالي الذين حُرِّم عليهم أكل اللحم طعام بذلك، فما في الهند من حرارةِ جَوٍّ وقِلَّة مَوَاشٍ وحظر نحرٍ يحمل الهندوسي على العيش بما تُخرج الأرض من قوت.

ومارس سكان الهند الزراعة بحذق ونشاط في كل حين، فلما حاول الأوربيون أن يُحَسِّنوها بما أدخلوه إليها من الأساليب الحديثة اعتُرف، في غير حالة، بأن المناهج القديمة خير من جديدها، وبأن من أصالة الرأي

أن يُرجَع إليها، وذلك إلى ضرورة توسيع رِقاع الأراضي الزراعية ما كانت هذه الرقاع لا تَعْدِل غير ثُلُث مساحة الهند في الوقت الحاضر.

ووادي الغَنْج أخصب بقاع العالم، لا الهند وحدها على ما يُحتمل، فتستره حقول عجيبة لا حدَّ لها، فكلَّت عينا الفاتح المغولي بابر وارتدَّت عن تأمل امتدادها إلى ما وراء الأفق امتدادًا مُطَّردًا، وليس بنادر أن يُنتج هذا الوادي ثلاث مرات في السنة الواحدة، والأرز، على الخصوص، هو ما يُزرع في ضفاف الغَنْج بعد الفيضان، وتكثُر أيضًا زراعة البُرّ والقطن والتبغ والقِنَّب والخشخاش في واديه المنقطع النظير بخصبه الذي لا ينفد.

وفي الهند حيث تُروى الأرض جيدًا تبدو هذه الأراضي خصبة سخيَّةً، وفي الهند حيث تقطع الولايات شبكةٌ من مجاري المياه أو تفيض عليها رياح الجنوب الموسمية تُنتج هذه الولايات إنتاج البنغال، وفي الحقول المطمئنة حيث تزيد الرطوبة تزرع بكثرةٍ أنواع الأرز، وفي الحقول المرتفعة حيث تقلُّ الرطوبة يُزْرَع البُرُّ.

والأفيون أهم ما تُصَدِّره الهند بعد الحبوب التي تمتلئ بها السفن كلَّ يوم فتنقلها إلى بلاد الغرب، ويُزرع الأفيون، على الخصوص، في سهل الغَنْج والبَنْجَاب وراجبوتانا، وتستأثر الحكومة الإنجليزية باحتكاره، وما تستنفده بلاد الصين من مقادير الأفيون العظيمة هو ما تستورده من الإنجليز بعد أن يزرعوه في أتربة الهند، وليست بمجهولةٍ أنباء حَنَق الإنجليز وغيظهم من وُلاة الأمور في مملكة ابن السماء حينما أرادوا وقاية رعاياهم من هذا السم القاتل، فأسفر ذلك عن شهر الإنجليز لتلك الحرب المعروفة «بحرب الأفيون» فأَكْرَه الإنجليز الغالبون فيها بلادَ الصين على إدخال أفيون الهند إليها كما في الماضي، فيموت في كل سنة عدة ألوف من الآدميين بسبب استعماله.

وزراعة القطن في الهند تلي زراعة الأفيون أهمية، ويصلح بعض الأصقاع من أراضي الدَّكَن العليا لزراعة القطن كثيرًا، والقطن الهندي دون القطن الأمريكي حظوةً وإن أدَّت حرب الانفصال إلى إقبال الناس عليه لبضع سنين، فزادت زراعته وتجارته زيادة غير مُنتظَرة، ولا يزال القطن

الهندي عامل إصدار مهم بعد غزله أو تحويله إلى نُسُج، وكان لنسائج الهند القطنية شهرة فنازعها الغرب إياها بآلاته، فصار الغرب يرسل إلى الهند مثل ما ترسله الهند إليه.

وفي الهند يُزرع القِنَّب ثم تصدره بوفرة، والحبوب الزيتية مما تنتجه الهند فتبيعه من الخارج.

ولا يبتاع الأوربيون التبغ الهندي؛ لسوء تعبئته، فيستنفده أهل الهند، وتشتهر مدينة تري جنابلي الواقعة في الجنوب بسيغاراتها مع ذلك.

وتجيء الهند بعد الصين في زراعة الشاي، وأسفرت زراعة الشاي في منطقة آسام عن أطيب النتائج، وتتقدم زراعة القهوة منذ أواسط هذا القرن في رُبَى الجنوب ولا سيما في مملكة ويناد الصغيرة الواقعة في جنوب مملكة ميسور.

والْعِظْلِم[61] والتَّنْبُل[62] والكينا وتوت القز مما تكثر زراعته في بلاد الهند.

وكانت الهند تشتمل على غابات عجيبة، ومن المؤسف أن نقصت هذه الغابات بما قطعه الأهلون وغزاة الإنجليز من شجرها قبل أن تدبّر الحكومة أمرها، والهندوس، في الولايات الوسطى، لا يزالون يتخذون أسلوب إحياء للأراضي محزنًا حقًّا، فهم يُبيدون قديم الشجر في قطع من الغاب فيحرقونه ويَبْذُرون الحَبَّ بين رماده، فيحصدون زرع سنتين أو ثلاث سنوات، فإذا ما استُنْفِد خِصْبُ الأرض المؤقت الذي نشأ عن الرماد أبادوا شجر قِطَعٍ أخرى، وهكذا.

ونجم عن جشع الإنجليز وغفلتهم استمرارهم على ما بدأ به الأهلون من إبادة شجر الغاب، ولم يَرَوْا فائدةَ الإبقاءِ على الغابِ ووَقْفِ تلك الإبادة إلا في الأيام الأخيرة.

---

61 الْعِظْلِم: نبت يصبغ به.

62 التنبل: نبات من الهند يُمضغ ورقه.

ويُعدُّ السال والتِّيك مَلِكَيْ غابِ الهند، والسَّالُ يُخْرِج القطران والراتينج،[63] والتِّيك يُتَّخذ خشبًا للبناء، وتُحوَّل أغصانه إلى فحم جيد، ويتطلب شجر السال والتيك واسعَ الأراضي، ولا يَنْبُت بعضه بجانب بعض، ويستر شجر السال منحدرات هِمَالْيَة السفلى الجنوبية، ويوجد في الولايات الوسطى، ويقف عند حد هضاب الدَّكَن ذوات الحجارة البركانية حيث ينبت شجر التيك.

وتدَّثِر أعالي جبال الهند، كما في كل مكان، برداء داجن من شجر الصنوبر والشوح،[64] وتجد تحت هذا النطاق البارد الذي يَصلُح لتلك الأشجار منحدرات ذاتَ جوٍّ معتدل اعتدالَ جَوِّ أوروبا فينبت فيها ما تعرفه غابات الغرب من شجر البلوط والزَّين[65] والحَوَر، وينبت بجانب هذا الشجر ما يعرفه الغرب أيضًا من الأشجار المثمرة، فترى بين أدغال الكِشْمِش[66] شجر التفاح والكمثرى والخوخ والإجَّاص، وترى بينها الكَرْمَة في بعض الأحيان.

وإذا نزلت من تلك الارتفاعات إلى السهول شاهدت أشجارًا ذوات أثمار يانعة وخُشبانٍ نافعة وأوراق رائعة، ومن هذه الأشجار نذكر شجر البانيان والمَهُووا ذا الزهر النافع في زمن المجاعات، والخيزُران والصندل ذا الرائحة الذكية، ونذكر، على الخصوص، النخل التي يَعُدُّ أهل الهند ألف وجه ووجه للانتفاع بجذوعها وليفها وسَعَفها وعصيرها وثمرها، والولايات الجنوبية أكثر ولايات الهند غرسًا للنخيل.

وتنمو نباتات البلاد الحارة نموًّا عظيمًا في مناطق الهند الجيدة الرِّيّ والشديدة القيظ، وتُنْجِم هذه النباتات في منطقة آسام، على الخصوص، بما يُزْرِي بجهود الإنسان، فتبلغ نباتات غابها من الكثافة ما لا بد معه من حرقها في فصل الجفاف لتنظيف ترابها، وقد يصل عُلُوُّ

63 الراتينج: صمغ.

64 الشوحة: شجرة تكون أغصانها على هيئة مخروطة وهي واحدة "الشوح."

65 الزين: شجر كانوا يعملون منه الرماح.

66 الكشمش: نبات ثمره يشبه العنب لا عجم له.

شجرها ستين مترًا فتصل المُعَرِّشات بين هذا الشجر فيتعذر نفوذها، فيتفتَّح أسفلها عن غريب الأزهار، وفي جبال كهاسي وحدها عُدَّ ٢٥٠ نباتًا من الفصيلة السحلبية، ولن تجد في الأرض بقعة ذات نبات فخم أشعثَ كما تراه هنالك.

(٢) الحيوانات

لا تجد في الهند نوع حيوان خاص بها، وتختلف حيواناتها اختلاف نباتاتها وجوائها، وتذكرنا حيوانات الهند، على حسب البقاع، بحيوانات الصين وأفريقيا والملايو وأوروبا.

وتكثر في أجزاء جبال هِمَالْيَة التي تلي الذُّرا المكسوة ثلجًا ما يُرى في التبت من الوعول والتيوس والدِّببة والضِّرَاء[67] والذئاب، وتكثر في بقاع ترائي وآسام الحارَّة ذوات الآجام الغامرة ما يأوي إليها من الضواري التي يتعقبها الناس في بقاع الهند الأخرى فيتوالد فيها أمينًا، وفي تلك البقاع تجد، أيضًا، الفُيول تعيش جماعات وتسير حُرَّة، والفيول في الهند تكاد تَبِيد ما لم يعلن الإنجليز حمايتهم لها ويُحرِّموا صيدها، ويفرضوا امتلاكهم لجميع ما في الهند منها، وفي الهند يصطادون في كل سنة نحو مائة فيل بالكُمُون والفِخاخ، ثم يضيفونها إلى الفِيَلة المُدَجَّنة فتقتبس منها خُلُق الطاعة والعبودية، وفي الهند يستخدمون الأفيال في أعمال كثيرة، وفي تَصَيُّد النُّمُر وفي مواكب الملوك، ففي كل موكب سَنِيٍّ تُبصر فيولًا تتقدم مُسْرَجَةً بسروج أرجوانية ذهبية حاملة راجوات أو من يُرَاد تكريمهم من مشاهير الضيوف.

وتكاد الآساد تزول من بلاد الهند، فلا تجد منها في غير جزيرة كاتهياوار بالغرب تقريبًا حيث تبدو قصيرة عاطلة من اللُّبَد.

67 الضِّرَاء: جمع الضِّرْوِ، وهو الضاري من الكلاب.

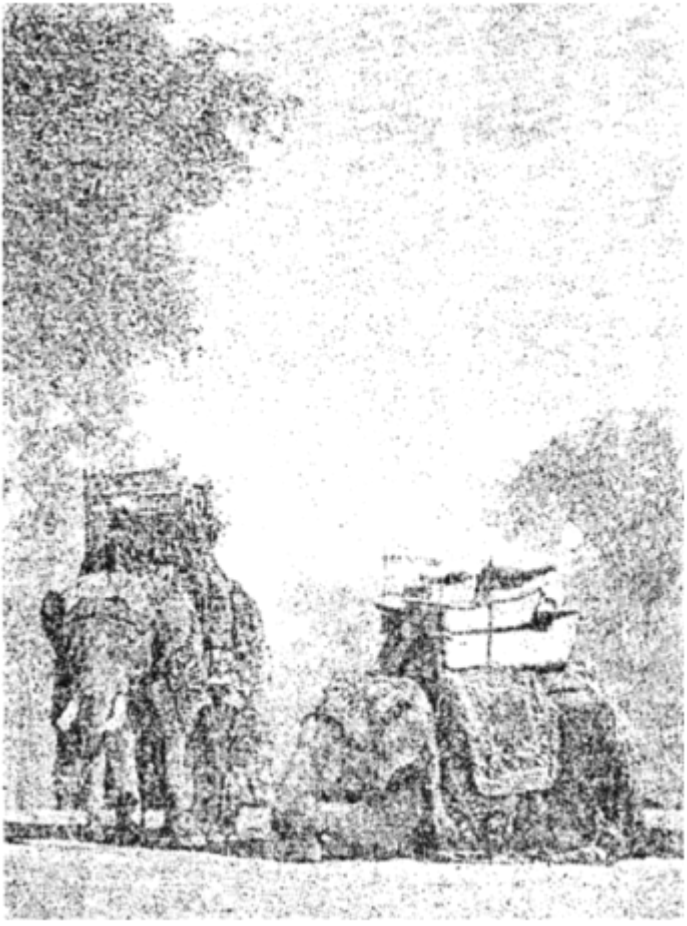

شكل ٣-١: فيلان يُستخدمان في حمل الأثقال.

والنَّمِر هو الحيوان المفترس الذي تجده في جميع أجزاء الهند، ولا سيما بين أدغال الغاب حيث يأوي مطمئنًا، والنَّمِر إذا وُجد بكثرة في الهند

فلأنَّ الناس لا يطاردونه فيها على الدوام، ولأن الناس يحترمونه في بعض البقاع التي تخربها الرِّتَتَةُ[68] فتفترسها النمور، وهذا إلى أن النمر يَتَصَيَّدُ عادة ما في الغابِ من الحيوانات البرية كالظباء والتُّيُوس والخنازير، وهذا إلى أن النمر لا يهجم على بيوت الناس ليتصيد بعض نَعَمِهم إلا إذا عضه الجوع، ومن النادر أن يفترس النمر إنسانًا، فإذا ما حدث ذلك وتذوَّق طعم لحمه لم يعدل عنه إلى فرائس أخرى فيغدو خَطِرًا إلى الغاية، فيُعلن الحرب على الإنسان فيُظهر من الخِتال[69] والمِحال[70] ما يكفُّ الإنسان معه عن الكفاح أحيانًا فيهجر المكان الذي يأوي إليه النمر بعد أن يكون قد أكل بضع مئات من التعساء المساكين، فيُعَدُّ النمر، إذ ذاك، حيوانًا جديدًا، فيُسمَّى «أكَّال الرجال»، ومما ذكره هنتر أن أكَّال رجالٍ افترس ١٠٨ من الناس في ثلاث سنوات، وأن أكَّال رجال ثانيًا افترس ٨٠ شخصًا في سنة واحدة، وأن أكَّال رجال ثالثًا أوجب هجر الناس لثلاث عشرة قرية فحوَّل ٦٥٠ كيلو مترًا مربعًا من الأراضي إلى صحراء، وأن أكَّال

68 الرِّتَتَةُ: جمع الرَّتِّ وهو الخنزير البري.

69 خاتل الصياد: مشى قليلًا قليلًا لئلا يُحِسَّ الصَّيْدُ به.

70 ماحله: كايده وماكَرَهُ.

رجال رابعًا قتل ١٢٧ شخصًا في سنة ١٨٦٩ فقطع طريقًا عظيمة لعدة أسابيع.

وتمنح الحكومة الإنجليزية جوائز سَنِية لمن يُبيدون تلك الضواري، ولكن الأهالي لا يجرءون على ذلك، تقريبًا؛ لما تُلقيه هذه الضواري من الرعب في قلوبهم، ولما يَعُدُّ به الهندوس أكَّال الرجال ضربًا من الآلهة إذا ما افترس بعض الناس.

والهندوس يحترمون الصِّلَّ،[71] المعروف بالقبرا والذي هو أشد فتكًا من النمر، أكثرَ من احترامهم للنمر، ولا بلد في الدنيا ذا حيَّاتٍ سامَّة متنوعة كالهند، ومن الحيات ما يخرج من الأرض، ومنها ما يخرج من الماء، وما في ساحل ملبار من الحيات التي تعيش في الماء المالح فذو سُمٍّ، وما يعيش منها في الماء العذب فغير سامٍّ، وَيُعَدُّ الصِّلُّ من أشد الأفاعي التي تخرج من الأرض خطرًا لما تُسفر عنه جروحه من الموت الزؤام على الدوام، ومن المتعذر دفاع الإنسان عن نفسه تجاه الأفاعي ما دَبَّت بين الكلأ، وخرجت من شقوق الأرض، وتسلَّقت المساكن،

71 الصِلُّ: الحية الخبيثة جدًّا.

وتكاثرت بسرعة، مع أن من الممكن تَصَيُّد النمر وإنقاذ الهند منه ذات يوم.

والصِّلُّ حيوان مقدس لدى الهندوس؛ لما يورثهم إياه من الخوف، وهو من صفات وِشنو الذاتية فنُقِش في مختلف المعابد، وهو يَلُفُّ مطاويه وينتفش متوعدًا حديدَ البصر.

ويقدر العارفون ضحايا النمار والأفاعي من الهنود بعشرين ألفًا في كل سنة، والنمار والأفاعي ليست كل ما في الهند من الحيوانات المرهوبة، ففي الهند الفئران وأرْجال[72] الجراد وأنواع الحشرات والهوامِّ العظيمة الأضرار.

وتكثر أنواع الذئاب في الهند، وبالفهود وبنات آوَى والضباع والكَرْكَدَّن والتماسيح نختم جدول ضواري الهند، ويُرى الكركدَّن في منطقة سُنْدَرَبْن على الخصوص، وتكثر التماسيح في الغدران والأنهر وتخرب مجاري المياه.

والهند بلاد فقيرة في المراعي ومن ثَمَّ في المواشي، وتكون جمالها وخيلها وبقرها وجواميسها أهلية، وتتصف أفراسها بالقِصَر، ولا تُرَبَّى

72 الأرجال: جمع الرجل، وهو القطعة العظيمة من الجراد خاصة.

الضأن فيها إلا من أجل لحومها وألبانها، ويكره الهندوس الخنزير، وفي الهند ما في أوروبا من الدواجن، وفي أنهارها أسماكٌ صالحة للأكل، وفي أحواض نِل غيري أنواع سمكٍ جديدةٌ أُدخلت إليها لتكثر فيها.

وتتكاثر القِرَدة في الهند فتُعدُّ نكبة على الفلاحين؛ لإتلافها مزروعاتهم، ولدخولها بيوتهم بوقاحة، وسلبها ما يطيب لها من أموالهم، وما يُكِنُّه الهندوس من الاحترام للقرد هنومان يَحُول دون دفاعهم ضد القردة الثقيلة، والقردة جعلت بعض مدن الهند، كمترا مثلًا، غير صالحة لسكنى الأوربيين، وبلغت القردة في بنارس من مضايقة السكان وقلة الحياء في السنوات الأخيرة ما نُفِيَت معه إلى الضفة الأخرى من نهر الغَنْج.

وتشتهر طيور الهند بجمال ريشها، وتقلُّ المغردة منها، ويحترمها زُراع الهند لإبادتها الحشرات، ويراعي سكان المدن الهندية النسورَ والعقبان؛ لإزالتها المواد الحيوانية العَفِنة، وإصلاحها الطرق والشوارع بذلك، وتتصف بَبْغَاوات الهند بالحسن والكثرة.

(٣) المعادن

صُورت الهند في أقاصيص السياح المُبالَغ فيها، وتمثلت لخيالات الغربيين الملتهبة معدنًا لا ينفد من الحجارة الثمينة، فلاحت الهند الواسعة مشتملةً على مثل ما يتدحرج في مجاري جزيرة سيلان، وما يُرصِّع فِدَرَها[73] البلورية من الياقوت واللازورد والزُّمرد والعقيق، فيجب حذف كثير من هذه المبالغات بوضع الأمور في نصابها.

أَجَلْ، احتوت الهند على مناجم غنية بالألماس، ولكن هذه المناجم نَفِدَت منذ زمن طويل تقريبًا، وكانت مناجم سنبل بور الواقعة في وادي مهاندي ووادي كرنول بالجنوب تُستغل إلى أوائل هذا القرن، وتُخرِج مناجم غولكوندا ما لا قيمة له من الحجارة مع إثارة اسمها في الذهن صور ما يُعشي الأبصار من أنوار الحجارة الكريمة ومع ما كان يُزهَى الأمراء به.

73 الفدر: جمع الفدرة وهي القطعة من الجبل.

وفي جبال أراولي الجَمَسْتُ،[74] وفي ميوار المهو،[75] وفي وادي نَرْبَدَا البلور، وفي ساحل الكجرات اليَصْب[76] والعقيق، وفي بعض الأماكن اليَشْم[77] وما إليه.

وظل استخراج اللؤلؤ مصدر ثروة الهند، فاللؤلؤ يُستخرج من مغاوص كمبي ومدورا وتراونكور وسيلان.

ويؤخذ الرخام من مقالع راجبوتانا، ويؤخذ حجر السَّنِّ من بُنْدِيل كِهَنْد ووادي جمبل فتزيَّن به المباني الفخمة.

وفي الهند مناجم فحم حجري واسعة واقعة بين الغَنْج وغوداوري مقسمة إلى أربع شعب، ولا يستحق بعضها أن يستغل، والفحم الذي يُستخرج من بعضها الآخر هو دون ما تخرجه مناجم أوروبا جودة، فما يتركه من الثُّفْل بعد حرقه أكثر مما يتركه الفحم الأوربي، وما يقوم به من العمل هو نصف ما يقوم به الفحم الإنجليزي.

74 الجمست: نوع من الحجارة الكريمة.

75 المهو: نوع من البلور.

76 اليَصْب: حجر قريب من الزبرجد لكنه أصفى منه.

77 اليشم: نوع من اليصب.

وتكون الهند، لافتقارها إلى الفحم الحجري، زراعية أكثر من أن تكون صناعية، فكأن الطبيعة قد أرادت أن تظل الهند بلادًا تُمِدُّ الأمم الأخرى بالأقوات، ولم تلبث صناعات الهند أن أخذت تتوارى عندما أصبحت مصانع الغرب تنافسها بعد فتح قناة السويس.

والحديد كثير في الهند، وأهم مناجمه في سِيلَمَ من أعمال ولاية مدراس، والأهالي قد استخرجوه وصنعوا الأدوات منه منذ القديم، وتُشَابِهُ الآلات الحديدية التي اكتشفت في آثار الهند الناقصة الشكل آثارَ السِّلْت الحجرية، وتُعَدُّ أقدم بقايا ما صنعه الإنسان في الهند.

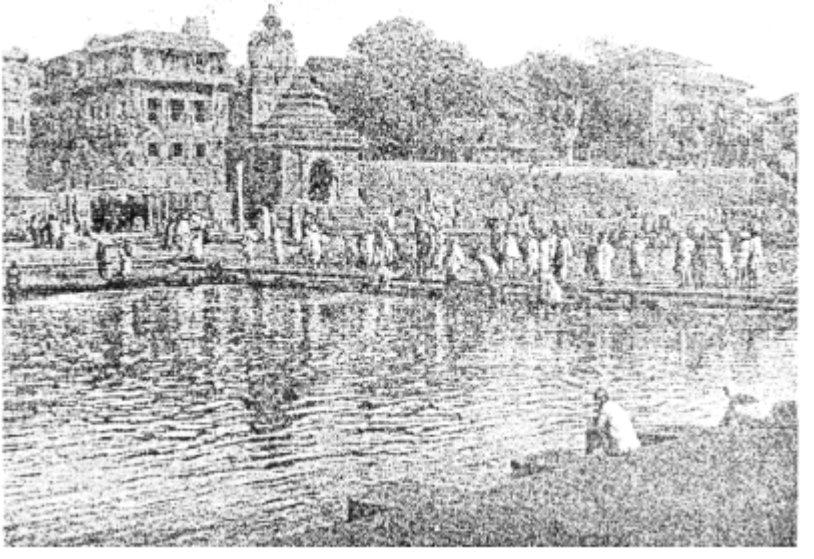

شكل ٣-٢: منظر في ناسك على ضفاف البحيرة المقدسة.

والهنود كانوا يستخرجون الحديد، إلى وقت قريب، بأكيارٍ[78] وقودها الحطب، ثم تُركت هذه الصناعة، ولا يمكن أن يرجع إليها بأن يستعمل الفحم الحجري في نفي[79] الحديد ما كان فحم الهند الحجري ناقصًا، وما دحر الحديدُ الإنجليزي حديدَ الهند من الأسواق.

وفي الهند مقادير قليلة من النحاس والذهب، فلا طائل في استخراجهما، والملح هو أكثر ما تحتويه، فظلت تصدره إلى العالم بأسره عدة قرون، ففيها تلال مكونة من أكداس الملح، كسلسلة الملح الواقعة في البَنْجَاب على ضفاف نهر السِّنْد الأعلى، واليوم تحتكر الحكومة الإنجليزية ملح الهند.

تمَّ وصفُنا الإجمالي للهند، ولا مَعْدِل لنا عن ذلك ما أردنا البحث في معايش سكانها ونظمهم ومعتقداتهم وطبائعهم وعاداتهم، ولم نأتِ فيما تقدم بغير بيان موجز عن طبيعة تلك البقاع السخية الصائلة معًا، فلا تجد في الأرض، كالهند بلادًا تجلَّت فيها تلك القوى القاهرة

78 الأكيار: جمع الكير وهو زِقٌّ يَنفخ فيه الحدَّاد.

79 نفي الحديد: من نفي الصيرفي الدراهم: أثارها ونثرها للانتقاد.

النافعة أو الضارة التي هي أم الضرورات المكوِّنة للرجال، والمسيِّرة إياهم، والموجِبة الأولى لما يُدَوِّن التاريخ سيره من الحضارات.

الباب الثاني: العروق

الفصل الأول

منشأ عروق الهند وتقسيمها

(١) كيف تنشأ العروق وكيف تتحول

أرى قبل أن أصف عروق الهند أن أخصص بضع صفحات لتعريف العروق، وبيان ظهورها وتحولها، وذكر الصفات التي تُقسم بها.

لم أفتأ أشرح في مؤلفاتي الأخيرة ما يقوله العِلم وما أراه في تلك الأمور المهمة، فيكفي أن ألخص هنا ما فصلته في تلك المؤلفات.

تُقسم الجماعات البشرية المنتشرة في مختلف أقطار الأرض إلى عروق، ويجب أن تُعَدَّ كلمة «العرق» بالنسبة إلى الإنسان معادلة لكلمة «الجنس» بالنسبة إلى الحيوان، وتفترق العروق البشرية في أخلاقها افتراقَ أنواع الحيوان المتقاربة، ومن خواص هذه الأخلاق الأساسية أنها تنتقل بالوراثة انتقالًا منتظمًا ثابتًا.

وإذا كانت كلمة «العرق» مرادفة لكلمة «الجنس» فإنها لا تَعدِل كلمة «الأمة» أبدًا، فالأمة، في الغالب، عروق كثيرة جمعت بينها السياسة أو الجغرافية أو غيرها من الأسباب في حكومة واحدة، فالكلمةُ: الهندوس أو الفرنسيون أو النمسيون، إلخ. تدل على جماعات منتسبة إلى عروق مختلفة أشد الاختلاف مع أنها تقطن في قطر واحد وذات أنظمة سياسية واحدة وذات مصالح مشتركة.

ويشاهَد في جميع العروق البشرية، كما يشاهد في مختلف أنواع الحيوان، نوعان من الأخلاق ذوا أهمية متفاوتة، أحدهما هو الأخلاق التي انتقلت عن الأجداد بالوراثة، والنوع الثاني هو الأخلاق التي يكتسبها الإنسان في أثناء حياته القصيرة بفعل البيئة والتربية وما إليهما من مختلف العوامل، فنوع الأخلاق الأول هو تراث العِرْق الواحد بأسره، أي خلاصة ماضٍ طويل، فالإنسان يأتي به حين ولادته، ولا يستطيع أن يضيف إليه غير القليل في حياته، ولن تقدِر الصفات الجديدة التي تُنال في كل جيل أن تقاوم عِبء الماضي الثقيلَ الهائل إلا إذا تراكمت مع القرون في اتجاه واحد، وبهذا التراكم المتعاقب الذي هو وليد الانتخاب الطبيعي تتطور الأنواع تطورًا بطيئًا بعيد الغَوْر.

وبيَّنت في مؤلفاتي التي أشرت إليها آنفًا أنه يمكن العروق التي تتالف أمةٌ منها بفعل الأحوال السياسية أن تصهر في عِرق واحد مع الزمن، وذكرتُ أن تلك العروق تنتهي إلى عِرق واحد عندما تؤدي البيئة والتوالد والوراثة في غضون القرون إلى اكتسابها صفاتٍ جثمانيَّةً وأخلاقية وعقلية واحدة.

وفي تلك المؤلفات أثبتُّ أن ذلك الثبات لا يتم إلا بشرطين أساسيين؛ الأول: أن يكون التحول بطيئًا وراثيًا، والثاني: ألا يكون تفاوت في نِسَب العروق المتوالدة.

والشرط الثاني على جانب عظيم من الأهمية، فلا تلبث جماعات صغيرة من البِيض أن تزول إذا توالدت هي وفريق كبير من الزنوج،

فعلى هذا الوجه غاب الفاتحون من غير استثناء عندما اختلطوا بأمم أكثر منهم عددًا، كالعرب في مصر؛ فالمصري المعاصر، وإن كان عربيًّا بلغته ودينه ونظمه، هو، بالحقيقة، من ذرِّية مصريي العصر الفرعوني كما تدل على ذلك مشابهتُه لما في المعابد والمقابر المصرية القديمة من الصور المنقوشة.

وما عُزي إلى البيئات من التأثير في تحول العروق هو، بالحقيقة، ضعيفٌ إلى الغاية، ولم يَبْد إلا بتراكم القرون، وإن شئت فقل قبل التاريخ، واليوم بلغ تأثير البيئات من الضعف في تبديل الأخلاق التي ثبت أمرها بالوراثة ما تراه، مثلًا، في بني إسرائيل الذين حافظوا على مثالهم الثابت مع وجود أناس منهم في كل بلد.

والأخلاق التي ثبت أمرها بالوراثة هي من الرسوخ ما يهلك به العِرْق القديم إذا ما انتقل إلى بيئةٍ تفرض عليه أن يتحول تحولًا أساسيًّا، فالتبوء وَهْمٌ باطل، ومن هذا أن الإنجليزي لم يقدِر على تبوُّء الهند مع مراعاته جميع قواعد الصحة، فتراه يربي أولاده في أوروبا، فلولا ذلك ما رأيتَ في الهند أوربيًّا بعد الجيل الثالث، فلا يَفُلُّ الوراثة إلا الوراثة، ولن تجد للبيئات مثل هذا السلطان.

وأثر البيئات في العرق، مهما يكن ضعيفًا، موجود على كل حال، والوراثة هي التي تمنُّ عليه بالقوة، فإذا كانت العناصر المتقابلة غير متفاوتة، على حسب الشرط الثاني المذكور آنفًا، تفاوتًا مانعًا من امتزاج عرقين انحلت مؤثِّرات الماضي الثقيلة بفعل المؤثرات الوراثية

المعاكسة المساوية لتلك، فلم تجد البيئات، إذ ذاك، ما تكافحه فسارت طليقة وأتت بعملها حرة.

انتهينا إلى النتيجة الأولى القائلة إن جديد العروق يتكون بتوالد مختلف العروق، لا بفعل البيئة وحدها، والآن ترانا أمام مسألة ذات أهمية عملية لما يتوقف على حلِّها من تعيين مصير إحدى الأمم وهي: ماذا تكون قيمة عِرق جديد تكوَّن على هذا الوجه؟ لا ريب في خيره إذا كان مساويًا لأرقى العرقين المتوالدين أو أعلى منه، ولا ريب في ضيره لأرقى ذَيْنِكَ العرقين على الأقل عند العكس.

درسنا هذه المسألة الأساسية في مباحثنا السابقة، ولا نذكر هنا غير النتائج، ونحن حين استندنا إلى درس ما نشأ عن التوالد من النتائج في مختلف أقطار الأرض أثبتنا أنه يكون نافعًا أو ضارًّا بحسب الأحوال، فهو يكون نافعًا عندما يكون بعض العناصر المتقابلة مُتِمًّا لبعض بدلًا من أن تتعاكس، وذلك كما اتفق للعناصر التي تألَّف الإنجليز من توالدها، وهو يكون ضارًّا عندما تكون العناصر المتوالدة مختلفة حضارة وماضيًا وأخلاقًا، وذلك كما أسفر عنه توالد الأسود والأبيض وتوالد الهندوسي والأوروبي.

وسنعود إلى مسألة توالد الهندوس والأوروبيين في الفصل الذي خصصناه للبحث في طوائف الهند، وفيما نجم عن ذلك التوالد من النتائج السيئة، فسنرى أن مثل هذه النتائج السيئة، التي نشأت عن

توالد متباين الشعوب، مما عرفه فاتحو الهند القدماء فوضعوا، على الأرجح، نظام الطوائف الذي هو أساس نظم الهند الإجتماعية.

وفي كتاب آخر درسنا أمور التوالد وبحثنا فيما تؤدي إليه من النتائج السياسية والاجتماعية بحسب الأحوال، فأثبتنا أنها أهم العوامل في انحطاط العروق والدول، وذكرنا ما تسفر عنه مُصاقبة عِرقين عبَّدَ أحدهما الآخر، وألمعنا إلى السبب في سهولة احتمال السيطرة الأجنبية عند قليل من التباين بين شعبين كما اتَّفق للمسلمين في الهند، حيث اعتنق خمسون مليون هندوسي دين النبي، وأشرنا إلى السبب في صعوبة احتمال تلك السيطرة عند شدة التباين بين شعبين كما يحدث للإنجليز الذين مضى على فتحهم لبلاد الهند قرون فلم يستطيعوا حمل رعاياهم على انتحال ديانتهم ولغتهم، والديانة واللغة هما العاملان اللذان يبدأ بهما ادِّغام إحدى الأمم.

ولا أُسهب هنا في بيان القواعد العامة التي تطبق على جميع الأمم، فقد فصَّلْتها، بدرجة الكفاية، في كتابي[80] الذي وضعته؛ ليكون مقدمة لتاريخ الحضارات، فلندَعْ، إذن، ما هو خاص بتكوين العروق، ولنقتصر على بيان الأخلاق التي تتميَّز بها العروق بإيجاز.

(٢) مبادئ تقسيم العروق: قيمة المقايسة بين الصفات التشريحية والخلقية والعقلية في ذلك التقسيم

80 كتاب «الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» وهو يقع في مجلدين.

يظهر، أولَ وهلةٍ، أن أهم الصفات التي تتميَّز بها العروق البشرية هي الصفات التشريحية، كلون الجلد، ولون الشعر، وشكل الجمجمة مثلًا، وذلك لأن الصفات التشريحية هي التي تُرى حالًا، ولكن الباحث إذا ما أنعم النظر في قيمتها اعترف بأنها لا تصلح لغير التقسيمات الثقيلة، فبلون الجلد والشعر يمكن تقسيم سكان الأرض إلى أربع جماعات أو خمس جماعات على الأكثر، وبشكل الجمجمة يمكن تقسيم كل واحدة من هذه الجماعات إلى زُمرتين أو ثلاث زُمَر، ثم نقف عند هذا الحد، فإذا قسَّمنا البيض، أي جميع شعوب أوروبا، مثلًا، إلى شعوب عريضة الجماجم وشعوب مستطيلة الجماجم، وشعوب شُقْر وشعوب سُمْر فإننا لا نصل إلى نتائج تُذكر ما اشتملت هذه التقسيمات على أمم مختلفة كالفرنسيين والإنجليز والروس والألمان، إلخ.

فالصفات التشريحية، إذن، غير كافية لتمييز العروق البشرية، وما قلناه عن اختلاف العروق التي تتألف منها أمة، في الغالب، يثبت أن اللغة والديانة والجماعات السياسية ليست أصلح من تلك في تقسيم العروق.

وما عجزت عنه اللغات والأديان والجموع السياسية والصفات التشريحية تستطيعه الصفات الخلقية والعقلية، وهذه الصفات التي هي عنوان مزاج الأمة النفسي ذي العلاقة بتركيب الدماغ الخاص هي من الدقة ما لا نقدر على تقديرها بما لدينا من الوسائل والأدوات.

وليس من المهم، مع ذلك، أن ننفذ، فيما ننشده من التقسيم، إلى سر ذلك التركيب ما استطعنا أن نقدر ما هو عنوانه من الكفاءات الخلقية والعقلية.

وتُعيِّن الصفات الخلقية والعقلية تطور الأمة والدور الذي تمثله في التاريخ، فهي، لذلك، على جانب عظيم من الأهمية، فليعوِّل على دراستها من يرغب في معرفة إحدى الأمم أكثر من أن يعول على صفاتها التشريحية.

ولن نستطيع أن نُميز الراجبوتي الشجاع من البنغالي الجبان بشكل جمجمتيهما، بل نقدر على ذلك بالبحث في مشاعرهما، فنرى، إذ ذاك، عُمْقَ الهُوَّة التي تفصل بينهما، ويمكننا أن نقايس بين جماجم الإنجليز وجماجم الهندوس من غير أن نكتشف بذلك سبب استخذاء ٢٥٠ مليونًا من هؤلاء لبضعة آلاف من أولئك مع أن دراسة صفات تَيْنِكَ الأمتين الخلقية والعقلية يكشف لنا ذلك السبب، وذلك باطلاعنا على شدة نمو خلق الثبات والعزم في إحداهما وضعفه في الأخرى.

والكفاءات العقلية والخلقية هي تراث العرق، وهي بواعث السَّير الأساسية، وهي ما سميتها في كتاب آخر بصوت الأموات، فالنظم هي وليدة تلك البواعث، ولا عكس، وتلك الكفاءات، وإن كانت مختلفة في أفراد العِرْق الواحد اختلاف صورهم، يتَّصف أكثر هؤلاء الأفراد بما يشتركون فيه منها اشتراكًا ثابتًا ثبات الصفات التشريحية الخاصة بالجنس.

ويدل علم التشريح الحديث على أن أجسام ذوات الحياة مركبة من ملايين الخليات التي تتصف كل واحدة منها بحياة مستقلة متجددة بلا انقطاع، وأن مدة هذه الحياة أقل من مدة حياة الجسم الذي يتركب منها، ويمكن أن يُعَدُّ أمر العِرْق مثل ذلك فيقال: إنه مؤلف من ألوف أفراده الذين يتجدَّدُون، فلكل من هؤلاء الأفراد حياة خاصة كحياة خلية الجسم الواحد، وللعرق المشتمل عليهم حياةٌ جامعة وأخلاق عامة، فإلى تلك الحياة والأخلاق يجب أن ينظر الباحث في التاريخ.

وحينما يتم وضع علم نفس الأمم المقارن غير الموجود الآن، يمكن الناقد البصير أن يستخلص من الأخلاق الخاصة الأخلاقَ العامة الصالحة لتصوير المثال الخيالي المتوسط الذي هو عنوان الأمة فيقترب جميع أفرادها منه أو يبتعدون عنه إلى حدٍّ ما،[81] فالإنسان ليس ابن أبويه وحدهما، بل هو وارثُ عِرْقه أيضًا.

81 يفترض نشوء هذا المثال المتوسط سريعًا بفعل الانتخاب الطبيعي الذي يُنتقى به خيار الناس في كل جيل فتنتقل صفات هؤلاء الخيار إلى ذراريهم، ولكن ميل الأفراد إلى التفاوت فيما بينهم بالتدريج، نتيجة لتقدم الحضارة، كما بينا ذلك في مكان آخر، يقضي بمكافحة سنن الوراثة المؤدية إلى أفول جميع من يجاوزون مستوى الطبقة الدنيا الكثيرة العدد المتوسط، أو برجوعهم إلى المثال المتوسط على الأقل، ومن أكثر الأمور التي أسفرت عنها المباحث الحديثة شمولًا للنظر وإيلامًا هو أن أرقى طبقات المجتمع في الذكاء والعقل تنحلُّ وتفنى بسرعة؛ لعطلها من الذراري أو لرجوعها القهقرى وتحولها إلى بُلْهٍ وأغبياء كما يشاهد في كثير من كبير الأُسَر، وقد يُفسَّر هذا بأن ما يُنال من الأفضلية في ناحية يكون في مقابل ما يقع من تدنٍّ في ناحية أخرى، فاختلال توازن كهذا لم يلبث أن يشتد في الذراري فيوجب تواريها لا محالة.

ويدلنا التاريخ على أن المجتمعات تعاني حكم هذه السُّنَّة القائلة بألا تجاوز المجتمعات مستوى معينًا في مدة طويلة، وبأن تخضع هذه المجتمعات لما تخضع له جميع الموجودات: ولادة فنمو فانحطاط فموت.

حقًّا إن اختلال التوازن يرفع الأفراد، ولكنه يؤدي عند اشتداده إلى خفض المجتمعات وانهيارها

ويتألف مثال الأمة المتوسط من اجتماع الأخلاق المشتركة بين أكبر عدد من أفرادها، وتكون الأخلاق المشتركة بين أفراد الأمة كثيرة بنسبة تجانس العناصر التي تتألَّف منها هذه العناصر، فإذا كانت هذه العناصر متباينة أو قليلة التمازج بَدَت تلك الأخلاق المشتركة أقل عددًا، وإذْ كنا نستعير مقاييساتنا من التاريخ الطبيعي فإننا نقول: إن الجماعات التي تتألف منها الأمة المتجانسةُ تُقاس بأنواع الجنس الواحد المتماثلة، وإن الجماعات التي تتألف منها الأمة القليلة التمازج تقاس بأنواع الجنس الواحد المختلفة.

ومن ذلك أنك تجد، مثلًا، اختلافًا كثيرًا بين ألف فرنسي وألف إنجليزي في آن واحد، مع أنهم ذوو أخلاق مشتركة يتألف منها مثالٌ فرنسيٌّ إنجليزيٌّ مشابه للمثال الذي يجده العالم الطبيعي عند وصفه لجنس الكلب أو الفرس، فوصف العالِم الطبيعي إذ كان ينطبق على جميع الكلاب والأفراس من حيث أوجه الشبه بينها فإنه لا يشتمل على أوجه الخلاف بينها البتة.

ونحن حين نضع تلك المبادئ الأساسية نَصِف مختلف عروق الهند، فنتبع في هذا الوصف الوضع الجغرافي لكل واحد من هذه العروق، ونحن بعد أن نصف سكان أقطار الهند نخصِّص فصلًا

بسرعة، وحقًّا إن انحلال تلك الأسر يقضي بظهور غيرها، ولكن اختلال التوازن متى عمَّ لأسباب خلقية أو لتوالد أناس كثيري التماثل أو كثيري التباين أو لأسباب أخرى حانت ساعة الانحطاط كما نرى دنو بعض الأمم الأوربية منها.

خاصًّا للبحث فيما أسفر عنه التوالد وتشابُه البيئات والنظم والمعتقدات من الأخلاق المشتركة بين شعوب الهند المختلفة.

(٣) تكوين عروق الهند: تقسيماتها الأساسية

لم يمضِ سوى وقت قصير على الزمن الذي كانت الهند تُعد فيه بلدًا واحدًا ذا صفات عامة واحدة، وعِرق واحد، وديانة واحدة، وحضارة واحدة، وفنون واحدة ثابتة غير متقلبة منذ قرون.

فرأيٌ فاسد مثل هذا لا يُقبل في هذا الأيام، فقد أوضحنا في فصل «البيئات» أن الهند ذات مناظر متنوعة وأجواء متباينة ومعايش مختلفة، فالناس في الهند متغايرون أجناسًا ومبادئ وطبائع وأخلاقًا وتمدنًا تغايُرَ البيئات التي تكتنفهم، فإذا قلنا إن الهند، بتخالفها، خلاصة الدنيا، فإننا نقول، أيضًا، إن سكان الهند خلاصة آدميي أدوار التاريخ المتعاقبة لما نرى فيهم من تفاوت.

يبدو البشر في الهند ذوي أمثلة متباينة، ففي الهند تجد شعوبًا بيضًا بياض الأوربيين بجانب المتوحشين السود، وفي الهند تستطيع أن تدرس صفحات تطور العالم سائرًا من طور الهمجية الأولى البادية في بعض مناطق الهند الوسطى الجبلية إلى طور الحضارة الزاهرة البادية في المدن الزاهية الراقية القائمة على ضفاف الغَنْج، فإلى دقائق الزمن الحديث التي أدخلها إليها آخر الفاتحين.

يمكن تقسيم الـ ٢٥٠ مليون الشخص الذين ندعوهم في أوروبا بالهندوس إلى أربعة عروق مختلفة وهي: العرقُ الأسود والعرقُ

الأصفر والعرقُ التورانيُّ والعرقُ الآري، ونَجَم عن توالد هذه العروق الأربعة الكبرى على نِسَبٍ متفاوتة مع تفاوت البيئات ظهورُ عروق ثانوية في الهند أكثر عددًا وأشد اختلافًا من العروق التي تسكن أوروبا جميعها مثلًا.

إذن، ليس لكلمة «هندوسي» أيُّ معنى من الناحية الإثنولوجية، هذه الكلمة تطلق، في الهند نفسها، على كل شخص ليس مسلمًا ولا نصرانيًّا ولا يهوديًّا ولا مجوسيًّا، أي إنها تطلق على أتباع إحدى الطوائف التي أوجدتها الدِّيانة البرهمية فاعترف بها البُدَّهِيون فعلًا إن لم يكن مبدأً، وكانت هذه الطوائف، التي لا يُحصى عددها الآن، أربعًا وهي: طائفة البراهمة «الكهنة» وطائفة الأكشترية «المقاتلة» وطائفة الويشيَّة «التجار»، وطائفة الشُّودرا «الزراع»، ولا تدل هذه الطوائف على أقسام عرق، بل تشير إلى أصلها إشارة مفيدة كما نبين ذلك، فسنرى أن طبقة البراهمة آرية، وأن طبقة الأكشترية راجبوتيةٌ، وأن طبقة الويشية تورانية، وأن طبقة الشودرا ممزوجةٌ من التورانيين وسكان البلاد الأصليين.

والسود هم أقدم سكان الهند، ويلوح أنهم مقسومون إلى فرعين منذ أقدم العصور وهما: النيغريتو ذوو القامات القصيرة والشعور الصَّوِفَة[82] والتقاطيع المعصورة القاطنون في المناطق الشرقية والمناطق الوسطى، والزنوج ذوو المثال الأسترالي القاطنون في المناطق الجنوبية

82 الصَّوِفُ: الكثير الصوف.

والمناطق الغربية والذين هم أطول من أولئك وأذكى منهم وأملس شعرًا من شَعْرهم، وترى من أولئك أناسًا في بعض أصقاع غوندوانا البائرة الجبلية، وترى من هؤلاء أناسًا في أودية نِلْ غيري، وكان ذانك الفرعان الفِطريان المتوحشان، اللذان لا تجد فيهما بصيصَ رقيٍّ، يسكنون غابات الهند وشواطئها قبل التاريخ فدُحِروا يومًا بعد يوم مع تقدم الحضارة فطَفِقوا ينقرضون بالتدريج.

والهند، كما ذكرنا في فصل سابق، بلدٌ مغلق عسير دخوله، فتفصلها جبال هِمَالْيَة والبحار عن بقية العالم، ويتعذر الاقتراب من شواطئ خليج البنغال بسبب ارتداد أمواجه إلى الوراء، ومن المحتمل أن دفعت الرياح الموسمية زوارق أناسٍ من أفَّاقي أفريقيا إلى سواحل بحر العرب فوقفت راكبيها جبال كهات الغربية التي كان يحتمي بها أهالي الهضاب العزل، فكان يمكنهم أن يقاوموهم من غير خطر.

والهند، إذ لم يُفكَّر في غزوها من البحر لذلك السبب، لم يدخلها الفاتحون إلا من جبال هِمَالْيَة العظيمة الواقية للهند على طوال واسع، والتي تُوطَؤُ في طرفيها فيتسع وادي بَرَهْمَا بوترا في شرقها وادي كابل في غربها طائفين بها.

من ذَيْنِكَ الواديين انقض غزاة آسيا على سهول الهندوستان الخصيبة في غضون القرون، وأكثر هؤلاء الغزاة وأرهبهم جاءوا من الغرب؛ لسهولة سلوك وادي كابل أكثر من وادي بَرَهْمَا بوترا الذي

يمر من بقاع مجهولة الأمر قاسيةٍ مانعة من سير الإنسان بنباتها الأشعث وجوِّها المُوهِن.

ومع ما تراه من اختلاف ذَيْنِكَ الواديين سمَّاهما الإنجليز باسمين غير صحيحين دالَّين على أهميتهما الجغرافية والأهلية فدَعَوُا الغربي منهما بالباب الآري ودَعَوا الآخر بالباب التوراني.

لم يكن الباب التوراني «وادي بَرَهْمَا بوترا» ممرًّا للتورانيين بالمعنى الحرفي، بل بالمعنى العام، فاسم «التورانيين»، الذي يدل على شعوب التركستان أو توران ومن إليهم، أطلق على العِرْق الأصفر بأسره في بعض الأحيان، فكان أول من دخلوا باب الهند التورانيَّ قبل التاريخ، فبدوا أول عنصر أجنبي في الهند، أناسٌ صفرٌ جردٌ زُورٌ،[83] ولم يغمر طوفان التورانيين الحقيقيين ذوي الشعر الأملس واللُّحى الكَثَّة والعيون الأفقية سهول الهند إلا بعد ذلك بزمن طويل، وذلك من الباب الآري.

وقبل أن نتكلم عن أولئك التورانيين، نرى أن نبحث فيما آل إليه العِرْق الأصفر في الهند وما تركه فيها من أثر.

ابتعد غزاة الهند الأولون عن وادي بَرَهْمَا بوترا، متوجهين إلى الجنوب فوجدوا أنفسهم أمام منطقة الجبال الوسطى الشاهقة المعروفة اليوم بجبال غوندوانا، فكانت هذه المنطقة ملجأً للأهالي السود الذين لم يستطيعوا لأولئك الغزاة ردًّا، والذين هم مدينون فيما

83 الزور: جمع أزور، وهو الناظر بمؤخرة عينيه.

نالوه من الوقاية للجوِّ الخطر القاتل للأجنبي أكثر مما لطبيعة الأرض القَفْر الكثيرة المصاعب.

وانقلب الغزو الأصفر إلى اتجاهين بعد أن وُقِف على ذلك الوجه: أحدهما نحو وادي الغَنْج، والآخر نحو الجنوب سائرًا مع شواطئ خليج البنغال.

وأول ما أسفر عنه توالد غزاة آسيا وسُود الهند ظهورُ قدماء الدراويد الذين يُعدُّون سكان الهند الأصليين لتغلُّب العنصر الفطري، ثم جاء غزاة آخرون فدحروا هؤلاء إلى الجبال فانتشروا في جنوب شبه جزيرة الهند، ثم توالدوا هم وقدماء الدراويد، لا هم والزنوج رأسًا، فأسفر هذا التوالد عن ظهور الدراويد أو التَّمُول الذين يبتعدون عن المثال الأصلي أكثرَ مما تقدم.

وإذا نظرت إلى أثر الغزو الأصفر في عروق الهند رأيته يَتَجَلَّى في الشمال حيث وادي بَرَهْمَا بوترا الذي ازدحم عليه في قرون كثيرة ما خرج من آسيا الشرقية من الجموع لا ريب، وينتسب إلى العِرْق الأصفر الخالص مليونَا النفس اللذان يسكنان ولاية آسام، ومنطقة البنغال، وإن كان يسكنها مزيج من الآدميين تجد فيها أثر الغزوات الأولى التي اجتاحت بغير عائق سهولها الخصبة، وكلما تدرجتَ إلى الجنوب سائرًا على سواحل البنغال وجدت العِرْق الأصفر يغرق في طبقات السود القديمة، ويمكن تبيُّن العِرْق الأصفر في الشمال، حيث يسكن السانتهال مثلًا، أحسن من تبيُّنه في المناطق الجبلية الوسطى

حيث ظل الكوند والملير والغوند قريبين من المثال الأول، وحيث تجد، على ما يُحتمل، حَفَدَة قدماء النيغريتو الأصليين.

ثم تبلغ جنوب الهند الممتد من غوداوري إلى رأس كُمَاري فترى الشعوب الدراويدية التي يُعَدُّ التَّمُول والتيلغو أهمها، والتي هي نتيجة توالد الأمم الصفر والأمم السود وما امتزج بها بعد زمن طويل من شتى العناصر، ولا سيما العنصر التوراني.

ونحن قبل أن نتكلم عن المغازي التورانية التي جاءت من غرب الهند، ولننتهي إلى العروق الصُّفر، نذكر أن سكان هضاب هِمَالْيَة العليا والأودية الواقعة بين هذه الجبال وكاراكورم، خلا وادي كشمير، هم من أهل التبت القريبين من جيرانهم سكان الصين الغربية، ولكننا لا نُعْنَى هنا كثيرًا بما أسفر عنه غزوٌ عنيف مفاجئ من النتائج، وإنما نقول: إن هذه الأودية والهضاب جزءٌ من التبت أكثر من أن تكون جزءًا من الهند من الناحية الجغرافية، وإن الشعوب التي تقطن فيها هي من أَرُومة التبت، وتعتنق الدين الذي يعتنقه أهل التبت، وتتصف بما يتصف به أهل التبت من الطبائع والأخلاق، وإنه يسكن لدَّاخ ودارستان وبالتي وبهوتان وجزءًا من نيبال تبتيون ذوو وَجَنات ناتئة وأجفان مزمومة.

ومع أنه يتعذر تعيين الزمن الذي نَفَذَت فيه المغازي من الباب التوراني إلى الهند، ومع أننا لم نرَ غزوةً تمت من هذه الطريق منذ بدء الأزمنة التاريخية نعرف مفصلًا تاريخ كثير من الغزوات التي جاءت

من آسيا الغربية مجاوزةً الباب الآري، وهذا إلى أن أقدم هذه الغزوات ظل مجهولًا في مجاهل الزمن، ولم يُعرف إلا من نتائجه الإثنولوجية كما عُرفت نتائج مغازي الشعوب الصُّفر.

والتورانيون أشد الغزاة تحويلًا لعروق الهند من الناحية الجثمانية، والآريون هم الذين تركوا أقوى الأثر في عروق الهند من الناحية المدنية، فمن التورانيين أخذ سكان الهند نِسَب أجسامهم وتقاطيع وجوههم، وعن الآريين أخذ سكان الهند لغتهم ودينهم وسجيَّتهم وطبائعهم، وفي الهند تبصر ١٧٠٠٠٠٠٠٠ هندوسي يتكلمون باللغات الآرية مع أنك لا تجد من هذه الملايين غير فريق قليل يتَّصل بالعرق الأبيض الخالص اتصال دم.

والتورانيون أول من قصدوا الهند، فأقاموا في البداءة بجميع وادي السِّنْد وبقسم من وادي الغَنْج، وكانوا كلما زاد عددهم بمن ينضم إليهم من العُصَب الجديدة أوغلوا في داخل الهند فدخلوا الدَّكَن في آخر الأمر، فاندحر أمامهم الأهلون، كما اندحروا أمام الشعوب الصُّفر فيما مضى، فاضطُر هؤلاء الأهلون الذين عجزوا عن الدفاع إلى الاعتصام بمناطق الدَّكَن الوسطى الجبلية ذوات الغاب والآجام.

ففي تلك الجبال الوسطى يجب، كما قلنا، البحث عن حفدة قدماء السكان، أي قدماء الدراويد أو الزنوج الخُلَّص، وأكثر هؤلاء الشعوب القديمة عددًا وأعظمهم أهمية هم الذين يعرفون بالكول، ويقطن الكول في جهوتاناغبور الواقعة في وادي مهاندي الأعلى،

ويقسَّمون إلى عدة أقوام تهنَّدوا، مع بقاء نحو مليون شخص منهم غير مقتبسين شيئًا من عادات الدراويد، الذين يسكنون الأودية والسهول، ومعتقداتِهم.

ومن لفظ «الكول» الدال على أهم الشعوب الأصلية اشتُقَّ التعبيران «الجماعة الكولية واللغة الكولية» الدالان على أكثر سكان المنطقة الجبلية القاطعةِ شبهَ جزيرة الهند من خليج كمبي إلى نهر الغَنْج وعلى لهجاتهم، وفي اتجاه الشرق من هذه المنطقة، على الخصوص، تبدو بكثرةٍ الشعوب الفطرية التي لم تتوالد هي والشعوب الأخرى، ويعيش في اتجاه منابع بَرَهْمني الواقعة في شمال وادي مهاندي «أصحابُ الأجَمَة» الذين يُعرفون بالدُّوَانغ، فيقولون إنهم أقدم البشر فيبدون وحوشًا من كل وجه.

ونحن، إذ نُشير إلى اللغة الكولية، نقول: إن اللغات في الهند لا تُعَيِّن العروق، فالشعب الذي يتكلم باللغة الكولية الخالصة فيسمَّى بسانتهال لم يكن من سكان الهند الأصلين ما أُشبع من العنصر الأصفر، ولا يُبحث في الجنوب، حيث تسود اللغات الدراويدية، عن حفدة العِرْق الآسيويِّ الشرقيِّ الذي أدخل هذه اللغات إلى الهند، ولا يخرج عن هذا المعنى قولنا إن الشعوب الهندية التي يمكنها أن تعتزَّ بانتسابها إلى أجداد آريين هي أقل الهنود عددًا مع شيوع اللغات الآرية أكثر من سواها في الهند.

وحينما دخل العِرْق الأبيض، الذي نسميه بالعرق الآري، الهندَ اضطرَّ إلى مقاتلة الدول المنظمة القوية التي أقامها التورانيون، لا الشعوب المتوحشة العزل الهيَّابة، فقهر ما هو قائم منها في وادي السِّنْد، فاستقر بهذا الوادي زمنًا طويلًا قبل أن يوغل في غرب الهند وجنوبها.

وما كان الآريون ليجاوزوا المنطقة التي تحميها جبال وِنْدهيَا قبل الميلاد بخمسة عشر قرنًا، وكان استعباد تُورانِيِّي الشمال أول ما صنعوه فجعلوا منهم طبقة الويشية «التجار» التي تجيء بعد طبقة البراهمة «الكهنة» وطبقة الأكشترية «المقاتلة»، ولم يجعلوا بعدهم سوى طبقة الشودرا «الزراع» المؤلفة من سكان الهند الأصليين.

حلَّ القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فقام الآريون بغزوهم الأكبر الذي اتُّخذ موضوعًا للرامايناً «إيلياذة الهندوس»، فأوغلوا في الدَّكَن بقيادة زعيمهم راما، فوصلوا، بعد ألف مفخرة، إلى نهاية شبه جزيرة الهند، فحملوا الناس، ومنهم أهل سيلان، على انتحال شرائعهم.

ومما جاء في أساطير الرامايناً أن الآريين حاربوا الغيلان فاستعانوا بالقِرَدَة، فقلبوا عروش عبدة الأفاعي ملوك النَّاغا الأقوياء الأشداء رأسًا على عقب، فنرى أن أولئك الناغا هم الفاتحون التورانيون الأولون الذين شادوا في جنوب الهند دولًا زاهرة، فعَبَدوا، هم ورعاياهم قدماء الدراويد، الأفاعيَ، وأن أولئك القردة الذين أعانوا راما هم أهل البلاد السود.

وكان ذلك الغزو الآريُّ لجنوب الهند حملةً عسكرية أكثرَ من أن يكون استيلاءً ما ظلَّ عاطلًا من أثر في البلاد المحتلة.

ثم حل القرن الرابع قبل الميلاد، فكانت الهند عرضة لغزو جديد قام به الراجبوت الذين هم آريون على الأرجح، فهؤلاء الراجبوت، «أو أبناء الملوك كما يدل عليهم اسمهم»، الذين هم قوم جُسُرٌ محاربون أكفاء متماثلون، عُرِفوا بالأكشترية «المقاتلة» فأقاموا بالمنطقة الممتدة من شرق نهر السِّنْد إلى ما وراء آراولي الذي لا يزال يسمى براجبوتانا.

رأينا آنفًا أن الغزوات التي جاءت من الباب التوراني الواقع في شمال الهند الشرقي أسفرت عن سيطرة العِرْق الأصفر الذي توالد هو والزنوج فأُكره هذا العِرْق بعد زمن طويل على الاحتكاك بالتورانيين في وادي الغَنْج وجنوب الدَّكَن، فبمثل هذا نُلخِّص نتائج المغازي التي أتت من الباب الآري فنقول: إنها أدَّت إلى استيلاء العروق التورانية على غرب الهند وعلى شمال الهند الغربي، وإن هذه العروق التورانية لم تلبث أن خضعت لصفوة من الآريين فنجمت عن ذلك نتائج خلقية تختلف عن النتائج الجثمانية والمادية اختلافًا تامًّا كما بينا ذلك.

وإذا سرنا من الشمال إلى المنطقة الغربية، كما صنعنا ذلك بشأن المنطقة الشرقية، فكنا في البَنْجَاب وجدنا الجات والغوجر والسِّك، الذين هم من الشعوب التورانية على ما يظهر، يؤلِّفون ثلاثة أخماس الأهالي، وأن بقية هؤلاء يقتربون بلون جلودهم من الآريين، وإذا

نزلنا إلى ما تحت ذلك رأينا الراجبوت الذين ينتسبون إلى الفصيلة الآرية، وإن لم يكونوا من خُلَّصها، ورأينا أن أهل الكجرات مزيج من مختلف العروق وإن كان العِرْق التوراني هو الغالب في هذا المزيج، ثم رأينا أن العنصر الآري يقف عند الهضاب التي يشتمل عليها وادي الغَنْج في الجنوب وعند جبال وِنْدهيَا التي تصل إليها، ثم لا نجد للعنصر الآري أثرًا تحت هذه المنطقة مع هيمنة نظم الآريين ومعتقداتهم في الغالب، ونجد فيما وراء بَمْبِي، وعلى جانِبَي جبال كهات، بضعة ملايين من الشجعان المقاتلين الذين هم من أصل توراني فيبلغون عدة ملايين فيسمَّون بالمراتها، وكلما أقبلنا إلى الوسط أو نزلنا إلى الجنوب وجدنا الحضارة الآرية والسَّحنة التورانية تذوب في الشعب الدراويدي، ونشأ عن امتزاج تلك العناصر على نِسَب مختلفة ظهورُ البِهيل الذين دحرهم الراجبوت إلى الجبال فغدوا عنوان قدماء الدراويد الذين أثَّر التورانيون فيهم قليلًا، فكانت منهم قبائل محافظة على تقاطيعها الأولى، فأقاموا بوِنْدهيَا الغربية، فبلغ عددهم نحو ثلاثة ملايين، وظهور المهار المتصلين بالجات التورانيين فسكنوا سلسلة جبال آراوَلي الشمالية فبلغ عددهم ٦٠٠٠٠٠ شخص، وظهور المينا المقيمين بمملكة جيبور في وادي الغَنْج الأعلى فبلغ عددهم نحو ٣٠٠٠٠٠ شخص، وظهور الراموسي والدهانغ المقيمين بسفوح جبالي كهات الغربية فتُبصر فيهم أثر العنصر

الدراويدي كما تشهد بذلك جلودهم الدُّكْن وأنوفهم الفطس ووجناتهم الناتئة.

وبدأت غزوات الشعوب الإسلامية للهند في القرن الحادي عشر من الميلاد، فهذه الشعوب إذ كانت منتسبة إلى أصول شديدة الاختلاف من عربٍ وفرس وأفغان ومغول زاد اختلاط العروق السائدة لشمال الهند تعقيدًا، ونجم عن سلطان المسلمين تغيير عظيم في الطبائع والعادات والمعتقدات والحضارة بوادي السِّنْد ووادي الغَنْج، وإن لم يؤدِّ ذلك إلى ظور عِرق جديد من الناحية الإثنوغرافية؛ لعدم تمازج المسلمين وقدماء السكان تمازجًا وافرًا كافيًا.

ونحن، بعد أن أتينا بتلك الخلاصة الخاطفة فقسمنا سكان الهند إلى أربع جماعات كبيرة: «الكولية والدراويدية والتورانية الآرية والتبتية»، نبحث في العروق الثانوية ذوات السحنات المختلفة، ثم نفصِّل مظاهرها وأصولها وعاداتها ودياناتها والأدوار التي مثلتها في مختلف القرون، فإذا ما أتممنا ذلك أمكننا أن ندرس ما يشمل أكثرية الشعب الهندوسي من العادات والطبائع والأخلاق والنُّظُم والحضارات.

الفصل الثاني

عروق الهند الشمالية أو الهندوستان

(١) سكان هِمَالْيَة

تُعدُّ هضاب هِمَالْيَة الغربية العليا وأكثر الأودية التي تهيمن عليها من التبت، لا من الهند من الناحية الجغرافية، وَتُعَدُّ من أجزاء الهند من الناحية الإثنولوجية.

وتجمَّعت الشعوب الصغيرة التي تسكن تلك المناطق المنيعة، وبعضها قديم جدًّا، على شكل جماعات، وجاءت تلك الشعوب من التبت في الغالب ومن الهند في بعض الأحيان، ولكن لا كفاتحةٍ ما كان من طبيعة تلك البلاد الجبلية أن تجعل كلَّ غزو مسلح أمرًا مستحيلًا، فتفلَّت أهل تلك البلاد من نير الأجانب حتى الآن، وحافظوا على استقلالهم على العموم.

ويتوارى المثال التبتي شيئًا فشيئًا في أودية هِمَالْيَة الجنوبية حيث يتصل سكان الجبال بسكان السهول فتتهند الديانة والطبائع، ويمارس السيادة طبقة أريستوقراطية راجبوتية يصدر عنها الراجوات.

هِمَالْيَة الغربية «لدَّاخ، بالتي، دردستان»

يسكن البقاع الجبلية التي يجري فيها ست لج والسِّنْد وشَيُوك من الشرق إلى الغرب، وذلك قبل الانتهاء إلى منفذ في سلسلة هِمَالْيَة الغربية، شعوبٌ تبتية صغيرة ذواتُ وجوه واسعة وعيون مُزْوَرَّة[84] وشعور سود سَندرية[85] ولحى زَعِرَة[86] وأخلاق لينة حسنة نشيطة مرحة، ولا تدين هذه الشعوب بديانة واحدة، فبينما ترى سكان لَدَّاخ أو التبت الأوسط

84 مزورة: منحرفة.

85 سندرية: مشدودة.

86 الزعر: القليل الشعر والمتفرقه.

بُدَّهيين مطيعين لكهنتهم ترى سكان بالتي أو التبت الأصغر مسلمين مطيعين لأئمتهم.

ويقول أهل لَدَّاخ بتعدد الأزواج من الذكور، وينشأ انتحالهم لهذه العادة عن فقرهم، ففي لَدَّاخ يجتمع خمسة إخوة أو ستة أخوة، في الغالب؛ ليعولوا امرأة، ويؤلِّفوا أسرة، وأما البالتيون، وإن لم يكونوا أغنياء، فلم يتخذوا هذه العادة؛ لتحريم الإسلام إياها، وينزح أناس كثرون منهم، عن بؤس، إلى سهل الغَنْج فيكونون عمالًا مأجورين لدى الإنجليز، فإذا ما جمعوا مالًا قليلًا عادوا إلى جبالهم ومساقط رءوسهم؛ ليقضوا فيها بقية أعمارهم، وإذا ما أثْرَوا تزوج الواحد منهم غير زوجة.

والمنطقة التي يبدأ نهر السِّنْد بالجري من شمالها إلى جنوبها مُجَوَّلًا حول شوامخ ننغا بربت تعرف بدردستان، ويسكن هذه المنطقة أناس يختلفون عن أولئك، فما يتصفون به من القامات العالية والوجوه البيضية الناضرة يدل على أصلهم الآري، وهم، مع إسلامهم يقولون بنظام الطوائف، ومن أكثر الطوائف احترامًا عندهم طائفة الصين التي ورد ذكرها في شرائع مَنُو وفي المهابهارتا، فظن بعض علماء أوروبا، على غير حق، أنها تدل على نَسَب بين أهل دردستان وأهل الصين، ومن الدرديين يتألف أشراف دردستان الذين يستعبدون سكان البلاد الفطريين أو الدوم القاطنين في الأصقاع الممتدة إلى البَنْجَاب والقسم الشمالي من راجبوتانا، والمتصفين باسوداد جلودهم كجلود همج الهند الوسطى والمعدودين أنجاسًا عند البراهمة والمسلمين، وما عند الدرديين من عادات وثنية شاهدٌ على قِدمهم، وفي بلادهم أنصاب كثيرة تشابه أنصاب بريتاني، ويتصف الدرديون وسادتهم بالخلق الحر وحب الفخر، ولم يتم قط إخضاعُ ياغستان التي تقيم بها إحدى قبائلهم فيسميها الإنجليز «البلد المتمرِّد».

ويُرى بين لهجات دردستان ولغات الأفغان وجه قرابة.

وادي كشمير

جميع البلاد التي ذكرناها من أعمال راجه كشمير، فإذا نزلنا إلى منطقة كشمير الأصلية، أي إلى الوادي البالغ طوله ثلاثين فرسخًا، والبالغ عرضه عشرة فراسخ، والمشهور في العالم كله بجمال مناظره، ووفرة نباته، وجدنا عرقًا يختلف عن عروق المناطق المحيطة به، فيجب أن يُطلق اسم الكشامرة على سكان هذا الوادي، لا على مختلف القبائل المجاورة له.

ويشتهر الكشامرة من الناحية الجثمانية بين أهم سكان الهند وأكثر الناس بياضًا، وتشتهر نسوتهم بالجمال.

فللكشامرة جلودٌ ناعمة ملونة قليلًا، وأنوف قُنْوٌ، ولحًى وشعورٌ كَثَّة، وقامات مربوعة، وأجسام ضليعة.

وتدلُّ سيماهم على الاعتداء أكثر من أن تدلَّ على الشجاعة، وهم على جانب عظيم من الاستعداد الفني، فهم الذين يصنعون الشالات المشهورة في العالم بأسره والآنية النحاسية المزينة بالميناء، فلم توفَّق أوروبا لتقليدها حتى الآن.

شكل ٢-١: زعيم ناغي «من جبل آسام».

ويمكن عدُّ سكان وادي كشمير، أو طوائفهم العليا على الأقل، وذلك من الناحية الإثنوغرافية، حفدةً لآريين، كانت تجري في عروقهم دماء تبتية قليلة.

ويدين الكشامرة بالإسلام منذ الفتح الإسلامي مع محافظتهم على نظام الطبقات، ويتكلمون بلغة ممزوجة من الفارسية والسَّنسكرتية.

قبائل أقطار هِمَالْيَة الدنيا

لندع مناطق هِمَالْيَة العليا المغلقة جانبًا، ولنمرَّ من الفلوج[87] الضيقة المؤدية إلى سهول البَنْجَاب الواسعة؛ لنرى زُمرًا صغيرة كثيرة نتدرَّج بها من التبتي القاطن في الهضاب البائرة إلى الهندوسي المقيم بالبَنْجَاب الخصيبة، أي من البُدَّهي إلى المسلم أو عابد وِشنو.

وليس من المفيد ذكر قبائل تلك المنطقة مفصلًا ما اختلطت جميع العروق والعبادات في الشيباليين والبهارين والغاديين والكولو والغوجر، وبينما يتوارى العنصر الأصفر من هؤلاء نكتشف فيهم أثر العنصر الأسود أحيانًا، وتتألف طبقتهم الأريستوقراطية من الراجبوت على العموم.

وأكثر تلك الشعوب الصغيرة من الرعاة، وبعض تلك الشعوب من البدويين، ويقول بعضها بتعدد الأزواج من الذكور، ودينُ الكثير منها مزيجٌ من الإسلام والبرهمية، ولا يزال بعضها يعبد الأصنام القديمة ويعبد الأفاعي.

ويتصف جو هذه المنطقة وعروقها ولهجاتها بطابع التحول، وفيها تمتدُّ سلسلة شِيوالك، وهي تقع بين منحدرات هِمَالْيَة المهيمنة الجليدية في الغالب وسهول وادي السِّنْد المحرقة.

نيبال

87 الفلوج: جمع فَلْج وهو الشق.

تشابه المنطقة المسماة «نيبال» مِنطقة كشمير باشتقاق اسمها من وادٍ ضيق صغير، وبأنها مركز للقوة والحضارة في البلاد، ويحيط الوادي بعاصمتها كهات ماندو القائمة في القسم الشرقي منها، ويبلغ طول مملكة نيبال ٧٠٠ كيلو متر ويبلغ عرضها ١٢٥ كيلو مترًا، وتقع مملكة نيبال بين سلسلة هِمَالْيَة الأساسية وطلائع الجبال المسيطرة على سهل الغَنْج، والتي تبدو منطقة تَرَائِي على حرفها.

ويسكن منطقة نيبال قبائل مختلفة في أصولها ولهجاتها، فبعض هذه القبائل من أصل تبتي، وبعضها نتيجةُ توالد أناسٍ من التبت أو من السكان الأصليين وأناس أتوا من جميع أجزاء الهندوستان، ومن هؤلاء المهاجرين أناسٌ من الراجبوت، أي من أشرف شعوب الهند، وأناس متوحشون مشابهون لكول جهوتاناغبور وولاية أوريسة، والأهالي الذين يُعرفون بالغوركها هم وَلِيدُو الامتزاجات الأولى، والأهالي الذين هم وليدو الامتزاجات الأخرى هم من قبائل نيبال المجاورة لسِكِم.

وتنتسب أكثرية الأهالي الذين يقيمون بوادي نيبال، أي بالمنطقة الضيقة التي تحيط بها الجبال، وتشتمل على كبريات مدن مملكة نيبال، إلى فرعين مختلفين: فرع النيوار الذي هو وليد العِرْق الأقدم، والذي ظل سيد نيبال إلى نهاية القرن الأخير، وفرع الغوركها الذي استولى على نيبال في نهاية القرن الأخير.

وبقي الغوركها من قبائل نيبال المحاربة قبل أن يصبحوا سادة وادي نيبال، ويزعمون أنهم من حفدة الراجبوت الذين هاجروا إلى نيبال فِرارًا من الفتح الإسلامي، وهم، مع كونهم من أصل هندوسي، لم أرَ إلا الأقلين منهم لم يحملوا أثرًا ظاهرًا من الدم التبتي، على أن اسم «غوركها» لا يدل على عِرق معين، بل يدل في نيبال على أناس من كل طبقةٍ وأصل غادروا ولاية غوركها النيبالية؛ ليفتحوا بقية نيبال.

ويقسَّم الغوركها إلى عدة طوائف، وأسمى هذه الطوائف هي طائفة الأكشترية التي هي وليدة تزوج الراجبوت بنساء القبيلة الفطرية المعروفة بكهوس.

ويعدُّ الغوركها نواة أهالي نيبال المحاربين، ثم انضم إلى هذه النواة قبائل محاربة أخرى نذكر منها المغر والغورنغ، إلخ. الذين يتجلى المثال المغولي فيهم أكثر مما يتجلى في الغوركها.

ويهاجر الكثيرون من قبائل نيبال المحاربة؛ ليُستخدموا في الجيوش الإنجليزية، فيُسمَّون فيها باسم الغوركها العام مع عدم صواب هذه التسمية.

وإلى غُزاة الغوركها يعود الفضل في خضوع نيبال لسيد واحد كما ذكرنا آنفًا، والغوركها قوم عسكريون، وليس الغوركها أهلًا لغير ما يَمُتُّ إلى الأمور العسكرية بصلة، فتراهم يزدرون الصناعة والزراعة والتجارة، ولا تجد فيهم أثرًا للذوق الفني، وهم نقيض النيوار في القابليات.

والبرهمية هي ديانة الغوركها، ولغة الغوركها المعروفة بالبربتية هي لهجةٌ سنسكرتية ممزوجة بكلمات تبتية، وتُكتب لغة الغوركها بالحروف السنسكرتية.

ويتألف من النيوار الذين خضعوا للغوركها جمهور الوادي، والراجوات الذين هم من عرقهم هم الذين ملكوهم عدة قرون فامتلأت مدن نيبال في عهدهم بالمباني العجيبة.

والنيوار، وإن كانوا كالغوركها نتيجة توالد الهندوس والتبتيين، بدا أثر أهل التبت أظهر من أثر الهندوس فيهم، فلما أُتيح لي أن أدخل وادي نيبال كان بين حاشيتي خادمٌ رافقني في زيارتي لمختلف أقطار الهند من غير أن يعلم شيئًا عنها، فسألني، حينما وطئت أقدامنا أول قرية نيبالية واقعة على الحدود، عن وصولنا إلى بلاد الصين ظانًّا أن نيبال من الصين؛ لما رآه من مشابهة سكانها للصينيين الذين شاهدهم معي في بَمْبِي.

ويتكلم النيوار باللغة النيوارية المختلفة عن البربتية التي هي لغة الغوركها، وإن كانت ممزوجة مثلها من السنسكرتية والتبتية، واللغة النيوارية وحدها هي لغة نيبال التي لها آداب.

والنيوار عاطلون مما اتَّصف به الغوركها من الروح العسكرية، وتجد عندهم، مع ذلك، ما ليس عند هؤلاء من الأهليات الزراعية والصناعية والفنية العظيمة، وبفضلهم أقيم ما يملأ الوادي من المعابد الطريفة المزينة بالنقوش العجيبة فنشرنا لها عدة صورٍ في هذا الكتاب، وبلغوا من إتقان حفر الخشب درجةً لم تفُقْهم معها أوروبا كما أرى، ومن دواعي الأسف أنهم لم يلاقوا من الغوركها، الذين هم سادتهم في الوقت الحاضر، ما يشجعهم، فترى متفننيهم يزولون بالتدريج فلا تجد منهم اليوم أكثر من اثني عشر رجلًا قادرًا على حفر الخشب أو الحجر بمهارة، فالحق أن فن البناء في نيبال دخل دور الانحطاط، وما تشاهده فيها من الآثار المهمة صُنع قبل الفتح الغوركهائي.

وتجد ثلث النيوار من أتباع شِيوا وتجد ثلثيهم من البُدَّهِيين، وتجد هؤلاء وأولئك من القائلين بنظام الطوائف.

بهوتان وسِكِم

تقع دويلتا بهوتان وسكم المستقلتان في شرق نيبال، أي في منطقة هِمَالْيَة، وَيُعَدُّ سكانها من فصيلة الآدميين الذين يقطنون في الهضاب العليا، ويُعَدُّون، كذلك، من التبتيين فيشتق اسم «بهوتان» من كلمة «بود» التي تعدل كلمة «التبتي».

ويرى الإنجليز أن أهل سِكِم أرقى من سكان بهوتان بمَرَح أخلاقهم، ولا تبصر في الهند شعبًا أنيسًا مثل أهل سكم، ويمارس هؤلاء الذين هم من شِباه البرابرة بعض فنون اللهو والتسلية، ويزمرون بما يأخذ بمجامع القلوب، ومن محاسن لغتهم عَطَلُها من تعابير القَذْع والشتم، فدل ذلك على لطفهم ودماثتهم.

وأهل سِكِم من القائلين بتعدد الأزواج من الذكور على العموم، ويدينون بالبُدَّهِيَّة، وتكثر في سفوح جبالهم أديار الكهنة، وتُبنى هذه الأديار من مواقع رائعةٍ، وتسيطر على مناظر ساحرة.

وسكان بهوتان أقل مرحًا من جيرانهم أهل سكم، ونجم ذلك عن البؤس الشديد الذي ألقتهم فيه حكومتهم المستبدة المرهقة، فالذي يود منهم أن يملك نتيجة عمله يترك بلده ليخدم الإنجليز. ويشابه دينُهم ولهجاتُهم دينَ أهل سِكِم ولهجاتهم، ويقولون مثل هؤلاء بتعدد الأزواج من الذكور، ويملكهم الكاهن الأكبر وقائم مقام دون الكاهن سلطانًا وإن كان يدعى بالملك.

ولا تتجلى في أهل سِكِم وأهل بهوتان سَحَنات أهل التبت الخالصة إلا في الأودية العليا، فإذا ما نزلت إلى السهل أبصرت اختلاطهم بأهل البنغال اختلاطًا، وتزل معه الملامح والعادات الأولى.

(٢) سكان آسام

آسام، كما نعلم، جزءٌ من وادي بَرَهْمَا بوترا تابع لإمبراطورية الهند الإنجليزية خلا شبكة مصبه المعقدة التابعة للبنغال، والتي تختلط فيها مياه هذا النهر بمياه الغَنْج.

ويتوارى مجرى بَرَهْمَا بوترا الأعلى في البقاع غير المَرُودة[88] التي يحجزها عن الحضارة جو هائل فظلت الملجأ الأخير للهمجية في ذلك القسم من العالم، ومما ذكرناه، في الفصل الذي وصفنا فيه أقطار الهند، أنه لا ينزل في أي قسم من العالم القديم مطر ثجَّاج[89] كالذي تُنزله رياح الجنوب الموسمية إلى آسام، فما ينشأ عن هذا المطر من الرطوبة المرهوبة الموجبة للنبات الأشعث والعفونة القاتلة يَحمي استقلال سكان آسام العليا المتوحشين، بَيْدَ أن صَوْلات الطبيعة هذه مشئومة على هؤلاء، فهم إذا كانوا يتقهقرون يومًا فيومًا إلى أشد أراضيهم وباءً وأقلها صلاحًا للزراعة ينقص عددهم بلا انقطاع فيزولون أمام حضارة تمنعهم جِبِلَّتُم الدنيا من ملاءمتها على الدوام.

88 راد الأرض يَرُودُها رَوْدًا ورِيادًا: تفقَّد ما فيها من المراعي والمياه؛ ليرى هل تصلح للنزول فيها

89 مطر ثجاج: مطر سيال شديد الانصباب.

شكل ٢-٢: جماعة من الكول «هِمَالْيَة»، «وادي بياس الأعلى».

وجميع تلك القبائل «الآبور والمشمي والسنغبور» المقيمة بضفاف بَرَهْمَا بوترا والقبائل «الناغا والغارو والكهاسيا» المقيمة بالجبال الواقعة على الضفة اليسرى من ذلك النهر ذاتُ مثال واحد تقريبًا وهي فروع لعرق واحد.

ويصعب تعيين هذا العرق، ويلوح لنا، مع ذلك، أنه أقرب إلى الفصيلة المغولية منه إلى الفصيلة الملايوية، فما تراه فيه من ملامح الوجوه وانخفاض الأنوف وغِلَظ الشفاه وازورار[90] العيون واسوداد الشعور السندرية[91] واللحى المُعْر[92] يدل على قُرْبَاه من العِرْق الأصفر، وما تراه فيه من الجلود السود يذكرنا بالعرق الملايوي.

والحق أن العنصر التبتي المغولي هو الغالب فيه، ومن الطبيعي أن تجده باديًا في جوار الثُّغرة الشمالية الشرقية التي فاضت منها طوفانات العِرْق الأصفر إلى تلك البقاع في عدة قرون، وهذا إلى أنك تجد في الأقسام الجبلية أناسًا يشابهون مثال الشان في بن ماني، أي مثال الآسيويين

90 ازورار: انحراف.

91 السندرية: المشدودة.

92 المعر: جمع أمعر، وهو القليل الشعر.

الشرقيين الخُلَّص كالذين يسكنون سيام والهند الصينية، فاحتمل أن يكون أولئك قد أتوا منهما.

ولجماعة الكهاسيا الصغيرة المقيمة بحوانب جبال كهاسي ظاهرة عجيبة تجد مثلها في الباسك الساكنين جبال البيرنة الأوربية، وذلك أنهم يتكلمون بلغة لا يمكن ربطها بأية فصيلة من اللغات المعروفة، فهذه اللغة ذات المقطع الواحد تبدو مطوَّقةً غريبة بين مختلف اللغات الهندية التي يسهل تصنيفها.

وأشد الشعوب التي ذكرناها توحشًا هم الآبور والغارو، فأما الآبور: فإنهم يعيشون عراة، ولا يمنعهم هذا من أن يحبوا الحليَّ ويُزيّنوا نساءهم بنُطُق وأطواق تَصِلُ[93] لأقل حركة، ولا يعرف الآبور الزراعة، ويأكلون الفواكه واللحم، وليس عندهم من السلاح غير النبال والرماح والسيوف، ويدينون بأغلظ ضروب الوثنية، ويعدون عنوان الأجيال الفطرية الأولى. وأما الغارو: وهم قوم جبليون، فلا يزوالون يضحون بالقرابين البشرية، وتجد لهؤلاء الوحوش، مع ذلك، بعض المزايا كالصدق مع الأصدقاء والأعداء، والوفاء بالوعود، وازدراء ما يرونه في البنغاليين، المقيمين بالسهول الواقعة تحتهم، من الغدر والخَتْر[94] والخَنَث[95] والخبث، وليس بعيدًا الزمن الذي كانوا ينزلون فيه إلى تلك السهول؛ ليقبضوا على بعض البنغاليين فيذبحوهم حول ما يكرمونه من جثث الموتى. واحترام الغارو للموتى يستوقف النظر كثيرًا؛ فالغارو، إذ يرون أن حرق الجثث هو ما يكرم به الموتى، وأن هذا الحرق يتعذر في فصل الأمطار، يحفظون جثث موتاهم في العسل في أثناء ذلك الفصل إلى أن يحل فصل الجفاف فيحرقوها فيه.

---

93 صلَّ الشيء: صوَّت.

94 الخَتْر: أقبح الغدر.

95 خنث الرجل يخنث خنثًا: كان فيه لين وتكسُّر وتَثَنٍّ، فكان على صورة الرجال وأحوال النساء.

والناغا، الذين يدل اسمهم على «الأفاعي»، يذكروننا بسادة الهند الجنوبية الأقدمين الوارد ذكرهم في الرَّامايانا بأنهم عباد الأفاعي، ومن المحتمل أن كان بينهم وبين قدماء الدراويد قُربى ما بدو سودًا، ويبدون قومًا محاربين متمتعين بالاستقلال الكامل.

والكهاسيا هم الشعب المتوحش الوحيد الذي يتصل بصلة التجارة بالبلاد المجاورة، ويزرع أراضيه الجبلية، ويبلغ درجة ضعيفة من الحضارة، ويقيم الكهاسيا بقُرًى كبيرة، ويبدون مِلاحًا صُلَّاحًا ذوي أفراح وأنغام محكمة عند الشرقيين، ويَعْلِك الكهاسيا عشبة تحمِّر أسنانهم ويعتذرون عن ذلك بـ «أن البنغاليين والكلاب ذوو أسنان بيض»، ومن أغرب عاداتهم أن يرموا بيضاتٍ؛ ليكون لهم من انتشار صفارها الفأل أو الطِّيَرَة،[96] وترى طُرُق قُراهم مملوءة بقشور البيض، ولا يأكل الكهاسيا ما ينتجه دجاجهم من البيض؛ لما في البيض من مصادر ثمينة لمعرفة الغيب.

وتدين بالوثنية جميع القبائل الوحشية التي ذكرنا طبائعها وعاداتها ذكرًا خاطفًا، والنكاح عند هذه القبائل من أقل النظم حرمة، ولنسائها حق السيطرة على الأُسَر، وحق نقل الأموال وتحويلها، وحق الاعتراف ببُنُوَّة الأبناء، ولهن شأن كبير في الحكومة أحيانًا.

شكل ٢-٣: تيمور لنك «كما جاء في مخطوط هندي قديم»، «مكتبة فيرمان ديدو».

96 الطيرة: ما يتشاءم به.

ولا يزال الغارو محافظين على بعض العادات القديمة التي سنفصلها حين البحث في بعض شعوب الهند، ويقسَّم الغارو إلى قبائل صغيرة تُدعى بالمهار أو الأمومات، وكانت تمارس السلطة في كل واحدة من الأمومات امرأةٌ فيما مضى، فيمارسها اليوم رئيسٌ «لَشْكَر» منتخب من بين أكثر من يملكون عبيدًا، على أن توافق النساء على نصبه، ويستشيرهن في غير مسألة. والفتاة هي التي تخطُب الفتى في المهار تبعًا للعادات القديمة، وفي الغالب يغصِبُ رجال المهار الخطيبَ غصبًا مصنوعًا ما كانت الزوجة القادمة ملك المهار، ولا يرث الابن في المهار إلا بعد عمته وأبناء عمته، ويكثر الطلاق في المهار فيظل الأولاد فيها ملصقين بأمهم، ولا يعرف الأولاد أباهم في الغالب، أو يعيشون قريبين منه مع عدهم إياه أجنبيًّا.

وتلك العادات المنحطة، التي ستزول بزوال العروق الطريدة الضعيفة التي تمارسها، والتي لا تزال بادية في جبال آسام، تتوارى وتمَّحي عند النزول إلى السهل حيث يكون القوم هندوسيين مختلفين، مثالًا ولسانًا ودينًا وأخلاقًا، عن البنغاليين الذين يمتزجون بهم شيئًا فشيئًا.

ونحن حين نربط أهالي بقاع آسام الدنيا بأهالي وادي الغَنْج نصف هؤلاء الأهالي فندخل الهند الحقيقية بهم.

(٣) سكان وادي الغَنْج

لا تجد في الخلاصة التي ذكرنا فيها مختلف عروق هِمَالْيَة وآسام العليا ذكرًا خاطفًا ما يمكن تسميته بالهندوسي ولو بوجه عام أو مبهم.

ونحن حين ندخل وادي الغَنْج نجد أنفسنا في صميم بلاد الهندوس؛ أي بلاد الشعوب البرهمية التي يجري في عروقها دماء قدماء الدراويد ودماء تورانية ودماء آرية على نِسَب متفاوتة غير منتظمة.

شكل ٢-٤: الملك المغولي أكبر «كما جاء في مخطوط هندي قديم»، «مكتبة فيرمان ديدو».

والسهل الواسع الذي يشقه نهر الغَنْج وروافده هو من أكثر بقاع العالم خصبًا وسكانًا؛ ففي هذا السهل تجد ١٤٠٠٠٠٠٠٠ شخص يخرجون من ترابه بسهولة منابع أنعُمهم ومعايشهم، وليس في تضاعف هؤلاء الآدميين وتكاثُفهم بما قد لا تراه في بقعة من الدنيا ما يجعل تلك الأراضي العجيبة غير كافية لاحتياجاتهم.

والفاتحون الذين تزاحموا على الهند من شمال غربها ومن شمال شرقها انتشروا في تلك المنطقة المدهشة، فنبصر في وادي الغَنْج مختلف العناصر التي تجدها في تركيب عروق شبه جزيرة الهند الكثيرة، فتشاهد اختلاط هذه العناصر في وادي الغَنْج أشد مما في أية بقعة أخرى، وهذه العناصر إذا كان من شأنها أن تُسفر عن مثال واحد أو قومية واحدة فإنك قد تجد هذا المثال في أرياف ضفاف الغَنْج، ويتجلى هذا المثال في فلَّاحِ «شودري» بهار أو أوَدَهة الذي انتقل إليه من أجداده قدماء الدراويد اسمرار جلده، والذي انتقل إليه من غزاة توران الأولين جَرَدُ[97] وجهه

97 الجرد: قصير الشعر.

العريض وأكثر ملامحه ودقة أعضائه، والذي انتقل إليه من الآريين زهوه وفخره وتوقُّد ذهنه وخياله الديني والاجتماعي.

والحق أن العِرْق القاطن في وادي الغَنْج مؤلف من ثلاثة عناصر أساسية، والذي يمنع هذا العِرْق من أن يكون خالصًا هو اختلاط هذه العناصر فيه اختلاطًا غير مُتَّسِقٍ،[98] فإذا كان العنصر الآري سائدًا للغرب في أَوَدْهَة فإن العنصر الأصفر هو السائد للشرق في البنغال، وتقع بين هاتين الولايتين ولابة بهار التي تختلف عنهما وضعًا ومنظرًا وسكانًا، وكلما صعدت من مصبِّ الغَنْج إلى منبعه وجدتَ المثال الهندوسي يَشْرُف خَلقًا وخُلُقًا.

وأسوأ ما تتجلى تلك الاختلاطات في البنغالي، فيبدو البنغالي صغيرًا هزيلًا أسمر الجلد قصير الأنف واسع الفم أسود الشعر أمعر[99] اللحية، ويتصف بذكاء كافٍ لهضم ما يُعَلَّمه، ويشتهر بالمداهنة والمداجاة والفتور والنذالة.

وجلود أهل بهار سُمْرٌ، ويقتربون من المثال الأوربي بملامحهم، ولا أثر فيهم مما في البنغاليين من الخداع والدناءة.

ويظهر أهل أَوَدْهَة شعبًا راقيًا، ويجد المرء فيهم المثالَ الآري شائعًا؛ لما يراه فيهم من استدارة الوجه المنير، وانسجام الملامح، وارتفاع القوام، والاعتزاز بالنسب.

ويتألف ثُمن سكان أَوَدْهَة من البراهمة، أي من حفدة قدماء الآريين، ويكثر الأكشترية «المقاتلة» أو الراجبوت في أَوَدْهَة، ويملك هؤلاء أراضي واسعة فيها، ويفتخر زراعها بانتسابهم إلى عِرق الإله كرشنا.

98 غير متسق: غير منتظم.

99 الأمعر: القليل الشعر.

شكل ٢-٥: الملك المغولي شاهجهان يستقبل «كما جاء في مخطوط هندي قديم»، «مكتبة فيرمان ديدو».

وتَعرف الولايات الثلاث التي ذكرناها آنفًا نظام الطوائف كما في بقية الهند، ولكن أحقر طائفة في أَوَدْهَة تحتقر أعلى طائفة في البنغال، فترى الصعلوك السائل في أرباض[100] بنارس يترفَّع عن الأكل من مائدة البرهمي في كلكتة، وترى هذا البرهمي يَعُدُّ من الأحلام أن يتزوج ابنتَه فلَّاحٌ غليظٌ من ضفاف غوغرا.

ويتجلى تأثير الإسلام في وادي الغَنْج على عكس التأثير الآري، فهو يزيد من الغرب إلى الشرق ومن منبع هذا النهر إلى مصبه، ويتألف من المسلمين عُشْر أهل أَوَدْهَة وسُبْع أهل بهار وثُلث أهل البنغال، بَيْدَ أن الهندوس الذين اعتنقوا الإسلام لم ينفصلوا عن إخوانهم من البراهمة بسبب

100 الأرباض: جمع ربض، وهو ما حول المدينة من بيوت ومساكن.

إسلامهم، فهم يفترقون مثل هؤلاء إلى طوائف، وتجمع أهم الشعائر الدينية بين أتباع تَيْنِكَ الديانتين في الغالب.

وتُبْصر، مما تقدم، عناصر متقاربة في وادي الغَنْج يُرجى صَهْر كل منها في شعب متجانس يومًا ما؛ لما بين أقصى مُثُلها من حلقات متصلٍ بعضها ببعض اتصالًا يكاد يكون غير محسوس، فبينما تجد في أقسام الهند الأخرى شعوبًا مختلفة أشد الاختلاف مع تجاورها، ترى في وادي الغَنْج عناصر كثيرة منسبكة تقريبًا، فترى البنغاليين يعدون أنفسهم فيه من جنس واحد، وترى مثال طبقاته العليا واحدًا مشابهًا لمثال الطبقات العليا في الهند الصينية، وترى طبقاته الدنيا تبتعد عن العِرْق الأصفر، وترتبط في العروق الفطرية الأولى، وفي قدماء الدراويد والكول.

قبائل وادي الغَنْج الأدنى المتوحشة: السانتهال والملير، إلخ

يوجد بين الشعب المتجانس الذي وصفناه آنفًا جماعاتٌ متفرقة من شِباه الوحوش، ولا يُعَدُّ أكثر هؤلاء من سكان وادي الغَنْج تمامًا من الناحية الإثنوغرافية والناحية الجغرافية، وسندرس أمرهم حينما نبحث في شئون إخوانهم من سكان الولايات الوسطى، وما نقوله هنا هو في أمر بعض تلك الجماعات التي لا يجوز الإغضاء عنها الآن ما ظلَّت من سكان وادي الغَنْج، وما تكلمنا في هذا المطلب عن هؤلاء السكان.

والملجأ الأخير للهمج الذين أقاموا بشبه جزيرة الهند فيما مضى هو، كما ذكرنا، جبال الهند الوسطى الواقعة في جنوب نهر نَرْبَدَا ونهر سون والفاصلةُ بين الهند الشمالية والدَّكَن، فأمام فَقْرِ هذه المنطقة وقسوة منظرها وخطر جوّها تقهقر الفاتحون، وتهبط منحدراتها الأولى العاصية غير المَرْودَة[101] إلى ضِفاف الغَنْج حيث ينحني هذا النهر العظيم ليتوجَّه إلى الجنوب، وتُعَيِّن الضلع التي تحدد مجرى هذا النهر شواهق راج محل المشرفة على الجبال الوسطى، فهنالك، في وسط الهند المتمدنة بين بهار والبنغال، نجد في حالٍ شبه وحشيةٍ وشِبْه طليقة الملير والسانتهال،

101 راد الأرض يَرُودُها رَوْدًا ورِيادًا: تفقَّد ما فيها من المراعي والمياه ليرى هل تصلح للنزول فيها.

وهنالك، نحو الجنوب، في جوانب جهوتاناغبور، نجد في حالٍ شِبْه وحشية وشِبْه طليقة الأوراون والمُنْدا والكول، أي أكثر شعوب آسيا فطرة على ما يُحتمل.

فلندَع الآن جانبًا أمر هذه القبائل الفطرية الثلاث الأخيرة التي سنتكلم عنها بعد قليل، ولنذكر شيئًا عن السانتهال والمليرِ كما يأتي: يقطن المليرِ أقسام جبال راج محل العليا، ويعرفون بالبهاريين أو الجبليين، ويمكن عدهم مزيجًا من سود الدراويد ومن الأهالي الصفر، ولم يتأثروا بالآريين قط، ويجهلون معنى الطائفة، ويشابهون دراويد جنوب الهند كثيرًا، ويتصفون بأُنسهم ودماثتهم وصدقهم الذي هو مضرب الأمثال، فمن أقوالهم المفضلة: «الْبَيْنُ[102] ولا المَيْن.»[103]

ويسكن المليرُ أكواخًا كبيرةً مصنوعة من سيقان الخيزران المُزَيَّنة بإتقانٍ ومؤثَّثَةً بمتاع ذي أفنان، ويعبد المليرُ النجومَ وقُوى الطبيعة والملائكةَ الذين يقطنون، على زعمهم، في الأجواء، ويبني المليرُ بيتًا كبيرًا عامًّا لشباب كل قرية، حيث يمارسون ضروب الرياضة والبأس، ويقيمون في بعض الأحيان، فلجأ الإنجليز إلى الحيلة؛ لقهر المليرِ أكثر مما إلى القوة فوجدوا أن النقود والوعود خيرٌ من السلاح في إخضاع المليرِ.

والسانتهال أكثر من المليرِ عددًا وأعظم أهميةً، ويسكن السانتهال منحدرات الجبال والسفوح التي يقطن المليرِ في أعالي جبالها، وللغة السانتهال طابعٌ خاصٌّ ما بدت أمَّ جميع اللغات الكولية، والسانتهال أشد الفطريين تأثرًا بالعنصر الأصفر، والسانتهال نتيجة اختلاط الصفر بالسود.

والسانتهال خِفَافٌ لِطَافٌ مُكرِمون للأضياف، فترى أمام أكواخهم الهِيف «صُفَّة الغريب» حيث يجد المسافر حُسْن القِرَى.

---

102 الْبَيْنُ: الفُرقة والعداوة والبغضاء، وهو هنا بمعنى الموت.

103 المَيْن: الكذب.

والأسرة السانتهالية متينة التركيب، ويختار الأزواج عند السانتهال بعضهم بعضًا طَوْعًا على أن يكون الزوجان من عشيرتين مختلفتين، ويقول السانتهال بمبدأ تعدد الزوجات في حالة عقم المرأة فقط، ويندر الطلاق بينهم.

والسانتهال يُكِنُّون احترامًا كبيرًا لنسائهم فيُحَلُّونهن[104] ويُظهرون ما يَرُوقُهن ويتملقونهن بالعناية بأنفسهم وتزيين أشخاصهم، وديانة السانتهال وشعائرهم بسيطة إلى الغاية، فهم يعبدون الشمس والأجداد، ورب الأسرة السانتهالية كاهنُها، وربُّ الأسرة هذا إذا ما احتُضِر علَّم ابنه البِكر، وهو على فراش الموت، الأدعية التي تلين بها الآلهة والطقوس التي تجلب البركات من السماء.

والسانتهال يحرقون موتاهم، والسانتهال يحفظون، مع ذلك، عظامًا من موتاهم ليرموها في مياه نهر دامودر المقدسة، والسانتهال يحافظون على شرفهم وأعراضهم كثيرًا، فيُعَدُّ ارتكاب المنكر أعظم جرم عندهم، فمن يقترفه يعاقب هو وعشيرته بالطرد من حظيرة القوم.

والسانتهال زُرَّاع ماهرون، وللسانتهال أذواق البدويين، فإذا ما استنفدوا خصب أرضٍ تركوها وأحيَوْا غيرها، ولكن المَدَى الذي يقدرون على التَّنَهان فيه يقلُّ شيئًا فشيئًا بسبب تكاثرهم السريع وتطاوُل الإنجليز، وما أصاب السانتهال من زيادة بؤسٍ حَمَلَهم، منذ بضع سنين، على المثول بين يدي حكومة كلكتة ظانِّين أنها تتدبر أمرهم، فلما وصلوا إلى مكان مناسب أُطلق الرصاص عليهم إطلاقًا منظمًا، واليومَ يهجر سانتهالٌ كثيرون جبالهم؛ ليبحثوا عن عمل لهم في السهل، واليومَ ينزح بعضهم من وطنهم إلى ما هو أبعد من السهل.

ومن الفطريين نرى السانتهال والمليز وحدهم يعيشون أمة في وادي الغَنْج، وفي وادي الغَنْج تجد أهالي منثورين هنا وهنالك يُعرفون بالـ «قُلِي» فيُستخدمون أُجَرَاء وعمالًا وموظفين صغارًا في دواوين الحكومة.

104 حلَّى المرأة: ألبسها أو اتخذ لها الحُلِيَّ.

ونذكر، قبل أن نترك وادي الغَنْج، أن جميع مدنه المهمة، خلا كلكتة، قائمة في النصف الغربي منه، وأن قِسمه الشرقي المشتمل على البنغال هو أرضُ حرثٍ وزرع، وأن سكان هذا القسم مبعثرون في أكواخ ظريفة محجَّبة بالأشجار غير متجمعة في مراكز كبيرةٍ كالتي تُرى على ضِفاف الغَنْج العليا.

(٤) سكان البَنْجَاب

يحتوي وادي السِّنْد، الذي سندرس أمر سكانه، على ثلاثة أقسام: البَنْجَاب في الشمال والسِّنْد في الجنوب وراجبوتانا في الشرق، ويقطن في هذه الأقسام الثلاثة أمم مختلفة.

والبَنْجَاب الذي كان الطريقَ الكبرى لجميع ما عُرِّضَت له الهند من المغازي ذو سكان مختلطين غير مصهورين بدرجة انصهار سكان وادي الغَنْج، فتبدو فيه العناصر الآرية والتورانية والمسلمة متخالفة، ولا تجد فيه أثرًا للعنصر الدراويدي أو العنصر الأصلي، والإسلام هو الدين الذي يسود البَنْجَاب، وللإسلام أثرٌ بليغٌ في براهمة هندوس البَنْجَاب الذين يَظهرون بإيمانهم الفاتر سُبَّةً لدى إخوانهم في بقية الهند.

وأصل سكان البَنْجَاب توراني، وهو مؤلف من الجات على الخصوص، فعلى هذا الأصل الواسع تنضَّدت طبقة آرية تعدل نصفه وأقليةٌ مسلمة ضعيفة.

ومن المحتمل أن كان الجات سادة البلاد حين الغزو الآري، مع أن الجنرال كننغهم يرى، في كتابه «تخطيط آثار الهند» الذي يُعَدُّ حجة في الموضوع، أن الجات من العنصر الهندي الشيثي، وأنهم أتوا الهند بعد الفتح الإسكندري، فالذي لا ريب فيه أن هؤلاء التورانيين الفطريين أو الهنود الشيثيين امتزجوا قليلًا بمن دحروهم إلى الجبال من الدراويد، وبمن خضعوا لهم مؤخرًا من الآريين؛ فنجم عن المصاهرات القليلة التي تمت بين تلك العروق أمثلةٌ مختلفة بين الجات، فترى فيهم أناسًا شديدي الإسمرار، وترى بينهم أناسًا منيرين كالراجبوت.

ولنَقُلْ، قبل البحث في أمر الجات ذوي الشأن المهم في الهند، بضعَ كلمات عن آريي البَنْجَاب الذين كان لهم نفوذ بالغ، وفوز لغوي واضح مع قلة عددهم.

من الطبيعي أن يكون المثال الآري الخالص في شمال البَنْجَاب الغربي حيث المنفذ المسمى بالباب الهندي الآري، ويتجلى هذا المثال في الأفغان الإيرانيين الذين يُعرفون باسهم البتهان، فيشابهون كثيرًا أهل دردستان وأهل كافرستان، ويظهرون ذوي صلة بسكان وادي كشمير، فهم ذوو لون صافٍ وأنوف قُنْوٍ ووجوه بيضيَّة وشعور شُقْر أو خمرية[105] وعيون بُلْج[106] وما إلى ذلك من الأوصاف النادر وجودها مجتمعةً في أناس من أهل الهند حيث الشعور السُّود والعيون الدُّكْن.[107]

ويستقر بجانب جبال هِمَالْيَة الأوان والغَكَر الذين أريد نسبهم إلى الإغريق، فعلى ما في هذا من شك فإن الذي لا مراء فيه هو أن أولئك من العِرْق الآري الخالص، وينتسب الدُّغرا وبعض القبائل الأخرى إلى العِرْق الفاتح أيضًا، فإذا ما نَزَلْتَ إلى الجنوب وجدت أناسًا كثيرين من الراجبوت، ويقيم معظم الراجبوت بالمنطقة المستطيلة المسماة بمنطقة الراجبوت، وسنصف أمر الراجبوت في مطلب آخر، فلنَدَعْهم الآن جانبًا.

ويقطن في قسم هِمَالْيَة المشرف على البَنْجَاب وفي الأودية المنحدرة إلى البَنْجَاب جماعاتٌ من التبت وصفناها فيما تقدم فنكتفي بالإلماع إليها هنا، والآن نصل إلى الجات الذين هم أهم شعوب البَنْجَاب ووادي السِّنْد.

فعلى ما في الجات من بعض المُثُل المتباعدة التي هي وليدة امتزاجات نادرة نرى الجات يتصفون بالطول وتناسُب الأعضاء وذكاء المنظر والاسمرار واتساع الأنوف وارتفاع طرفها وقَنَاها[108] أحيانًا وصغر العينين

105 الخمري: الأسود الضارب إلى الحمرة.

106 بلج: جمع أبلج وهو المشرق الوضيء.

107 الدُّكْن: جمع أدكن وهو المائل إلى السواد.

108 قنى الأنف يقني قنا: ارتفع وسط قصبته.

وأفقيتها ونتوء الوَجَنات واسوداد الشعور وكثفاتها ودقة اللحى وشعوثتها، ونرى نسوة الجات يتصفن بطول القدود مع حسن المنظر وبالبخترة مع الاتزان الناشئ عن ثقل الخلاخل، ويلبس هؤلاء النسوة سراويل ذوات ثَنْيٍ ويدَّثِرن بدُثُرٍ أنيقة تشتمل على رءوسهن وأكتافهن وتحجب أحيانًا وجوههن.

ويُقسَّم الجات إلى ثلاث جماعات دينية: المسلمين المسيطرين على القسم الأدنى من وادي السِّنْد والسِّك أو أتباع نَانَك المقيمين بالبَنْجَاب وأتباع البرهمية المستقرين بمنطقة راجبوتانا والمنتسبين إلى طائفة الويشية.

وبينما كان الجات يملكون جميع الهند الغربية أغارت عليهم قبائل الآريين المحاربة، فبادر الجات إلى الخضوع، على ما يُحتمل، فعاملهم الآريون الغالبون بالحسنى، فأحدثوا لهم طائفة جديدة عُرفت بطائفة الويشية التي لا تزال مشتملة، بوجه عام، على أبناء الطبقة الوسطى ولا سيما التجار، مع حصر قدماء الأهالي في طائفة الشودرا المحتقَرة.

ولا ريب في أن ذلك كان نتيجة اتفاق أو تراضٍ قاضٍ بجعل سلطان الآريين فوق توراني غرب الهند، ولا نزال نجد لهذا الاتفاق أثرًا في بعض حفلات التتويج حيث يتسلم الأمير الراجبوتي الصولجان من رعاياه الجات.

وحدث في أواخر القرن الخامس عشر نوع من الإصلاح الديني فظهر مذهب السِّك الذين غدوا شعبًا بعد أن كانوا جماعة من الأشياع والمريدين، وبيان الأمر أن نبيَّهم نَانَك حاول أن يجمع الإسلام والديانات الهندوسية في دين واحد، وأن يصهر العروق بإزالة ما بين الطوائف من الفروق، وبإعلانه المساواة بين الناس، فصار جميع الذين اعتنقوا تعاليمه من السِّك أو من «المريدين»، وهؤلاء كلهم كانوا من الجات تقريبًا، فانضم الآريون إليهم فرفعوا بذلك مستوى الجات، ثم أضحى السِّك شعبًا حربيًّا؛ فنمت أجسامهم بفضل تمارينهم العسكرية، فلم يلبثوا أن تألَّف منهم عِرق باهرٌ يتصف مثاله بالبأس والكَيْس ونُبْل الملامح

وقوة البيان وانسجام القامة، فالمحارب السكي هو من أمثلة جمال النوع الإنساني حقًّا.

وزعيمهم الثاني غووِندسِنغ هو الذي حبب إليهم النظام العسكري، فإذا كان نَانَك قد هداهم إلى معتقد روحي عالٍ قائل بإله واحد فإن غووِندسِنغ مَنَّ عليهم بالفولاذ رمزًا ماديًّا، ما صُنع من هذا المعدن دروعٌ مُسَرَّدة وسيوف مهندة، فعلى السكي المحارب أن يحمل تميمة من فولاذ ولو نُزع منه سلاحه.

وكان السِّك يطيعون زعيمًا منتخبًا منهم، وكانوا يجتمعون في مجالس شعبية للتشاور في الشئون المهمة، ولم يلبث السِّك أن بدَوا قومًا أولي بأس شديد فاضطر ملوك المغول والإنجليز من بعدهم إلى مراعاة جوانبهم، فلما كانت أوائل هذا القرن أقام السِّك في البَنْجَاب دولة مرهوبة، فعامل الإنجليز زعيمهم ملك لاهور المسمى رَنجيت سِنغ معاملة الندِّ للندِّ، وأَجلس زعيمُهم هذا على عرش الأفغان مَلِكًا اختاره بنفسه، واليوم عاد السِّك يكونون، كما في الماضي، طائفة دينية عاصمتها الروحية مدينة أمْرِتسر المهمة.

وحب التعليم نامٍ عند السك، فلهم جمعيات علمية مهمة نذكر منها جمعية لاهور المشتملة على علماء فطاحل، وما في السِّك من الروح العسكرية التي لم يَخْبُ[109] أُوَارها[110] جعل منهم ومن الغوركها أحسن الجنود في الجيش الإنجليزي، ومن وقفوا أنفسهم منهم على أمور الزراعة فأكثر الهنود صبرًا وعملًا، وتقع جميع أراضي وادي السِّنْد الصالحة للزراعة بأيديهم، وفيهم يتجلى أرقى زُمَر الهند الزراعية.

ومن الجات أناسٌ كثيرون حَبَسوا أنفسهم على التجارة فيمارسونها ببراعة، ويُعرف هؤلاء التجار بالمُلتانيين، نسبةً إلى مدينة مُلتان التجارية الواقعة بين البَنْجَاب والسِّنْد، وليس هؤلاء بمعروفين في الهند وحدها،

109 خبا يخبو خبوًا: خمد وسكن وطفئ.

110 الأوار: الحرُّ.

بل اشتهروا في جميع مدن آسيا الوسطى؛ حيث يسيحون للتجارة على مقياس واسع، ولإذاعة أهم الأخبار وإشاعة أنباء الحرب.

وفي الهند، في البَنْجَاب كما في ضفاف الغَنْج وفي الدَّكَن، ترى الصيارفة والمُرَابين والماليين من المارواريين، أي من جات ماروار الواقعة في جنوب البَنْجَاب والتي هي جزء من راجبوتانا، وكلمة «المارواري» في الهند مترادفةٌ هي وكلمة «اليهودي» في البلدان الأخرى، فهؤلاء المُرابون الذين يُدينون لآجالٍ مختلفة يغتنون على حساب فقراء الهندوس المرهقين بضروب الضرائب، فترى الناس يخشون أولئك ويحقدون عليهم في كل مكان، ولا أجد، لوصفهم، أحسن من أن أقتطف بضع جمل من كتاب طريف دبَّجه حديثًا يَرَاعُ أحد هندوسي بَرُودَة السيد ملباري عن أهالي كجرات، ففي كجرات كما في جميع أقسام الهند يظهر المارواريُّ بمظهر صاحب الأمر والنهي، فإذا ما أثرَى تزوَّج وعاد إلى مسقط رأسه ليقضي فيه بقية حياته. قال السيد ملباري:

لا يقوم المارواري بعمل لا يُدِرُّ عليه ربحًا مائة في المائة، ويحب المارواري الإدانة لآجال بعيدة، والمارواري يُدين ويُدين إلى أن يصبح المَدين قبضته، فإذا ما أفلس هذا المَدين حمله على السرقة، فبذلك يحطُّ المارواري ضحاياه كما يُخَرِّب بيوتهم، وليس نصف عواهر بَمْبِي إلا من أخوات هؤلاء الضحايا وأزواجهم اللائي عَرَفْنَ المارواري فاشتَرَيْن منه بضعة أرطال من السكر لآجال، فأسفر ذلك عن سقوطهن خَلقًا وخُلقًا، والمارواريُّ، مع كونه من أتباع وِشنو، لا يحترم آلهته، ويفضِّل دينارًا حاملًا صورة الملكة على أكثر هذه الآلهة حرمة.

ولا يتعاطى جميع الجات الزراعة والتجارة والمراباة، فبعض الجات ظلَّ من شِبَاه البرابرة والبدويين، ومن الممكن أن يُلصق بالجات زُراع البَنْجَاب وتجارهم المعروفون ببنجار الهند الذين هم إخوان النَّوَر بأوروبا كما يظهر، ويزاول أولئك ما يزاول نَوَرُ أوروبا من المهن، ويتصفون مثلهم بالجمال الفطري، ويتجولون من بلد إلى بلد ومن كوخ إلى كوخ وينزلون،

إذا ما حلُّوا بمكان، في عرباتهم، ويعرضون للبيع صغير المتاع، ويُغَنُّون ويرقصون، ويقصُّون الأقاصيص.

(٥) سكان الهند وراجبوتانا

إذا ما نزل المرء من البَنْجَاب إلى مجرى السِّنْد بلغ السِّنْد حيث يكثر الجات والمسلمون والسِّك والْجَيْنِيّون، ويتألف عنصر السكان الآخر الأساسي من البلوجيين الذين هم شعب جبلي مشابه للشعب المقيم ببلوجستان المجاورة للسند، فالبلوجيون هؤلاء من المسلمين السُّنِّيّين، ويقسَّمون إلى عدة قبائل، فإحدى هذه القبائل تدَّعي بأنها من العرب ويتجلى فيها المثال السامي، وقبيلةٌ أخرى منها لا يندر وجود ذوي شعور شقر فيها، وقبيلة ثالثة منها تُعَدُّ نتيجة توالد أناس من البلوجيين والجات.

وتتكلم الشعوب التي تسكن وادي السِّنْد، على العموم، بلغات من أصل سنسكرتي، وأهم هذه اللغات هي: البَنْجَابية والسِّنْدية والمارواية، فلا تجد فروقًا كبيرة بينها.

وراجبوتانا هي القطر الواسع الممتد من السِّنْد إلى مداخل أغرا ومن جنوب البَنْجَاب إلى ممالك مراتها الممتدة من بَرُودة إلى غواليار، وتشتمل صحراء تِهَار الكبرى على النصف الغربي من راجبوتانا حيث تغدو وتروح قبائل من شِباه الوحوش، ويشق النصفَ الشرقي من راجبوتانا عدةُ مجارٍ تنبسط بين أوديتها هضاب وتقوم عليها جبال، وسلسلة آراولي هي أهم هذه الجبال، ومن جنوب سلسلة آراولي هذه ينفصل إلى الجنوب الغربي شاهق آبو الجليل.

وما في راجبوتانا من شذوذ أرض، كالذي ذكرنا، حال دون امتزاج عروقها مثلما وقع في وادي الغَنْج ووادي السِّنْد المبسوطين، فقد ظلت هذه العروق مختلفة اختلاف الأودية والهضاب والجبال، ففي ضفاف الأنهر تتجمع أكواخ الجات التورانيين والزراع، وعلى الهضاب تقوم

صياصي[111] الراجبوت الآريين المحاربين، وعلى المنحدرات العالية وفي الغابات الوعرة يدافع البهيل عن العادات القديمة والحريات الوحشية.

وأُطلق اسم الراجبوت على القطر الذي كانوا سادته، والراجبوت لا يزالون يبدون فيه شعبًا مهمًّا من الناحية العرقية، والراجبوت منتشرون، مع ذلك، في شمال الهند خُلَّصًا أو متوالدين هم وسواهم.

والراجبوت وإن كان التاريخ غير مُصدِّق لما جاء في أساطيرهم حول قدم أصلهم، هم عنوان أجمل عروق الهند وأصفاها، فالراجبوت ذوو قدود هِيفٍ عالية وجلود سُمْر نيّرة وعيون نُجْلٍ[112] شُهل[113] وأنوفٍ قُنْوٍ ومناشق لطيفة ذات رَجّ وشعور سود كَثَّة متجعدة ولِحى طويلة جثيلة،[114] والراجبوت يطلقون في الغالب شعور الوجنتين والعارضين بإفراط ثم يجمعونها في أعلى الرأس ليعقدوها هي وبقية الشعور، وتتصف نسوة الراجبوت بالحسن الرائع على العموم.

وبين الراجبوت تجد أقدم طبقة للأشراف في العالم، فَرَاجِهُ أودي بور وحدَه هو الأمير الذي يمكنه أن يفتخر بأنه سليل أجدادٍ يملِكون منذ أكثر من ألف سنة.

ونجهل تاريخ قدماء الراجبوت جهلنا لتاريخ ممالك الهند القديمة الأخرى، بَيْدَ أن ما ورد في أساطير الهندوس من مفاخر أبطالهم وقتالهم المرهوب للمسلمين، وما عانَوْه من حصار مخيف ولا سيما حصار جتور الذي حرق النساء في أثنائه أنفسهن بالألوف حَذَرَ الأَسْرِ والذي فضَّل الحُمَاة في أثنائه أن يُقتَلوا جميعهم على التسليم، يثبت قيمتهم التالدة،

111 الصياصي: جمع صِيصة، وهي الحصن، وكل ما امتنع به.

112 النجل: جمع أنجل وهو الواسع.

113 شهل: جمع أشهل وهو من يشوب سواد عينه زرقة.

114 جثِل الشعر يجثل جثالة فهو جثيل: كثُر والتفَّ واسودَّ.

[115]وللراجبوت أن يزهوا بشجاعتهم إزاء جموع الهندوس ذوي الجُبْن على العموم.

والمسلمون حينما استولوا على الهند وجدوا الراجبوت مقيمين بجميع مدن الشمال وبسهل الغَنْج إلى منطقة البنغال الحاضرة، فكان الراجبوت يملكون لاهور ودلهي وقَنُّوج وأجودهيا، إلخ، وكانت المنطقة التي يملكونها ممتدة في الشمال من نهر السِّنْد ونهر ست لج إلى نهر جمنة بالقرب من أغرا، وفي الجنوب إلى جبال وِنْدهيَا، أي كانت شاملة لجميع شمال الهند الغربي.

فأما دُحِر الراجبوت من البقاع الخصبة التجئوا إلى منطقة راجبوتانا الحاضرة التي هي أمنع من تلك وأسهل منها دفاعًا.

شكل ٢-٦: مسلم من دهلي يصنع وشاحًا.

وتقسم أملاكهم إلى تسع عشرة دويلة يملك الراجبوت منها ستَّ عشرة، ويقوم بشئونها رؤساؤهم، ودويلة أودي بور هي أهمها.

والراجبوت حاربوا المسلمين بنجاح إلى القرن الرابع عشر، وهم لم يصبحوا مهددين بجِدٍّ إلا بعد أن خسروا عاصمتهم جتور، وهم لم

115 التالد: القديم، وعكسه الطارف.

يندمجوا، مع ذلك، في الدولة المغولية إلا في عهد الملك أكبر، ولم يكن هذا الاندماج، مع ذلك، إلا صورةً، لا حقيقةً، ما حافظوا على استقلالهم الناقص، فالملك أكبر ترك لهم، بالحقيقة، نُظُمَهم مُنْعِمًا على زعمائهم بمراتب عالية في جيوشه متزوجًا ببنات منهم، ثم سار خلفاؤه على سُنَّتِه في ذلك.

ودستور دويلات الراجبوت القديم وحده هو الذي كُتِب له البقاء مع تقلبات السياسة في غضون القرون، وعادات الراجبوت وحدها هي التي لم تتحول بالمؤثرات الأجنبية، فنحن، إذ نبحث في هذا الدستور وهذه العادات في فصل آخر، نرسُم حضارة قسم كبير من الهند حوالي القرن العاشر من الميلاد، فمن العبث إذن، أن نفصِّل هنا أمور ذلك الشعب الشامل للنظر.

وتشتمل منطقة راجبوتانا، خلا أولئك الراجبوت والجات الذين تكلمنا عنهم آنفًا، على شعوب من شِبَاه الوحوش جديرة بالدرس كما يأتي:

شِبَاه الوحوش من سكان راجبوتانا: البهيل والمينا، إلخ

يُعَدُّ البهيل الذين يقيمون براجبوتانا وبالبقاع المجاورة لها من أقدم عروق الهند، ومن البهيل نزع التورانيون شمال غرب الهند، فاقتسم هذان الشعبان وادي السِّنْد زمنًا طويلًا، ولم يكن دحر البهيل إلى الجبال إلا نتيجة الغزو الراجبوتي الآري الذي وقع في القرون الأولى من الميلاد، كما يرى بعض المؤرخين، ولم يُقهر البهيل الغِلاظ المتوحشون من غير مقاومة مع ذلك، والبهيل ألقوا الرعب، عدة قرون، في قلوب الراجبوت بانقضاضهم عليهم من ملاجئهم العالية، ولا يزال ملوك الراجبوت يحافظون منذ القديم على مظهر التولية من بهيلي كرمز احترام للبهيل الذين كانوا سادة البلاد الأقدمين، وذلك بأن يجرح البهيلي البهمجي إبهامه وأن يلطِّخ بما يسيل من دمه جبين الأمير الجديد.

وعلى ما يدل عليه هذا الرمز من اتفاق ذَيْنِكَ الشعبين يمقت البهيل الهندوس، والبهيل يغتنمون، على الدوام، فرصة محاربة الإنجليز

للراجبوت فيوجهون إلى هؤلاء سلاحهم، والبهيل عرضوا في سنة ١٨٥٧، حين اشتعلت ثورة السباهي، خِدَمَهم على الحكومة البريطانية.

وليس البهيل عرقًا خالصًا، فمن البهيل الذين يترجح عددهم بين مليونين وثلاثة ملايين لا تجد سوى مليون واحد ظل صافيًا تقريبًا، وترى البهيل يفتخرون بصفاء عروقهم مع أن العكس هو الأجدر ما بدا البهيل الذين تجري في شراييهم دماء تورانية أنبل من خُلَّصهم، وهنا نُلصق بالبهيل شعبين مقيمين براجبوتانا، وهما: المينا والمهاير، فنقول: إذا كان العنصر الأصلي غالبًا في البهيل فإن العنصر التوراني مساوٍ للعنصر البهيلي في المهاير غالبٌ في المينا.

والمنطقة التي استقر بها البهيل بعد أن طُرِدَ بعضهم من راجبوتانا هي منطقة جبلية كثيرة الغاب ممتدةٌ من شمال جبال كهات الغربية إلى جنوب جبال آراولي، ومن خليج كمبي إلى الجزء الأوسط من وادي نَرْبَدا ووادي تابتي، وفي جبال وِنْدهيَا وسات بورا، على الخصوص، مأواهم، وفي هذا المأوى بَدَوا مستقلين إلى الآن، وعديدهم كثير في جبال كجرات وفي وادي ماهي النهر الصغير الذي يسيل إلى خليج كمبي.

والبهيل سود قباح شُوهٌ فُطْسٌ ذوو عيون صغيرة زُور[116] ووجنات ناتئة قليلًا وقامات مربوعة مع خفة وقوة، والبهيل عُرَاة ولا يضعون سوى فُوَطٍ حول الكُلَى ومَرَسٍ حول شعورهم السود المُلْس الطويلة، ويتألف سلاحهم الابتدائي البسيط من حراب ومزاريق ورماح وأقواس وسهام يرمونها بمهارة فيقابلون بها حتى الأنمار، ويعيشون من صيد البر والبحر، ويَسُمُّون مجاريَ المياه بِرُبِّ اليَتُوع فيُدَوَّخُ السمك بذلك فيسهل إمساكه.

ويَعرِف البهيل النظام القبلي السياسي الفطري كما يعرفه الراجبوت، وتقوم القبيلة من الوجهة النظرية على وجود جَدٍّ واحد لجميع أفرادها، ويندر، حتى عند الآريين، دخول بيضة[117] القبيلة، ما لم تقضِ ضرورة

116 الزور: جمع أزور وهو المائل، الناظر بمؤخر عينيه.

117 بيضة القبيلة: ساحتها.

الجوار أو ضرورة الدفاع بأن يدخل القبيلة غرباء الولاء، وكلما سَهُل الأمر غدا النظام القبلي مَرِنًا متحولًا إلى النظام الشعبي، وأبواب القبيلة مفتوحة عند البهيل بعض الفتح، فإذا ما أتى تورانيٌّ أو راجبوتي من أهل السهل مُنْكَرًا فأُطِلَّ[118] دمه التجأ إلى البهيل في الجبال فتقبلوه بقبول حسن، ما كان معنى كلمة البهيل «الأَطِلَّة».[119]

شكل ٢-٧: جنود من الراجبوت.

والزواج بين أفراد القبيلة الواحدة محرَّم عند البهيل، وعلى الغريب الذي يود الزواج أن تتبناه إحدى القبائل، فإذا تم له ذلك سَهُل عليه أن يتزوج فتاة من قبيلة أخرى، والفتاة إذا ما سُبيت[120] لم يفكر المُسْتَبُون في تزويجها بأحدهم قبل أن تُعَدَّ واحدة من إحدى القبائل التي لا يجوز لها أن تتزوج بواحد منها، فمثل هذا اليسر الممزوج بالعسر يُثبت في وقت

118 أطل دمه: أهدره.

119 الأطلة: جمع طليل وهو الدم المهدور.

120 سبى العدو فلانًا يسبيه سبيًا واستباه: أسره.

واحد ميل البهيل إلى تكوين أنفسهم، مثل جيرانهم الأكثر منهم تمدنًا، ودرجة عروقهم[121] في البداوة الفطرية.

ونكاح البهيل يتم ببساطة؛ فالعروسان يتواريان بضعة أيام في الغابِ ثم يعودان فيعربان عن اقترانهما، ويندر وقوع الطلاق عند البهيل.

ويُعرف البهيل الذين يسكنون قرى محصنة بالبال، ويُعرف ساكنو هذه القرى بالبلاري عند أهل السهل، والبلاري، فضلًا عن البهيل والمهاير والمينا، ليسوا من الأنجاس عند الهندوس مع أنهم لا ينتسبون إلى طائفة.

ودين البهيل فطريٌّ فطرة أخلاقهم وعاداتهم، فالبهيل يعبدون الشجر ويضعون في أسفله ألواحًا صغيرة؛ لتكون هياكل تُخضَّب بالدم أو بِمَغْرَة[122] رمزًا إلى الحياة، ويُكِنُّ البهيل احترامًا عظيمًا للإله القرد هنومان، وهذا ما يستوقف النظر ما كان ذلك القرد الوهمي رفيق البطل الآري راما فأعانه على فتح الهند ونزعها من أهلها الأصليين.

ونَعُدُّ من سكان راجبوتانا شِبَاه الوحوش المهاير والمينا الذين تكلمنا عنهم آنفًا، فهؤلاء هم الحلقتان اللتان يتصل بهما البهيل المتوحشون بالجات المتمدنين، ويقيم المهاير والمينا بجبال آراولي الواقعة في راجبوتانا، ويبلغ عددهم مئات الألوف، ويُنشئون، كالبهيل، قرى منيعة، ويحافظ أكثرهم على عاداتهم في النهب والسلب مع حثالة الجات والراجبوت فيؤدي هذا الاختلاط إلى تحسين مثالهم الذي يقترب عند المينا من مثال الجات.

ويسير المهاير والمينا إلى الحضارة قُدُمًا، فقد أخذوا يحرثون الأرض ويعتنقون البرهمية، ولكنهم لا يمارسون شعائر هذه الديانة إلا باعتدال، فتراهم يُقدِّسون الشجر والهياكل الحجرية والحديد كإخوانهم البهيل، وهم يتكلمون بلغة هندية مع أن بهيل الوسط يتكلمون بلغة مشابهة للغة الغوند.

---

121 عرق في الأرض يعرق عروقًا: ذهب فيها.

122 المغرة: الطين الأحمر يصبغ به.

(٦) سكان الكجرات وشبه جزيرة كاتهياوار

تمتد الكجرات إلى جنوب راجبوتانا، وتشتمل على قسم من اليابسة غني خصيب حافل بالمدن الزاهرة كالمدن: بَرُودة وسُورَت وأحمد آباد، وعلى قسم ساحلي جبلي، وعلى شبه جزيرة كاتهياوار التي يفصلها خليج كمبي عن ذلك القسم.

شكل ٢-٨: بندت هندوسي من أودي بور.

ويسكن الكجرات، التي يبللها البحر ويقصدها التجار من جميع أنحاء الدنيا، خليطٌ من الآدميين؛ ففي الكجرات تجد زُمَرًا من البراهمة المراتها والراجبوت والجات، وتجد فيها الجَينِيين، وتجد فيها أناسًا من السُّنِّيِّين والشيعة والمجوس والدراويد والكول.

ولا تزال الجبال الواقعة في شبه جزيرة كاتهياوار ملجأً لشعوب متوحشة، على حين ترى هندوسًا من أتباع المذهب الجَيْني يسكنون مدنها وشواطئها، وهذا المذهب المشابه للبُدَّهية هو أكثر مذاهب الهند حبًّا لإقامة المعابد للآلهة، فتبصر شبه الجزيرة تلك حافلةً بنماذج رائعة لفن البناء الهندوسي، فتشاهد فوق جبل شترونجيا الواقع في القسم الجنوبي الشرقي مدينة مؤلفة من معابد للعبادة لا من منازل للإقامة، فإذا قضى

المؤمنون مناسكهم تحت قبابها الجبلية وبين أعمدتها المزينة بأنواع النقوش اللطيفة نزلوا إلى مدينة بالي تانا الواقعة في سفح ذلك الجبل المقدس.

وأكثر الناس في الكجرات من أتباع طريقة وِشنويَّة ذات طقوس عجيبة، فتقوم هذه الطريقة على تقديس هؤلاء المؤمنين لثلاثين كاهنًا كبيرًا يُدعون بالمهاراجوات تقديسًا مطلقًا مع قيامهم بأمور معايشهم، فعلى الكاتب الهندوسي وناشر صحيفة «الإيندين سبكتتر» السيد ملباري أُحيلُ القارئ ليعلم طراز حياة هؤلاء الكهنة وسذاجة مريديهم، قال السيد ملباري:

إن المهاراجة هو الكاهن الذي يُؤَلَّه، أي الذي يتجسد فيه وشنوكرشنا فيقف عليه كل وشنوي تقي جسمه وروحه وملكه وأهله وتوابعه.

شكل ٢-٩: أناس من المينا «قبيلة شبه متوحشة في راجبوتانا».

وإليك بعض ما يَجْبيه المهاراجة من عُبَّاده الأتقياء: خمس روبيات «نحو عشرة فرنكات» للتشرف برؤيته، و٢٠ روبية للَمْسه، و٣٥ روبية لغسل رجليه، و٦٠ روبية للجلوس بجانبه، و٥٠–٥٠٠ روبية للثَّواء بغرفته، و١٣ روبية ليتفضَّل فيضربه بسوطه، ١٩ روبية لشربه من

غُسالته أو غسالة ثيابه القذرة، و١٠٠–٢٠٠ روبية من النساء اللائي يقضين معه روح اللذة.

وأبدى ذلك الكاتب الهندي حول «قضاء روح اللذة» تعجبه من إغضاء رجالٍ غَيَارَى ونساء مُحْصَناتٍ العيونَ عن أعزِّ المشاعر، وأرى، مع ذلك، أنه ليس في الأمر ما لا يمكن إيضاحه مع وقفه للنظر، فقد ظل الإيمان الديني أقوى العوامل في توجيه النفوس على الدوام، فهذا الإيمان يُعلِّم الإنسان أن يحتمل كل شيء وأن يقتحم كل شيء، وبالإيمان استقبل الشهداء ضاحكين لهب النار وبالإيمان أقام الفاتحون أعظم الدول.

الفصل الثالث

عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية

لقد سرنا في وصف العروق مع التقسيمات الجغرافية التي أوضحنا أمرها في فصل «البيئات»، فذكرنا صفات شعوب الهندوستان الأساسية فانتهينا إلى شعوب الدَّكَن الواسع الشامل للمنطقة الممتدة من نهر نَرْبَدَا ونهر سون إلى رأس كُماري.

وفي الدَّكَن سندرس قبل كل شيء أمر المراتها الذين نستطيع أن نصلهم وحدهم بالغزاة رأسًا، ثم نبحث في العروق الدراويدية القديمة التي تختلف عن السكان الذين وصفناهم آنفًا، ثم نختم الفصل بدرس أحوال الوحوش المقيمين بالجبال الوسطى، والذين يُعرف أكثرهم بالكول، فدرجة هؤلاء هي الدنيا بين عروق الهند، وهي أقدم ممثلي الجنس البشري في تلك الديار.

(١) المراتها

يشتق اسم المراتها من كلمة مهاراشترا التي تعني «المملكة الكبرى»، فهذا الاسم والعرق الذي يدل عليه قديمان في الهند إلى الغاية، فلا نستطيع أن نُعَيِّن بالضبط حدود مهاراشترا القديمة ولا أصل الشعب الذي كان يسكنها، ففي القرن السابع عشر فقط ظهر المراتها على مسرح التاريخ فمثَّلوا دورًا مهمًّا ففتحوا قسمًا كبيرًا من الهند فأقاموا دولة أهلية.

واليوم يتجمَّع المراتها، وعددهم نحو عشرة ملايين، في شمال الدَّكَن الغربي بين جبال كَهات الغربية وجبال سات بورا، ويقيمون بالمنطقة الجبلية المحتوية على منابع نهر غوداوَري ونهر كرشنا ومجاريهما العليا، ويعتنقون منذ القديم الديانة البرهمية فيُقسَّمون إلى طوائف، وهذه الطوائف دون سَميَّاتها في الشعوب الأخرى مرتبة، ولا يَعُدُّ الهندوس المراتها في مجموعهم إلا من طائفة الشودرا، وفي هذا دليل على أن المراتها أبناء عِرق غُلِب في غابر القرون وأُذِل، ومثالُ المراتها توراني من بعض الوجوه، شأن الشعوب المتوالدة؛ فالمراتها وَسِيطُو القامات صُفْرُ الجلود

بارزُو الوجنات قليلًا صغيرو العيون مرتفعو طرف الأنوف واسعو المناشق، وتتصف نسوتهم بالتِمَاع جلودهن وشعورهن السود الطويلة الكثَّة.

ويؤلّف المراتها جامعة بلديات مستقلة يدير شئون كل واحدة منها رئيس منتخب يُدْعَى بتيل، ويتألف من نواب البلديات مجلسٌ وطني يُسمى بَنْجَايَت، وبلغ المراتها من الارتباط في نظمهم القديمة ما حمل ملكهم لقب بتيل بعد أن أقاموا مملكة وما ظلت السلطة العليا قبضة ذلك المجلس الوطني.

ونذكر بجانب مراتها كهات الغربية أولئك ممالك مراتها الهند الوسطى، فلا يقيم بهذه الممالك أناس من عِرق أولئك في الحقيقة، بل تملكهم، فقط، أُسَرٌ من أولئك لا تزال محافظة على نفوذ قدماء الفاتحين وسلطانهم، ومملكة غواليار هي أهم هذه الممالك الممتدة مئات الكيلو مترات بين نهر جمنة وجبال وِنْدهيَا في راجبوتانا وبُنْدِيل كِهَنْد وكجرات، وينتسب مهاراجة غواليار إلى أُسرة سِندهيا الشهيرة التي استطاعت أن تقيم دولة زاهرة على أنقاض الدولة المغولية، وأن تقاوم الغزو الإنجليزي ببسالة، وأن تحافظ على عرشها حين تَدَاعِي العروش الأخرى في كل ناحية.

وأسرة سِندهيا من أصل وضيع، فهي سليلة راناجي سندهيا الذي كان سنة ١٧٢٥ يقوم في قصر بيشوابونا بحمل الخفاف فعظم أمره بالحيلة والدهاء، ثم أضحى ولداه مادهوجي ودولت راو بَطَلَي استقلال الهند، فقاما بجهود جبَّارة لجمع كلمة أهل البلاد ضد غُزاة الإنجليز.

والأفَّاق شيواجي هو الذي أسس دولة المراتها، وجعل من تلك البلديات الزراعية الصغيرة المجهولةِ الأمْرِ أمةً محاربة مرهوبة في القرن السابع عشر، والأفَّاقُ شيواجي هذا هو الذي ألَّف عصاباتٍ ذوات بأس شديد؛ فسارت هذه العصابات من الدَّكَن، وألقت الرعب حتى في المدن الواقعة على مصب الغَنْج، وهدمت الدولة المغولية، ولا تجد اليوم شبهًا بينها وبين حفدتها خلا راجوات غواليار وإندور المحافظين على بعض ما كان لأجدادهم من نفوذ.

(٢) صفات العروق الدراويدية العامة

يبدو الدراويد، الذين نبحث في أمورهم الآن، نتيجة توالد سكان الهند الفطريين الأصليين والغزاة الصفر الذين أتوا من شمال وادي بَرَهْمَا بوترا الشرقي، ثم من توالد جميع هؤلاء والغزاة التورانيين الذين جاءوا من الشمال الغربي، ويقسم الدراويد، بحسب النسبة التي تغلَّب بها عنصرهم الأساسيُّ، إلى فرعين: الدراويد الأصليين الذين هم نتيجة التوالد الأول، والدراويد المولَّدين الذين هم نتيجة توالد أولئك والتورانيين.

وإذا نظرتَ إلى القطر الهندي الواقع جنوب غوداوري وجدْتَه دراويديَّ الطابع، ولا يزال حفدة الدراويد الأصليين يُرَون في المناطق الجبلية التي التجأ إليها أجدادهم بالتدريج فرارًا من تأثير المغازي الأجنبية.

وعلى ما بين الدراويد الأصليين والدراويد المولدين من تفاوت تُبصر فيهم كلهم صفاتٍ عامةً كاسمرار جلودهم وضعف شعورهم واسودادها ومَلَاستها وضخامة أنوفهم واتساع مناشقهم وسفول قاماتهم وشكل جماجمهم التي هي دون المستطيلة، وتبصر فيهم عباداتٍ فطريةً واعتقادات خرافية وطبقات طائفية، وما إلى هذه الأمور التي عرفوها قبل غزو الآريين لبلاد الهند على ما يُحتمل، ولمَّا قاتلهم الآريون كان عندهم قليل من التمدن كما دلت عليه أقاصيص الرامايَنا، فكانوا على علم بصناعة المعادن والخزف وإنشاء السفن وحبك النُّسُج وفن الكتابة.

ولا علاقة للغاتهم بالسنسكرت، وقد درسها علماء أوروبا قبل اكتشاف السنسكرت، ولتلك اللغات عدة لهجات، وتُقسَّم إلى أربعة فروع أساسية لكل واحد منها نحوٌ خاص وآداب خاصة، وهذه الفروع الأربعة هي: فرع الكنري ويتكلمون به بالغرب في جبال كهات الغربية وكوكن وملبار، وفرع المَلَيَالَم ويتكلمون به في ساحل ملبار على الخصوص، وفرع التيلغو ويتكلمون به بالشرق في وادي غوداوري ووادي كرشنا، وفرع التمول ويتكلمون به بالجنوب في ساحل كورومينديل ورأس كُماري وقسمٍ من جزيرة سيلان.

وتجد بين الدراويد الذين يقطنون في جنوب الهند من وادي غوداوري إلى رأس كماري أناسًا من الهمج مقيمين، على العموم، بالمناطق الوعرة التي دحرتهم المغازي المتتابعة إليها، فهؤلاء هم عنوان السكان الأصليين الخُلَّص أو الذين توالدوا هم والصفر قليلًا.

فإذا طرحت هؤلاء جانبًا رأيت في هضبة الدَّكَن الواقعة في جنوب نهر غوداوري طبقات كثيفة من العِرْق الدراويدي يبلغ عدد أفرادها خمسين مليونًا.

ولا يُقَسَّم أولئك الدراويد إلا من ناحية اللغة مع بُعْدهم من التجانس المطلق، وجميع الدراويد يسايرون تقدم الحضارة منذ زمن طويل ويدينون بدين البراهمة، ويَبْدون من طائفة الشودرا. والهَمَج، على العكس، يَعُدُّهم الهندوس نُفاية البشر ومنبوذي الطوائف وطريدي العدل وأطِلَّة الدم.

والتمول المقيمون بشرق الهند الدراويدية وبوسطها أَمْدَنُ الدراويد، وبين التمول تقوم المدينتان مدراس وبون دي جيري، وفي مدراس تطبع كتب التمول بلا انقطاع، وما في لغة التمول من الكلمات الكثيرة والتراكيب الوافرة يجعلها ذات آداب، ويتكلم بهذه اللغة ١٥٠٠٠٠٠٠ شخص، ويتم لها الغَلَب على الكنرى والتيلغو الدراويديتين، وللتمول كتبٌ وُضِعت منذ ألف سنة.

وأمة التمول ذات نَجْدَة وشهامة وإقدام واستعداد للتقدم، وعليها يتوقف مصير الهند الجنوبية على ما يُحتمل.

ويعيش التيلغو في ساحل كورومينديل سائرين إلى الجنوب، والتيلغو دون التمول مدنية ولهم ما لهؤلاء من العَدَد.

شكل ٣-١: حاجان هندوسيان في جوار مدراس.

والمَلَيالَم، ويتكلمون بإحدى اللهجات الدراويدية الأربع المذكورة آنفًا، يسكنون ساحل ملبار، والهندوس الذين هم فريق منهم هم، على عكس التمول، هاربون من التمدُّن ومتمسكون بعاداتهم القديمة.

وتقع كرناتك أو «الأرض السوداء» في وسط الدَّكَن، وتشتمل على مملكة ميسور وعلى جزء من مملكة نظام، ففي تلك المنطقة يتكلم الناس بلغة الكنري التي هي ثالثة اللغات الدراويدية الأدبية، والوسط هو «البلد الأسود» الحقيقي حيث يتجمَّع التراب الأسود المتفتِّتُ من الحجارة البركانية، بفعل سيول الرياح الموسمية وفيضانات الأنهر، والصالح لزراعة القطن.

ونحن، بعد أن درسنا صفات شعوب الدراويد، نبحث في الجماعات المتفرقة التي هي بقية الأهالي الفطريين الخلَّص كما قلنا.

(٣) سكان كوكن

يُقصد بكلمة كوكن جميع الساحل الممتد من خليج كمبي إلى جنوب غوا حيث يبدأ ساحل ملبار، ويُطلق اسم كوكن أحيانًا على منطقتين: شمالية

وجنوبية، وإلى ذلك البلد المتوجه إلى بحار الغرب وصل منذ زمن طويل تجار وأفَّاقون من أوروبا وآسيا وأفريقيا، فكان ما نرى من اختلاط سكانه، ولا تجد فيه جماعة ذات مثال جثماني خاص يستحق الذكر، وهذا إلى إنك تشاهد في جوانب جبال كهات بعض القبائل الوحشية التي تسكن الغاب فيتصف أفرادها بخفَّةٍ ينمُلُون[123] بها في الشجر كالقردة، فينتفعون بها في استغلال النخل التي هي هنالك مصدر ثروةٍ فيكون لهم بها ما يأكلون وما يلبسون وما يسكنون بما يعصرون منها وما يحتطبون وما يجتنون[124] وما يغزلون وما يخصفون، وإلى أصحاب الأيك[125] أولئك حاول تيبو صاحب أن يُدخل عادةَ لُبْس الثياب ذات يوم، فوزَّع عليهم بُزُوزًا[126] فتأمَّلوها مذعورين من غير أن يروا استعمالها، فخرَّ أحد زعمائهم باكيًا ساجدًا على قدمي ذلك السلطان وهو يقول: «مولاي! دعنا نَقْتَدِ بآبائنا كما تقتدي بآبائك.»

ونساء التير يَسْتُرْنَ ما تحت السُّرَر، ومن السُّبَّةِ عندهن أن يُخفين صدورهن، فلم تستطع حواضن الإنجليز اللائي يتخذنهن مراضع أن يحملنهن على ترك العُرْي كما عجز تيبو صاحب من قبلهن عن إلباس أولئك الهمج من زراع النخيل ثيابًا.

(٤) سكان شواطئ ملبار «الناير، إلخ»

لشعوب الهند المختلفة نظمٌ وعادات نَتَمَثَّل بها ما جاوزته الأمم المتمدنة من المراحل والأطوار قبل أن تصل إلى حالها الحاضرة، فنحن، حين نَجُوب شبه جزيرة الهند، نبصر جميع أدوار الحياة التي مر أجدادنا منها.

123 نَمَلَ يَنْمُل في الشجر نَمْلًا: صَعِدَ.

124 اجتنى الثمر: تناوله من شجرته.

125 الأيك: الشجر الكثير الملتفُّ، الواحدة أيكة.

126 البزوز: جمع بز وهو الثياب.

والناير القاطنون في ساحل ملبار يزاولون بعض تلك النُّظم الفطرية التي عاد الغرب لا يعرفها في غير الكتب، فاليوم يستطيع الباحث أن يبحث عند الناير في نظام الأمومة كما كان في فجر التاريخ.

دلت المباحث الحديثة التي عرضناها في كتابنا «الإنسان والمجتمعات ومصدرهما وتاريخهما» على أن نظام الأمومة أولُ نظام ظهر بعد الدور الذي كانت تُعَدُّ فيه جميع نساء القبيلة وجميع أولادهن ملك جميع رجال القبيلة، فنظام الأمومة ذلك هو أصل الأسرة، وما كانت الأسرة لتنشأ بغيره، ونظام الأسرة ذلك يجعل الأمَّ زعيمة أولادها، ويمنحهم حق وراثة اسمها وأموالها، فحلَّت المصالح الفردية القوية بذلك محل المصالح القبلية الضعيفة.

وفي أوائل القرن السابع عشر من الميلاد زار فرانسوا بيرار ساحل ملبار فوصف الناير بما يقرب من حالهم في أيامنا، فذكر أنهم قوم محاربون مقاديم ذوو عادات تُذَكِّر الإنسان بفرسان الدور الإقطاعي الأوربي في القرون الوسطى لما وجده فيهم من حب الفخر وشدة البأس والحرص على الاستقلال وخلق الكرم وحفظ الكرامة واحترام النساء.

وكان الناير في القرن السادس عشر من الميلاد أناسًا أغنياء أقوياء يملكون مدنًا مهمة، فقال ذلك السائح: «يبدو زامورن «تمولي» في كالي كت من أعظم أمراء الهند وأغناهم، فهو يقدر أن يجهِّز ١٥٠٠٠٠ جندي من الناير، وَيُعَدُّ جميع ملوك الناير المقيمون بذلك الساحل من أتباعه فيطيعونه خلا ملك كوجين.»

والناير من الناحية الجثمانية عِرقٌ ذو مسحة من الجمال، فهم ذوو قامات ناهضة وهيئات مليحة وأطراف لطيفة وجلود سُمْر لامعة.

وتعني كلمة الناير «السادة»، ولا عجب، فالناير تتألف منهم طائفة أريستوقراطية مسيطرة على ساحل الملبار، والناير، وإن خضعوا ذات حين للبراهمة، لم يلبثوا أن رفعوا نير هؤلاء عنهم، ولم يتركوا لهم غير نفوذ روحي، والبراهمة هؤلاء ليسوا من أصل آري، فلم يُعَدُّوا مساوين لبراهمة شمال الهند الآريين، والناير أنفسهم، وإن كانوا يزعمون أنهم من طبقة

الأكشترية، لا يراهم الهندوس إلا من طبقة الشودرا، والناير يتكبرون على الأهلين الذين يحيطون بهم ويتعاظمون على التير الخاضعين لهم مع أن جلود هؤلاء أصفى من جلودهم، والناير يعتلون الموبلا الذين هم عرب مسلمون مخضرمون، والموبلا هؤلاء على جانب عظيم من الشجاعة مع ذلك، فتراهم لا ينفكُّون، في الغالب، عن مقاتَلة سادتهم قتالًا لا هوادة فيه ولا رحمة.

وأكثر الأقوام الذين بلغوا شأوًا في التقدم جاوزوا نظام الأمومة الذي نراه في الناير، فلا تجد هذا النظام عند غير القليل من الأهلين كالكهاسيا القاطنين في ولاية آسام فتكلمنا عنهم في فصل آخر، وكالناير الذين نتكلم عنهم في هذا المطلب.

ولا تجد في القبائل العريقة في الفطرة أثرًا للنكاح، فنسوةُ إحدى هذه القبائل ملك جميع رجالها، فإذا تطورت هذه القبيلة قليلًا أخذت بنظام الأمومة، شأن الناير، فغدت النسوة ملك قليل من الرجال وعُهِد إليهن في إدارة الأسرة.

والزواج عند الناير قائم على مبدأ تعدد الأزواج من الذكور، ومن المحتمل ألا يكون بدء المظاهر التي تسبقه أقدم من الزمن الذي صارت السيادة فيه إلى البراهمة.

أَجَلْ، إن الزواج عند الناير قائم على مبدأ الاقتصار على زوجة واحدة، ولكن أمد هذا الزواج قصير فلا يزيد على بضعة أيام، فالخطيب يجعل في عُنُق الفتاة قلادة على ألا تنزعها منه، ويدوم زواجها به ما قَبِلَت هذه القلادة وحافظت عليها، فإذا مضت أيام سُرِّح مع جائزة فاسحًا في المجال لأزواج آخرين كثيرين.

ولن تصبح الفتاة النايرية ملك القبيلة بأسرها كما هو أمر القبائل العريقة في الفطرة، بل ملك عدد من أفرادها، ولن يزيد عدد أزواج الفتاة عند الناير عن أحد عشر رجلًا، والفتاة النايرية هي التي تختار أزواجها ليعملوا على دوام الأسرة، والفتاة النايرية، وهي تقيم مع إخوتها، تقبل أزواجها الكثيرين بالنَّوْبة على أثر اقترانها بخطيبها الأول، والأزواج هؤلاء

يغرزون خناجرهم في باب الزوجة؛ ليُعلم حضورهم، ولِيُذكر ما لهم من حقوق المتعة ما ظلوا ذوي حُظوة.

ومن الطبيعي ألا يُنسب الأولاد الذين هم نتيجة تلك الاقترانات المؤقتة إلا إلى أمهاتهم، وأن يُسمَّوْا بأسمائهن ما جُهِل آباؤهم على العموم.

فالمرأة النايرية هي ربة الأسرة الحقيقية، وتمارس سلطان هذه الأسرة بمعونة ابنتها البِكْر، ولا يعيش معها من الذكور إلا إخوتها وأولادها، فما يُكِنُّه الأولاد الذين تُنَشِّئهم أمهم وأخوالُهم لأخوالِهم هؤلاء من الحب يَعْدِل الذي يُكِنُّه الأولاد لأبيهم في الأمم الأخرى، والأبناء إذ كانوا لا يتركون أَخَوَاتهم تقريبًا، فإنهم يحملون لهن من الود ما لا يحملون لزوجاتهم ما كان زواجهم بهؤلاء لا يدوم أكثر من أيام.

ويسهل إدراك السر في تمثيل المرأة، التي تربي أولادها على ذلك الوجه فيرِثونها، دورًا أساسيًّا في الأسرة، وفي تلك الأسرة يلي الأولادُ درجةَ الخالِ والإخوةِ الذين يعيشون معها منذ عهد الطفولة، ولا يكون للزوج غير شأن ضعيف ما قام عمله على السكن المؤقت مع الزوجة وصولًا إلى دوام الأسرة، وليس للمرأة من همٍّ سوى اختيار أقوى الرجال وأجملهم لنفسها، وللمرأة حق مطلق في الاقتران بمن يروقونها، على ألا يكونوا من طائفة أدنى من طائفتها حذر العار والفضيحة.

ومما لا مرية فيه أن يكون بين أولئك المُوَلَّدين أناس من البراهمة؛ لما لهم من التقديس وقديم النفوذ، فالبراهمة هؤلاء ينتقلون من بيت إلى بيت حاملين بذورًا من الدم الغالي ما يرتفع به مستوى العِرْق الذي يقترنون به.

وللرجال مثل حرية النساء عند النايرِ، فلنا أن نقول: إن النايرِ يمارسون نظام تعدد الزوجات ونظام تعدد الأزواج معًا، وفقراؤهم، فقط، هم الذين يعملون بنظام تعدد الأزواج من الذكور، فترى كثيرًا من الإخوة أو غيرهم يتفقون على التمتع بالمرأة الواحدة، وذلك إلى أن نظام تعدد الأزواج من الذكور شائع في عدة مناطق من الهند، لا سيما في مناطق أقصى الشمال القريبة من التبت وفي أقصى الجنوب حيث القبائل

القريبة المجاورة لمدورا، وكان للملكة بِكالي كَت، في غابر الأزمان، عشرة أزواج مختارون من البراهمة خلا زوجَها الملك.

ويظهر أن تعدد الأزواج من الذكور ذلك، وهو مما لا يلائم مبادئنا العصرية، عريقٌ في القدم، فقد ورد في كتاب مهابهارتا أن الإخوة الخمسة المعروفين بباندوا تزوَّجوا دروبدي الحسناء «ذات العينين اللتين هما كالسِّدر».

وإذا مات أحد النايِر ورثه أولاد أخته الكبرى، لا أولاده، وينتقل إرث الأمم من بنت إلى بنت، كما كان حال السلطة الملكية في تراون كور، والإخوة يستغلون أملاك الأم من غير أن يتملكوا منها شيئًا.

ويلائم نظام الأمومة عند النايِر مزاجهم النفسي وطرق معايشهم ما حافظوا عليه منذ قرون مع اتصالهم بالمسلمين والنصارى المقيمين بساحل ملبار منذ زمن طويل، ولم يَسْطِع الفتح البرهمي أن يقضي عليه.

(٥) سكان نِل غيري

يسكن طَوْد[127] نِل غيري أقوامٌ متوحشون مختلف بعضهم عن بعض بسحناتهم، ونتوصل بالبحث في طبائعهم وعاداتهم إلى تمثُّل الحال في القرون الخالية، ويقسَّم هؤلاء الأقوام إلى خمس قبائل مختلفة: التودا والبداغا والكوتا والكورومبا والإيرولا.

ويسكن التودا قمَّة الطَّود، وهم أسنى من جميع أولئك، وهم معدودون من الرعاة ويتكلمون بلغة كَنَرِيَّة، ويُفترض أن يكونوا قد جاءوا من كنرا منذ ثمانية قرون، ولا يزيد عددهم على ألف.

والبداغا هم مهاجرون أتوا من ميسور حوالي القرن السادس عشر، ولا يختلفون عن سكان السهل إلا بأنهم دون هؤلاء حضارةً، وهم أكثر سكان ذلك الطَّود عددًا فيبلغ عددهم نحو ٢٥٠٠٠، وهم قوم زراع، ويتكلمون مثل أولئك بالكَنَرِيَّة.

127 الطود: الجبل العظيم، الهضبة.

وتجد تحت ذَيْنِكَ القبيلين المعروفَي الأصل الكوتا والكورومبا والإيرولا الذين لا يزيد عددهم على ٣٠٠٠، فهؤلاء هم، لا ريب، من بقايا الأهالي الأصليين، وإلى أجدادهم يُعزَى صُنْع الأنصاب المشابهة لأنصابنا القديمة، ويتكلمون بلهجات دراويدية قريبة من لهجات سكان السهل المتصلين بهم، والكوتا عنوان العنصر الصناعي في الطَّوْد، ويُمثل الإيرولا الذين يقيمون بالغاب في أسفل الطود أدنى مُثُل النوع البشري.

والآن نبحث في سحنات هؤلاء الأقوام الذين أشرنا إلى أصولهم وفي طبائعهم وعاداتهم.

شكل ٣-٢: تودي «نل غيري»، «استعيرت هذه الصورة والصورتان التاليتان من مجموعة بريكس.»

التودا

التودا هم، كما ذكرنا، أسنى سكان نل غيري، وهم يتصفون بطول قاماتهم وكثافة شعورهم السود وكثاثة لحاهم الجعدة وغِلَظ شفاههم، واستقامة أنوفهم على العموم، وقَنَاها في الغالب، ورشاقة خُطاهم، ولا نستطيع أن نلصقهم بالهمج لِدَعَتِهم وطلاقة وجوههم ومرحهم ولطفهم وسلامة سرائرهم وعاداتهم السلمية وحسن الذوق في ملابسهم وصفاء سحناتهم، ونَعُدُّهم عنوان الهمجي المثالي، وإن شئت فقل عنوان إنسان الطبيعة الذي راق وصفُه روسو ومن على مذهبه في القرن الثامن عشر.

وتجيء كلمة تودا بمعنى الرعاة، ولا يُعنَى التودا بغير رعاية مواشيهم، وما في نِل غيري من المراعي الصالحة يُقِيت أطيب القطاع، والألبان أهم ما يتغذى به التودا، وبلغ احترام التودا للأنعام درجة العبادة، والبقرة عند التودا هي الحيوان المقدس كما هو أمر البداغا، والزريبة هي كنيسة التودا، ويُدعى كاهنهم بالبلال أو اللبان الأكبر، ويرى التودا أن حِلاب البقر وصُنع الزبد والجبن من أقدس الأعمال الدالة على جلال خُلق من يتعاطاها، ويعتقد التودا أن الإلاهة العليا هي بقرة مشهورة النَّسب، والحبر الأعظم لدى التودا هو أقدم الرعاة في فن تربية الحيوانات والعناية بها.

والبقرة، وهي حيوان التودا المقدس، تشترك في جميع طقوسهم وترأس جميع حوادثهم المهمة، فإذا وُلِد تودي جُعِل في حِرز القطاع، وإذا مات تودِيٌّ عُرض أمام جثته بقرُ عشيرته وذُبحت اثنتان منها لتتبعاه في ملكوت الأرواح، ويَحمِل عجلٌ اسمه بَسَاوَا خطايا التودا في بعض أيام السنة فيُطرد بالعِصيّ إلى الغاب فيكون لهؤلاء القوم بذلك تزكيةٌ وتطهير، وفي هذه العادة من المشابهة لأمر تيْس العبريين ما لا يخفى على المتأمل.

ويعبد التودا أرواح الأموات، خلا عبادتهم للبقر، شأن الشعوب الفطرية، فإذا قُعِص[128] أحدهم خُيِّل إليهم أن روحه تعود عطشى للانتقام حائمة حول ما قُتل به من السلاح فيكون هذا السلاح المضرَّج محل احترام لديهم فيحفظونه بين ذخائرهم ومَمَاخِضِهم وآنية زُبَدهم وقوالب جُبنهم.

ومن خرافات أهل نِل غيري الطريفة أن يروا بين الكورومبا، أصحابِ الأدغال الغلاظ المتعودين الأبخرة الوبيئة والهالكين في الأمكنة العَذِيَّة،[129] سحرةً ذوي قوة لا حدَّ لها، فإذا أصابت مصيبة أسرة تودية أو إذا اجتاح وباء سوائم بداغا استدعوا، على عَجَل، كورومباويًّا وابتهلوا

128 قعصه: قتله مكانه، أجهز عليه.

129 عذا المكان يعذو عذوًا: طاب، كان بعيدًا من الماء والوخم.

إليه أن يَقِف الشرَّ الذي أحدثه، فلبَّى ضراعتَهم وأخذ يُكْثِر من الحركات والالتواء، ثم ارتمى على الأرض زاعقًا صارخًا.

ويحترم التودا الشجر، أيضًا، احترامًا دينيًّا، وبيان الأمر أن نكاحهم، وهو فطري، لا يكون شرعيًّا إلا إذا بلغ حَمْلُ الفتاة، من غير عائق، الشهر السابع للمرة الأولى، فيذهب الزوجان، إذ ذاك، إلى الغابة كي يقضيا ليلةً تحت شجرة جميلة من أشجارها جاعلين إياها حامية للطفل القادم، فإذا وُلد هذا الطفل أخذ أبوه وَرَقًا منها وثَنَاه على شكل قَدَح وصبَّ فيه ماء قليلًا ثم بُلِّلت شِفاه الأبوين والطفل به فتمَّ بهذا تأليفُ الأسرة حقًّا.

وتَسْبِق بعض المظاهر النكاح مع ذلك، فعندما يختار الفتى فتاةً من عشيرته يؤدي إلى حَمِيهِ القادم نقودًا، فيضع حموه هذا رِجْلَه على رأسه ويعدُّه ابنًا له، ثم يُؤتى بالخطيبة إلى بيتها الجديد لابسة ثيابًا فاخرة على صوت الأغاني، فتسجد أمام زوجها فيضع هو والأقارب أرجلهم على رأسها، ثم تُرسَل لتبحث عن جَرَّةِ ماء فإذا فعلت هذا الأمر اليسير قامت بشئون المنزل خادمةً.

والنكاح الذي يقع على ذلك الوجه يدخل دور التجربة، ولا يُعترف به إلا في الشهر السابع من الحَبَل الأول حين تَمِيس[130] الفتاة في وليمة فاخرة عارضةً أمام الجميع تَغَيُّر قدِّها فيربط زوجها بعنقها شريطًا يُدعى بتالي الناير.

130 ماس يميس مَيْسًا: مشى وهو يتمايل ويتبختر.

شكل ٣-٣: كوتاوي «نل غيري».

والتودا من القائلين بتعدد الزوجات وتعدد الأزواج معًا، وذلك بأن يتزوج رهط من الإخوة رهطًا من الأخوات، فيكون لكل زوجة أزواج إخوة ويكون لكل زوج زوجات أخوات، فالفتى يكون بذلك قد تزوج مع زوجته أخوات زوجته كلما بَلَغن مكتفيًا بما تعهَّدَ بدفعه إلى كُبراهن من المال، ويكون لإخوته حق مشاركته في زوجاته الأخوات على أن يدفعوا نصيبًا مما اتفق على تأديته.

والانتحار بسبب الحب ليس من النادر، على ما يظهر، عند أولئك الأقوام الفطريين، ولا سيما عند البداغا، مع ما في نكاحهم وطلاقهم من يُسْرٍ، أقول هذا وأنا أرى ضرورة وضعه على مَحَكِّ النقد.

والأولاد يوزَّعون بحسب العمر على أزواج أمهم، فأكبرهم يكون من نصيب الزوج الرسمي، ويكون الولد الثاني من نصيب عمه الأكبر، ويكون الولد الثالث من نصيب عمه الثاني، وهكذا.

وتنزع هذه العادات الفطرية إلى الأفول عند التودا، فالغني منهم يشتري لنفسه زوجة، فأضحى أمر تعدد الأزواج من الذكور مقصورًا على طبقاتهم الدنيا.

والأولاد عند وفاة والدهم يقتسمون تركته بالتساوي مع احتفاظ أصغرهم ببيت أبيه على أن يسكن فيه نساء الأسرة ويعولَهُنَّ.

شكل ٣-٤: رهط من الإيرولا «نل غيري».[131]

ولا يعرف التودا من مبدأ التملك غير ما يحتفظ به المرء لنفسه من بيت ومتاع، فالأراضي عندهم مُشاعة، وهم لا يزرعونها، بل تكون مراعي لمواشيهم ما أعرض التوديُّ عن الفلاحة.

ولا يَعرِف التودا من أمور الصيد شيئًا، ولا يحملون سلاحًا لذلك، ولا يفكرون في الهجوم ولا في الدفاع، ويكتفون بصنع أبواب أكواخهم واطئة جدًّا درءًا لما قد يُعرَّضون له من الغزو.

والتودا، كالبداغا، يسكنون القرى، مع أن الكوتا والكورومبا يقيمون بخِصَاص[132] حقيرة، ويقطن الإيرولا في الكُنُس[133] والأحجار[134] وتحت الأشجار كالأيائل والظباء.

البداغا

لا تجد في البداغا ما تجده في التودا من حسن المنظر والأخلاق والكياسة والنُّبْل، فالبداغا أقصر قامةً من التودا وأشد سوادَ جلودٍ منهم، والبداغا

131 ذكر «رهط من الإيرولا» سهوة مع أن الصحيح هو «اثنان من الإيرولا» فوجب التنبيه على ذلك.

132 الخِصَاص: جمع الخُصِّ وهو البيت من قصب أو ما إليه.

133 الكنس: جمع الكناس وهو بيت الظبي.

134 الأجحار: جمع الجحر وهو المكان الذي تحتفره السباع والهوام لأنفسها.

ذوو شعور قليلة ولحى مَعِرَة[135] وأنوف مفلطحة[136] وشفاهٍ غليظة، ويتصف البداغا بالمراوغة والقسوة والشُّحّ وتعاطي الأفيون، ويبدون أكثر الشعوب الخمسة التي تسكن نِل غيري عددًا، ويقومون بزراعة تلك المنطقة الغنية من غير أن يمنعهم ذلك من أن يكونوا رُعاة، وللبداغا عقائد مشابهة لعقائد التودا، ويرتبطون في مجموع عباداتهم في دين البراهمة مع ذلك، ويُقدِّس البداغا لِنغَا، ويعبدون شِيوا في صورة ثور، وفي نكاح البداغا ما في نكاح التودا من يُسْرِ العقد، وفيه ما في نكاح هؤلاء من التعقيد في عدد الزوجات والأزواج، ويتماثل ذانِكَ الشَّعْبَان في الطقوس تقريبًا، ويختلفان، مع ذلك، فيما يُدخلان إليها، في الغالب، من مظاهر السرور والألم، ويَشُوب تهانئهما شهيق وزفير، ويتخلل رقصهما نياحةٌ ونَحِيب، ويقومون بجنائزهم مع سُكْرٍ وعربدة.

الكورومبا والكوتا والإيرولا

تختلف هذه القبائل الثلاث عن القبائل المذكورة آنفًا من الناحية الإثنولوجية، ونتمثل بها قدماء السكان الأصليين، وتتصف بالضعف وبسواد الجلود وازْبِئْرار[137] اللحى وخشونتها وصَوَف الشعور وبَرْمِها وغِلَظ الشِّفاه واستواء الصدور وطول الذُّرعان وقِصَر السيقان، ووَجَد بعض السياح شبهًا عظيمًا بين هذه القبائل وسكان أستراليا الأصليين.

ويسكن الكورومبا أكواخًا كبيرة في سفح الطَّوْد، حيث يجتمع عدة أُسَر، ويخاف البداغا والتودا من الكورومبا المساكين ويزدرونهم في وقت واحد، وقد يُغمَى على نسوة البداغا والتودا ذُعرًا عندما يباغتهن أناس من الكورومبا، ويُعَدُّ الكورومبا من السَّحَرَة؛ لما في جيرانهم من السذاجة وسرعة التصديق، فيُوسَعون ضربًا أكثر من أن ينالوا نَشَبًا.[138]

135 المعر: القليل الشعر.

136 فلطح الشيء: بسطه وعرضه.

137 ازبأرَّ: انتفش.

138 النَّشَب: المال.

ويزاول الكورومبا مهنًا كثيرةً قليلة الإنتاج كالعرافة والسحر والغناء مع الطواف، ويمدح أهل السهل الكورومبا أُجراء، ويعرف الكورومبا شيئًا من الفلاحة، ويثيرون الأرض بعِصِيٍّ مُذَرَّبة.[139]

وليس الكوتا بأرقى من الكورومبا كثيرًا، ويعيشون مثلهم عيش بؤس، ويعرفون عدة مهن، وتتألف منهم طبقة العمال بين أهالي الجبل، ولا يغتني الكوتا بسبب اتِّضاع حرفهم، ويتضوَّرون جوعًا على الدوام، فلا يشبعون إلا في رأس كل سنة، فيخلطون ما استطاعوا جمعه من القوت فيلتهمون في ثمانٍ وأربعين ساعة ما تحتمله معدهم منه.

ويجيء الإيرولا في أدنى تلك الدرجات، ويعيشون في آجام نِل غيري، ويتصفون بجلودهم السود وأذرعهم الطويلة وسوقهم النحيلة وشعورهم الخشنة المنتفشة وظهورهم الحدبة، ويتنفسون من هواء منطقة تَرَائِي الوخيم النَّجِس الذي مَرَنوه[140] فأصبح ضروريًّا طيبًا لديهم، فإذا ما غادروا ملاجئهم العفنة حينًا وتنشقوا نِسَام[141] التلال والسهول الصافية وَهَنُوا وماتوا.

والمتوحشون المحيطون بالإيرولا يزدرونهم زاعمين أنهم يعيشون مع الأنمار، وأن أولادهم يَشِبُّون في حَيْصَ بَيْصَ بين صغار السباع.

وللإيرولا فضيلة واحدة، وهي سلامة الطَّوِيَّة، فمن المحتمل أنهم لم يبلغوا من الذكاء ما يقدرون به على الكذب، فما يقولونه من كلام مجردٍ أصدقُ مما يقوله البراهمة مع اليمين المؤكدة.

---

139 مذربة: ذات حدٍّ.

140 مَرَنَ الشيءَ: اعتاده وداومه.

141 نسام: جمع نسيم.

شكل ٣-٥: أمثلة من أهل الكجرات.

وصناعة الخيزران هي كل ما يعرفه الإيرولا من المهن، ويتألف غذاؤهم، على الخصوص، من الجذور والفواكه والحبوب البرية.

(٦) سكان جنوب الهند الوحوش

تشتمل جبال أنامالا القائمة في جنوب جبال نِل غيري على قبائل وحشية مماثلة لتلك مع استثناء التودا كما ذكرنا آنفًا.

والكادر هم سكان جبال أنامالا الذين يمارسون الصيد، ويزعم الكادر أنهم أمراء الجبال، ويرون من السُّبَّة أن يزرعوا الأراضي، وتُرِك أمر الزراعة إلى الملسار، ويقوم الباليار بالرعي والتجارة، ويُرخي الباليار هؤلاء شعورهم الكثيفة النافرة فتصل إلى كُلَاهم فيكتسبون بذلك منظرًا وحشيًّا، ويرى علماء وصف الإنسان إلصاق هذه العروق بزنوج جزائر الملايو.

ولا تزال توجد جماعاتٌ وحشية من سلالة قدماء الدراويد في جنوب الهند، فهي تشابه الشعوب التي وصفناها فيما تقدم بمنظرها وعاداتها وأعمالها وديانتها الوثنية وعبادة الأرواح، وإليك قولًا موجزًا عن هذه الجماعات:

الجُنار: ويقيمون بأقصى جنوب الهند وبجنوب تراون كور ورأس كماري، ويبلغ عددهم ٥٠٠٠٠٠، ويَدِين من هؤلاء مائة ألف فقط بالنصرانية،

ويَعْبُد الباقون أرواحَ الأموات، ويرى الناظر إلى مداخل قُرَاهم أهرامًا صغيرة يضعون عليها نذورًا من فواكه وحبوب وأزهار؛ لتجلب إليهم حماية الملائكة، ويتعاطى الجنار زراعة النخيل وحدها، وتقوم النخيل بجميع احتياجاتهم على ما في استغلالها من عُسْر ونَصَب، ويتكلم الجنار بلغة التمول كجيرانهم الإيلاوا الذين لا يختلفون عنهم في شيء.

الكانيكهار: ويسكنون أعالي جبال أليغري التي تمط إلى الجنوب طود أنَّامَلا، ويُنشِئون مساكنهم الخفيفة بين أغصان الأشجار حفظًا لهم من الضواري، ويجهلون نظام التملُّك، وأموالهم مُشَاعة، وقد انتقلوا، مع ذلك، من نظام تعدد الأزواج من الذكور إلى نظام الاقتصار على زوجة واحدة الذي لا تجده عند همج الهند إلا قليلًا.

النياديش: ويسكن بعضهم حول كالي كت، ويقيم بعضهم الآخر بجوار بحيرة بولي كت، ويَبْدون أشد وحوش جنوب الهند بؤسًا، ولم يزالوا، إلى وقت قريب جدًّا، يوقدون النار بدَلْك غصنين يابسين أحدهما بالآخر.

الكولر: ويسكنون مناطق كوئم بتور ومَدُورا الجبلية، ولم يقلعوا عن العادات المضرَّجة إلا منذ زمن قصير، فكان الواحد منهم، إذا أراد أن يجلب النحس والتعس إلى عدوِّه يذهب بأحد أولاده ليذبحه على عتبته.

(٧) سكان الولايات الوسطى أوغوندوانا

فرغنا من وصفنا المختصر لعروق جنوب الهند، فنرى أن نصعد في شمال الدَّكَن وننظر إلى جبال غوندوانا الواقعة في وسط الهند والتي لم تُرْتَدْ حتى اليوم، فتشتمل على حفدة قدماء السكان حافظة لهم من مغازي الأجنبي بهضابها المنيعة وفجاجها العميقة.

ويُقصد بغوندوانا المنطقة الجبلية التي هي أعلى مناطق الهند، وتفصل غوندوانا منطقة الهند الغَنْجية أو الهندوستان عن الهند الجنوبية أي الدَّكَن، وتبدو غوندوانا ممسكة، بجوها وحيوانها ونباتها، ذَيْنِكَ القطرين المعترضة بينهما، وعند سفوح غوندوانا وقفت المغازي المتوالية فلم

تستطع اجتيابها بغير الدَّوْر حولها، ومن شِعاف[142] غوندوانا تتصبَّب إلى جميع الجهات: إلى الغَنْج وإلى خليج البنغال وإلى بحر عمان، أنهارٌ وروافد تخلط منابعها في أعاليها الحافلة بالأسرار.

ولا تنطبق كلمة «المنيعة» تلك على الأمر الواقع منذ عشرين سنة، ولكن مدة قصيرة كهذه وما تمَّ في أثنائها من المعجزات بفعل مبتكرات العلم الحديث ليس مما يحسب عندما نبحث في عروق الهند وفي الحال التي انتهت إليها تبعًا لسُنَّة النشوء وتأثير مختلف البيئات.

حقًّا أن عادة القرابين البشرية، مثلًا، غابت من غير ناحية بأمر الإنجليز، وحقًّا أن احتياجات الشُّرَطي الإنجليزي أحلَّت نسائج مانجستر القطنية محل الأضغاث[143] التي ظلَّت لباس فريق من الأهالي منذ قرون، وحقًّا أن الخط الحديدي الذي يصل بَمْبِي بكلكتة يسير موازيًا لنهر نَرْبَدا الذي يَحُدُّ الولايات الوسطى في الشمال، وحقًّا أن خطًّا حديديًّا آخر يمر من ناغبور ويقطع منطقة الغوند، وحقًّا أن من المحتمل ألا يبقى بعد نصف قرن شيء من الطبائع والعادات والمعتقدات التي دامت في وسط الهند ألوف السنين، بَيْدَ أن ساعة زوال هذه الأمور، التي دنا وقت إبطالها، لم تدقَّ بعدُ، فيمكن، والحالة هذه، درس أحوال أهل غوندوانا الفطرية كما هي اليوم في البقاع الكثيرة الغاب الوبيلة، ما دام أهل السهول والهضاب يتهندون بسرعة.

ويبلغ الغوند، الذين اشتق اسم غوندوانا من اسمهم، عدة ملايين، غير أنه لم يبقَ منهم سوى مليون ونصف مليون في طور الوحشية المطلقة.

ولا تجد في منطقة غوندوانا التي غزتها الحضارة أثرًا للهمجية في غير قسمها الجنوبي الشرقي المتَّجه إلى منابع رافِدَي غوداوري: برنهيتا وإندرَاوتي، وفي غير قسمها المتجه إلى الشمال الشرقي حيث جبال أمَركَن تلك والجبال التي بجانب مجرى نهر نَرْبَدَا الأعلى.

142 الشعاف: جمع الشعفة وهي رأس الجبل.

143 أضغاث: جمع ضغث وهو قبضة من قضبان صغار أو حشيش بعضه في بعض

تسمع عن تلك الأصقاع التي لم تُرَدْ[144] حتى الآن ما نجده في كتب الآريين من الأساطير حول جبال الهند الوسطى، فيصفها هندوس السهول بأنها غاباتٌ مملوءة بالدَّوْح[145] المُظِلَّة لأبخرة وبيئة قاتلة، وبأنه يسكنها حيواناتٌ مفترسة ذوات قاماتٍ عظيمة وقرودٌ كريهة محاكية للإنسان، فبمثل هذا تَصَوَّر قدماء غزاة الهند الهضاب الواسعة التي دحروا إليها سكان البلاد الأصليين المغلوبين من غير أن يجرءوا على دخولها.

والمراتها هم أول من اقتحموا غوندوانا، وكان ذلك في القرن الثامن عشر، فبسطوا سلطانهم غير الفعَّال عليها، وفي زماننا أسفرت جهود الإنجليز عن فتح أبوابها، وعن تعقُّب الهمجية الفطرية في ملاجئها المخيفة.

ويُرَدُّ الآدميون، الذين التجئوا إلى غوندوانا والذين يُدحرون إليها بين حين وآخر، إلى ثلاث جماعات أساسية: البهيل والكول والغوند، وهؤلاء الغوند هم الأكثر عددًا والأقدم إقامة، فأطلقوا اسمهم على ذلك القطر.

والبهيل: وهم من الدراويد، قد درسنا أمرهم في فصل آخر، ولا يسكن غوندوانا غير ٢٠٠٠٠ شخص منهم مع ذلك، ومقر البهيل الدراويد الحقيقي هو في الشمال والغرب مع ذلك.

والكول: وقد عادوا لا يكونون من الدراويد، لا يسكن غوندوانا منهم غير ٤٠٠٠٠ تقريبًا، وينتشرون، على الخصوص، في جهوتاناغبور وفي ساحل أوريسة وفي البنغال حيث لاقيناهم، ومن قبائلهم القاطنة في غوندوانا الكوركو المقيمون بأودية مهاديو والكوند الذين لا يجوز خلطهم بالغوند.

ونحن، إذ نُخَصِّص مطلبًا آخر للبحث في أمر الكول المقيمين بجهوتاناغبور وفي أمر سكانها الآخرين، ندرس الآن حال الغوند الذين هم أساس سكان غوندوانا، والذين هم أهم سكان الهند الأصليين أوصافًا وعددًا.

144 راد الأرض يَرُودُها رَوْدًا ورِيادًا: تفقَّد ما فيها من المراعي والمياه؛ ليرى هل تصلح للنزول فيها.

145 الدوح: جمع الدوحة وهي الشجرة العظيمة المتسعة.

إذا لم يكن الغوند عرقًا أصليًّا من عروق الهند فإنهم يُصَفُّون، على الأقل، بين قدماء الدراويد الذين هم أقرب الناس إلى المثال الزِّنجي الفطري، وللغوند أدنى درجةٍ في سُلَّم العروق لشَنَعِهم وقِصَرهم وسوادهم، وللغوند، مع ذلك، أعضاء عَضِلَةٌ قوية، والغوند يختلفون بهذا عن بعض وحوش نِل غيري ذوي المظهر الناقص الضعيف وعن الهندوسي ذي المنظر القضيف،[146] ووجوه الغوند مستوية، وأنوفهم قصيرة، وشفاههم غليظة، وعيونهم صغيرة أفقية، وشعورهم سود خَشِنَة لامعة مُسَدَّلة خُصَلًا وضفائر على جوانب وجوههم، وتتألف ثيابهم من رُبُط يجعلونها حول كُلَاهم ومن رُبُط أخرى يجعلونها حول رءوسهم، وتتألف ثياب نسائهم من نُسُج ساترة لأوراكهن صاعدةٍ إلى عواتقهن شاملة لأنصافهن الفوقانية، ولا يزال يُرى أناس من زُمَر غوندية متفرقة يقتصرون على نُطُق من ورق الشجر كما في غابر الأزمان، وفي الغالب تَهُبُّ ريح الشمال الشرقي على تلك الهضاب بشدة فلا تكفي ثياب الغوند لردِّ عادية هواء المساء والصباح فيوقدون نيرانًا عظيمة ليتدفئوا حولها، ومما يستحي الغوند منه أن يضيفوا شيئًا إلى تلك الثياب التقليدية، فالغوند على النقيض منا في النظر إلى عوامل الأدب والحشمة.

وأسلحة الغوند بسيطة جدًّا، ولا يعرف الكثيرون منهم القوس ولا السهم، وبالفئوس التي يحملونها على الدوام يُصْمُون[147] الصيد، ويصرعون العدو، ويقطعون النبات المُعرِّش الذي يعوق سيرهم في الغاب، ويجندلون ما يطاردونه من الأنْمُر في عرائنها.

وإذا كان الغوند يزدرون التسربل والتسلح فإنهم يزيّنون أجسامهم ووجوههم بالحلي الثقيلة وبضروب الوشم الفنِّيِّ، وتحب نساؤهم الأساور والخرصان[148] المصنوعة من الحديد فيُثقلن بها ذرعانهن وسِيقانهن،

146 قَضُف الرجل يَقْضُفُ: نَحُفَ ودَقَّ.

147 أصمى الصيد: رماه فقتله مكانه وهو يراه.

148 الخرصان: جمع الخرص وهو حلقة الذهب أو الفضة وغيرهما.

ويزوّقن خدودهن وأفخاذهن بنقوش وتصاوير، وهن دون رجالهن قُبحَ منظرٍ ويَكُنَّ على قليل من الملاحة في بعض الأحيان.

ويَعرف الغوند فَلْحَ الأرض، ولكن بغير إتقان، شأنهم في كل صناعة، فإذا ما اختار الغوند أرضًا صالحة قطعوا أشجارها الساترة لها، وأشجار الغاب «السال والمهووا والبانيان» في منطقة الغوند تطغى وتنتشر في كل مكان بالقوة التي تنمو بها أشجار البلاد الحارة، ثم حَرَقوها في محالِّها ثم بذروا الحبوب فيها، وفي الغالب يضع الغوند الحبوب أكداسًا أكداسًا في مكان مرتفع من الحقل تاركين للريح والمطر أمر نثرها عليه، ثم يقيم الغوند بعُرُش منتظرين وقت الحصاد.

والغوند يستغلون الأرض مرتين أو ثلاث مرات، فإذا فقدت خصبها بحثوا عن أرضٍ أخرى ليُحْيوها ويزرعوها ناقلين إليها مساكنهم مبدِّلين أماكن إقامتهم مرةً في كل سنتين أو ثلاث سنين.

ولو اقتصرت معايش الغوند على ما تنتجه أراضيهم؛ لوقعوا في بؤس شديد ما دامت آلاتهم الزراعية ناقصةً وفنون فِلاحتهم ضعيفةً، ولكن منطقتهم الغنية تمُنُّ عليهم من مصادر العيش الشيء الوافر، فما أكثر ما أُنقِذوا من المجاعة بفضل ما عندهم من أثمار أشجار المَنْغَة والسال والبانيان والعناب وأزهار المَهُووَا، ومن هذه الأزهار النافعة يَستخرج الغوند عصيرًا متخمرًا يسكرون منه في الأعياد فضلًا عن استفادتهم من موادها الغذائية، ويغتذي الغوند أيضًا بما في غابهم من الطرائد التي تُفرِّخ بكثرةٍ وبالأسماك التي توجد في مجاريهم بوفرة.

والغوند ليسوا بمحاربين مع أنهم غيرُ جُبَناء، والغوند، على ما ليس فيهم ما في البهيل من غرائز الشر والاعتداء والتخريب، هم، مثل هؤلاء، لصوص، ومن أتيح لهم من الغوند أن يعيشوا في السهل حيث الحضارة لم يروا من غير الطبيعي أن يسرقوا ما يقع تحت أيديهم من أموال الهندوس أو الإنجليز النازلين بين ظَهْرَانيهم، ويمقت الغوند الكذب مع ذلك، ويمتازون بهذا الخُلق، كما يمتاز جميع وحوش الهند، من الهندوس الذين أضحى زُورُهم مَضْرِب الأمثال.

والغوند في منازلهم محبون للقِرَى ذوو دَعَةٍ، والغوند ليسوا قساة ما لم تُثَرْ حميَّتهم الدينية أو ما لم يُهيَّجوا بعد أن يسكروا، فهم ينقضُّون إذ ذاك على قربانهم ليُمَزِّقوه بأسنانهم وأظافرهم إرْبًا إرْبًا، وقلما يكون مثل هذا القربان من البشر في أيامنا الحاضرة، ومن المحتمل أن يبقى أثرٌ للقرابين البشرية في بلاد الغوند ما تفلَّتت آجامٌ منيعة وهضاب وعرة وأودية وبيئة من رقابة الشرطي الإنجليزي، ولا تغيب الطقوس المضرجة إلا حيث يتصل الغوند بالأوربيين.

وفي الزمن الحالي استبدلت مَجَاديرُ[149] الصفصاف أو دُمَى التراب أو الأزهار أو الأثمار بالعجول أو المَعز أو الفراريج كقرابين إلى الآلهة، وعادت المذابح القائمة في إطار من حجر في أسفل الأشجار المقدسة لا تُحَمَّر بغير طلاء رمزًا إلى ما كان يُراق فيها من الدم.

وإلى العفاريت والأرواح الشريرة، على الخصوص، يُقدِّم الغوند النذور الرمزية أو القرابين، فالإيمان بالأرواح الشريرة أمرٌ عام بين سكان بلاد الهند الأصليين، ومما يعتقده هؤلاء السكان أن الجن يطوفون في الليل حول القرى بقصد الإضرار، فيجب أن يجدوا في المذبح ماءً ليطفئوا غليلهم، وفواكهَ ليقتلوا جوعهم، ودمًا ليشفوا حُرْقَتهم أو لونًا أحمر مشئومًا ليتم به خداعهم، وأوتادًا مغروزة في الأرض ليضعوا عليها أقدامهم الخفية ما حُظِر عليهم مسُّ الأرض وما طافوا مغاضبين بغير ذلك.

والأرواح التي تخافها شعوب الهند الفطرية فتعبدها هي أرواح الموتى، ولا سيما التي نُزعت من الأجسام بخاتمة فاجعة، فإذا مات واحد منها قعصًا،[150] ولو طوعًا، افتُرِض أن روحه التي نُكِّل بها تعود لتطوف في الأماكن التي خرجت فيها، وعُزِيَ إليها من فعل الشر ما يجب دفعه

149 المجادير: جمع المجدار وهو ما يُنصب في الزرع لطرد الطير والوحش.

150 قعصه يقعصه قعصًا: قتله مكانه، أجهز عليه.

بالتعزيم[151] وتقريب القرابين، وأرواح النسوة اللائي يُتوفَّين في النِّفاس أصعبُ الأرواح مِراسًا.[152]

وإذا مات غريب بين الغوند أقاموا له عبادةً خاصة كما يقيمون للقريب، ومن هذا أن قائد المائة بول مات مُثْخَنًا بالجراح في قتال قام به لِيَصِل إلى مدراس بِجَوْب غوندانا، فهال ذلك السكان الذين خرَّ بينهم قتيلًا لاعتقادهم أن روحه الغاضبة الساخطة ستختلف إلى منازلهم، فأقاموا له هياكل وقدَّموا ما يستميلونه به من الأدعية والقرابين.

وليست أرواح الموتى وحدها هي ما يعبده الغوند، فكل شيء إله عندهم، فقُوَى الطبيعة وآفاتها، مثلًا، مما يعبدونه، فهم يرون أن على رأس كل آفة عفريت لا بد من إجادة عبادته إذا أُريد درءُ ما يحمله من الشرور، وهم يرون تقديس الْهَيْضَة[153] والجدري وحمَّى الآجام والضَّرَع إليها بغية دفع عواديها.

والإله الذي يحتل، مع الشمس النافعة أو الضارة والأرض الخصيبة أو الجديبة، أسمى مقام بين آلهة الهند الوسطى هو الإله القادر على كل شيء الذي تصفرُّ الوجوه حين يُذكر، وتَجِفُ[154] القلوب حين يزمجر، أكَّال البشر، الإله النمر.

والنمر عندما يتذوق لحم الإنسان فيروقه فيُلقِي الرعب في إحدى البقاع، تُنصب له الهياكل، ثم يختلط العفريت الذي يُغريه ويحرضه بأرواح ضحاياه فتشتد عزيمته بعددها فيكون لها من الحماسة مثل ما له ما أضيف غضبها إلى غضبه، فيصبح أمر تسكينها ضربة لازِبٍ، فيُجْلب في الغالب كاهنٌ ذو شهرة من قبيلة البايغاس على العموم، فيقرأ هذا الكاهن العزائم داعيًا إليه تلك الأرواح المتقمصة للنمر والدافعة له على

151 عزَّم يُعزِّم تعزيمًا: قرأ العزائم.

152 المراس: الشدة والقوة.

153 الْهَيْضَة: انطلاق البطن، وهو المعروف بالكوليرا.

154 وَجَفَ القلب يَجِفُ وَجْفًا: خفق.

الصولة والشره فيصيب الكاهن نوعٌ من الذهول والوَلَه بفعل الرقية والدروشة، فيُخيل إليه أن ضراوة النمر قد انتقلت إليه، فينقضُّ على جَدْيٍ حيّ يُقدَّم إليه فيخنقه بأسنانه ويمزق لحمه ويدس رأسه في جوفه الداخن، ثم يرفعه فيرى القوم وجهه المضرَّج بالدم فيرفعون أصواتهم مستبشرين مسرورين.

وتؤلّه شعوب الهند الفطرية، ولا سيما الغوند، الأفاعيَ «القبرا على الخصوص» مثلما تؤله تلك الآفات، فيَدَعها كثير من أبناء هذه الشعوب التُّعساء تلدغهم من غير أن يقتلوها، وعبادة الدراويد للأفاعي أسفرت عن تسمية الآريين لهم بالناغا.

وفي الهند، حيث يقوم بعض الأديان بجانب بعض من غير اصطراع، وحيث يقتبس بعضها من بعض عقائد ورموزًا وطقوسًا، لا يقتصر اعتقاد الأرواح وتقديس الأفاعي والأنمار على الأقوام الفطريين، بل سَرَت عدوى بعض ذلك إلى البراهمة، وقليلٍ من ذلك إلى المسلمين، فأضحى الصِّلُّ[155] من خصائص عظيم الأرباب عند الهندوس، فتُتَّخذ مطاويه الرائعة أداة زينة في المباني، وينتصب رأسه ذو الحدقتين الشاخصتين متوعدًا بجانب رأس وِشنو.

ولا عهد للغوند بنظام الطوائف، ويُقسَّمون إلى قبائل متزاوجة، فمن سِفَاح ذوي القرابة أن يقترن رجلٌ بامرأةٍ من قبيلته، ويؤدي قران مثل هذا إلى القتل أحيانًا، وعادة خطف الخاطب للفتاة خطفًا صوريًّا أو حقيقيًّا شائعةٌ شيوعًا منظَّمًا عند أولئك القوم، وفي الغالب يدافع عن الزوجة من يرافقها مع ضحك تجاه أصحاب الزوج، فيتمُّ الغَلَب لهؤلاء الأصحاب بحكم الطبيعة فيسيرون بالأسيرة حاملين إياها على أكتافهم فاكهين، ومما يحدث عند سكان الهند الوسطى الفطريين، أحيانًا، أن يتكرر الخطف بعد الزواج، وذلك وقتما تُغادر الفتاة بيت زوجها إلى بيت

155 الصل: الحية الخبيثة جدًّا.

أبيها بعد يومين أو ثلاثة أيام من ذلك باكية بكاء مصنوعًا مُعْرِبة عن عزمها على عدم تركه.

والغونديُّ، على العموم، يشتري لابنه امرأة قبل أن يبلغ سنَّ الزواج بها، فيختارها قوية ضليعة ليتخذها، في الغالب، خادمة وخليلة، إلى أن يُلِحَّ الزوج الحقيقي في طلبها، فإذا عَدَوْتَ هذه العادة وجدتَ الغوندي من المقتصرين على زوجة واحدة، والزوجة عند الغوند، إذ تكون، على الدوام، أكبر من بعلها سنًّا فإنها تتمتع بنفوذ عظيم في أمور المنزل.

ونظام الغوند السياسي بسيط جدًّا، فيدير شئون كل عشيرة منهم رئيس خاضع، على العموم، لما يقضي به شيوخها المجتمعون، ولكل رجل غوندي صوت في الحكومة، ويكون الرئيس في الغالب سليل الراجبوت، ويُسرَّح بعض ممثلي الراجبوت عند كل حرب بين الغوند الذين لا ينشبون أن ينالوا عندهم شيئًا من النفوذ.

شكل ٣-٦: راقصة من جنوب الهند.

(٨) سكان أمَركن تك وجهوتاناغبور وأوريسة، إلخ

يقوم في شمال جبال الهند الوسطى الشرقي طَود أمركن تك، فهذا الطَّوْد هو أعلى تلك الجبال، وَيُعَدُّ عقدة، تلك المنطقة الجبلية، وهو أقلُّها رَوْدًا،[156] وغابُهُ أشد من غابها امتناعًا، وآجامه أكثر من آجامها ضواري،

156 راد الأرض يَرُودُها رَوْدًا: تفقَّد ما فيها من المراعي والمياه؛ ليرى هل تصلح للنزول فيها.

وحُمَّيات أوديته أعظم من حميات أوديتها خطرًا، وسكانه أظهر من سكانها همجية واقترابًا من الحيوان واحتمالًا للجوِّ القاتل والطعام الجشيب.[157]

شكل ٣-٧: ثلاثة وحوش من جهوتا ناغبور.

ويقف كل وصف عند الحد الذي وقف عنده الغزاة المتمدنون، فما قيل عن معايش أهل تلك المنطقة الوحشية ليس إلا فرضيات، فهندوس السهل يشبهونهم بالقرود ويخشونهم كأنهم من الجن الأشرار، ومن الأساطير ما هو خاص بغاب تلك المنطقة البعيدة الغور وفِجاجها الكئيبة التي لا تخلو من حفدة أقدم عروق الهند البائسين.

ويتألف من جهوتاناغبور منطقة متوسطة بين هضبة الولايات الوسطى والسهول المجاورة لمصبِّ نهر الغَنْج، وتشمل تلك المنطقة، المائلة إلى الجنوب الشرقي والمتوجهة إلى خليج البنغال، على وادي مهاندي ووادي برهمني الأعليين، وتجري من منحدراتها الشمالية الغربية روافد سون، ويعدُّ معظمها من ولاية البنغال.

157 الجشيب من الطعام: الغليظ الخشن.

وجهوتاناغبور منطقة انتقال من الناحية الإثنولوجية والناحية الجغرافية، فالمرء إذا ما نزل من أعاليها وتوجَّه إلى أَوَدْهَة، حيث يعيش أجمل العروق الآرية بالهند كما ذكرنا، وَجَدَ بالتتابع أمثلة جميع ما في الهند من العروق المترجحة بين قِبَاح وثنيي الزنوج وشُمَّخ البراهمة.

ويسكن جهوتاناغبور قبائل من سكان البلاد الأصليين على الخصوص، فهذه القبائل، وإن ظلت وحشية في الجبال، تتهنَّد في السهول بالتدريج، وهنا نُنَبِّه القارئ إلى أن ما نصفها به ينطبق على حالها الفطرية الأولى قد تُشاهَد اليوم في أقاصي تلك المنطقة وفي أراضيها المنيعة قياسًا على ما فعلناه في أمر الغوند.

ونحن، حين نُضيف إلى جهوتاناغبور سلسلة جبال وِنْدهيَا ومعظم شبه جزيرة الكجرات تبدو لنا بلاد ممتدة من بحر إلى بحر قاطعةً لوسط الهند، فهذه البلاد المستطلية هي مقر العروق الكولية التي تُعد ثالثة الجماعات الهندية فتأتي بعد الجماعة التورانية الآرية، أو الهندوس البراهمة، التي هي الأولى منها والجماعة الدراويدية التي هي ثانيتها.

واختلاف اللغات بين تلك العروق، ولا سيما بين الدراويد والكول، هو سبب ذلك التقسيم الثلاثي ما كان الدراويد والكول من الشعوب الفطرية التي توالدت هي والغزاةُ بعض التوالد وما تماثل الدراويد والكول طبائعَ وصُوَرًا، ويشابه الكول البهيل الذين يقطنون معهم في الأراضي التي تغشى جبال وِنْدهيَا، بَيْدَ أن الكول المقيمين بجهوتاناغبور يقتربون من البهيل ذوي المثال المغوليّ مع أن دم الراجبوت يجري في شرايين الكول المقيمين بالكجرات، وقد تكلمنا في فصل سابق عن هؤلاء الكول القاطنين في المنطقة الغربية، والذين يَعُدُّهم البراهمة من الشودرا فيُستخدمون في المدن للقيام بأشقِّ الأعمال، فأُطلق اسم الواحد منهم «القُلِي» في المستعمرات الإنجليزية وأمريكا على العمال والعتالة والمكارين.

وَيُعَدُّ الكول الشرقيون من زمرة المنبوذين لا من طبقة الشودرا، ولم يخرج أكثرهم من دور الهمجية الأولى، وعن هؤلاء قلنا إنهم يذكروننا بالمثال

المغولي، فهم، بالحقيقة، ذوو وجوه مثلثة الأضلاع ولحى مَعِزَة[158] وعيون صغيرة مزمومة أفقية وشفاهٍ غليظة ووجنات ناتئة وأنوف قصيرة وألوان مُتَرَجِّحة بين الصفرة والسواد وقامات قصيرة مربوعة ضليعة، ويتكلمون بلهجات مفرَّعة من اللغة الكولية التي يتميزون بها من شعوب الهند الفطرية الأخرى، ويجاوز الكول منطقتهم المستطيلة إلى وادي الغَنْج حيث لاقيناهم.

ويسكن السانتهال والملير الجبال الواقعة بين بهار والبنغال، فيُعَدُّون من الأرومة الكولية بالحقيقة، ومما قلناه إن لغة السانتهال تمثل دور اللغة الأم بين اللهجات الكولية كما هو شأن السنسكرت في اللغات الهندية الأوربية.

وكان الكول جميعهم يُسمون باسم سوارا العامّ الذي ورد ذكره في كتب الهندوس غير مرة، ورأى بعض العلماء أن هذا الاسم مشتقٌّ من الكلمة الشيثية «سغاري» التي تعني «الفأس»، والواقع يؤيّد هذا الرأي ما كانت الفأس سلاح الكول والغوند المفضَّلة، وما ظلَّت، في بعض الأحيان، عُدَّتهم الوحيدة، فالحقُّ أنك لا ترى شخصًا من أهل جهوتاناغبور أو أهل غوندوانا الأصليين لا يحمل بيده فأسًا إذا ما ابتعد قليلًا عن منزله، ولا غَرْوَ، فلا غُنْيَة له عن هذه الآلة في فتح طريق له وسط الآجام وفي الهجوم على الأنمار.

وبعض القبائل الكثيرة التي تسكن جهوتاناغبور وساحل أوريسة في الشرق ما هو كوليٌّ خالص وبعضها ما هو ممزوج بالعنصر الدراويدي الحديث والقديم، وبين هذه القبائل فروقٌ غير واضحة تمامًا؛ لعدم وجود أمثلة بينةٍ لها على الدوام، وتُدعى تانِكَ الجماعتان بالأوراؤن والمُنْدا، فأما المندا فيشابهون المغول كثيرًا، وأما الأوراؤن فمن الزنوج الذين يبدو مثالهم أقرب إلى القرود منه إلى البشر.

158 معزة: قليلة الشعر.

ومن أهم الأهالي الذين يسكنون وادي برهمني ووادي مهاندي الأدنَيَيْن وقِسمًا من ساحل أوريسة نذكر الكوند الذين يجب التفريق بينهم وبين الغوند المقيمين بغوندوانا، وعلى ما بين تلك الشعوب من صلة كما بين جميع الفطريين يتألف منها جماعتان مختلفتان.

وتلك الشعوب، إذ كانت ذوات عادات متماثلة يَدْنُون بها من إخوانهم سكان الولايات الوسطى الذين وصفناهم آنفًا، نوجز أمرها بما يأتي: تقوم ديانتها، كما تقوم ديانة الغوند، على عبادة الشمس والأرض وقوى الطبيعة والخوف من أرواح الموتى وتقديس الضواري والآفات التي يُعرَّضون لها، على الدوام، تقديسًا ممزوجًا بالهول، وترى في الأعاصير والمجاعات والأوبئة والجفاف مظاهر لقوًى هائجة يجب التوسل إليها بقراءة العزائم وتسكينُها واستعطافها بالقرابين، فعُدَّت الدموع ودماء الضحايا البشرية طويلَ زمنٍ نَدًى سحريًّا لا بد للأرض منه لكي يتسع صدرها فتصح خصيبة، واليوم يزول هذا الاعتقاد بالتدريج، وصارت الأنعام، أيضًا، لا تُذبح، فتُستبدل بها في المذابح صُوَرٌ خزفية وفواكه وأزهار، ويُستبدل بدمائها دهنٌ أحمر تُرشُّ به الحجارة المصفوفة على شكل دائرة أو الأهرام الصغيرة التي تعلوها أو الأوتاد المثبَّتة في الأرض.

ولما حاول الإنجليز أن يحملوا، بالإقناع والتهديد، الكول السذَّج على نبذ عادة تقريب القرابين البشرية رضي هؤلاء بذلك على أن يحتمل الأوربيون تَبِعة هذا الإلحاد تجاه الآلهة، ولا شيء أفظع من القيام بمثل هذه الشعائر، فكان الجمهور يُقطِّع الضحية إربًا إربًا عند ذبح الكاهن المقرِّب لها اتِّباعًا للاعتقاد القائل إن كل قطعة من اللحم الخافق تميمة قادرة، فمن يأخذها فيدفنها في ناحية من حقله وهي دامية سخينة ينل البركات من السماء لأمد بعيد، فبهذا الثمن يزول غضب الإلاهة تاري أي الأرض الساخطة.

وكان يُتخطَّف صِبية من الغرباء والأيتام ويؤتى بهم إلى الكول ليُربَّوا فيكونوا ضحايا المستقبل، وكان يقوم بذلك الاصطياد

قهارمة[159] فيبيعون ما يتصيدون بثمن عال، فإذا لم يجد هؤلاء القهارمة ما يصطادونه اشتروا صِبية من آبائهم الفقراء أو الطمعاء ليشروهم بربح فيُثرون بذلك لعدم المَكْس، فكلما كانت الضحية غالية كانت مقبولة لدى الأرض والشمس والجن الذين يثيرون أمواج البحر فيُلقونها في الحقول زوابع وعواصف.

ويدير شئون كل قبيلة من الكول رئيس خاضع، على الدوام، للأهالي المجتمعين، وتسفر هذه الاجتماعات، في الغالب، عن دعوة منطقة بأسرها، لا قرية واحدة، إلى العمل بأحد الأمور، وتشعُر الشعوب الكولية بأنها أمة واحدة، ويذكر الكول أنهم كانوا سادة الأرض، وفي أساطيرهم، كما في الشواهد الغريبة، ما يدل على أنهم كانوا أمة ذات حكومة منظَّمة، ومن قبائلهم قبيلة البِهومية التي يعني اسمها «أبناء الأرض»، أو أهل البلاد الأصليين، ويعلم الكول أنهم حفدة أمة قديمة إلى الغاية، وليس الكول من البأس ما يقدرون به على القتال فتراهم لا يبالون بالحِيَل وصولًا إلى الإثراء على حساب من يسرقونهم، فالكول جميعهم لصوص أَجْرِئَاء[160] فُخْرٌ بما يقترفون من اللَّصِّ، فيقولون: «لا نعمل غير استرداد ما نملكه فسُرق منا فيما سلف»، ومن التناقض العجيب أن يصبح هؤلاء السُّرَّاق، حينما يحملهم الفقر على الخدمة عند سادة الهند في الزمن الحالي، من أحسن موظفي الشرطة وأحزمهم، ومن أيقظ النُّطَراء وأقدرهم على خفر المزارع، ومما يحدث أن يجمع هؤلاء بين حرس الحقول والمواشي في النهار وسرقتها في الليل بجد وحذر ولباقة، فإذا ما اكتشف الأمر لم يبقَ لإقامة البينة وسماع الشهود ضدهم ضرورة، فهم يعترفون بما اجترحوه من فورهم حين الاستنطاق فيُستذنبون.

والكول شديدو القِرى، فيبذلون أرواحهم دون الضيف إذا حاق به خطر، والكول كثيرو الفخر ذوو مزاج حر، والكول، إذ يُحملون على دفع

159 قهارمة: جمع قهرمان وهو الوكيل.

160 أجرئاء: جمع جريء.

الضرائب إلى الإنجليز، يحملونها إليهم بانتظام حيث يكونون عند حدودهم، وذلك حذر تدنيس الجُبَاة لحرمة منازلهم في غابهم.

ويحب الكول الحرب لهوًا وتقرُّبًا إلى الآلهة، فهم يَفْتَئِلُون[161] قبل أن يوقدوا نارها، فإذا رأوا أن السماء تأمر بالحرب وسفك الدماء أرسلوا رُسُلًا إلى القبيلة المجاورة لدعوتها إلى القتال في أحد الميادين، والقتال يدوم طويلًا ما لم يفتئلوا ثانية فيروا وقْف الحرب، ولا يشوب المتحاربين حقدٌ ولا وَغَر[162] فينامون في الغالب معًا ويأكلون معًا في الهُدَن التي تتخلل القتال، ويشهد النساء الطِّعَان فيهتفن عند إصابة الأهداف ويصفقن عند باهر الأعمال ويجمعن الجرحى ويضمدن جروحهم ويبكين القتلى وينظرن، كما كانت نساء سابين تنظر في القرون القديمة، آباءَهن وإخوتهن في أحد المعسكرين وأزواجهن في المعسكر الآخر، فالأنكحة عند الكول لا تكون إلا بين مختلف العشائر.

والفتى من أولئك القوم يشتري له أبواه المرأة التي يرغب في الزواج بها، وهو، إذ كان لا يملك لنفسه شيئًا، لا يقدر على تأليف أسرة مستقلة عن أبويه، فيبقى تحت وصايتهما زمنًا طويلًا، وللمرأة من أولئك القوم حق الطلاق، فتتزوج، في بعض الأحيان، أربعة أزواج أو خمسة أزواج بالتتابع، فيجب على كل زوج لاحق من هؤلاء أن يرد إلى الزوج السابق ما دفعه، فيسعى الزوج اللاحق إلى التخلص مما عليه.

إذن، يمارس أولئك القوم مبدأ تعدد الأزواج من الذكور ممارسة مُقنَّعة، وتنشأ هذه العادة عن الفقر وعن ارتفاع المهور، وقتلُ الأولاد عند أولئك القوم أمر شائع، فالأسرة الواحدة منهم لا تحتفظ، في الغالب، بغير ابنة أو ابنتين، وأما البنات الأخرى فيُوضعن، حين ولادتهن، في آنية من فخار ويدفن، فيسفر ذلك عن زيادة مهور النساء لقلة عددهن.

161 افتأل: ضد تشائم.

162 الوغر: الضغن.

ومعايش سكان جهوتاناغبور ضنكٌ، فأراضيها فقيرة وفلاحتها رديئة، وأسوأ منها أراضي أوريسة، حيث يغتمر الطوفان غَلَّاتها الهزيلة في بعض الأحيان فيعقب الطاعون ذلك، ثم يُسْفر الجدب الذي يجيء بعد ذلك عن موت الألوف من السكان جوعًا، وليس للإنسان في بلد بائس كهذا البلد أن يختار نوع الطعام، فترى الكول يأكلون من كل لحم مع مقت براهمة الهندوس لذلك.

ولم يكن ساحل أوريسة منطقة بائسة في كل زمن كما هو اليوم، فقد كان يقوم فيه دولة زاهرة أيام هارون الرشيد وشارلمان، وفي أساطير الهندوس ما يؤيد ذلك، وما اشتمل عليه من المعابد العجيبة الخربة، كمعابد بهو ونيشور، يثبت، بأقوى من ذلك، أن هذا الساحل غير المِقْرَاء[163] كان مقرًّا لحضارة قوية، ومما لا ريب فيه أن الكوند الوحوش لم يكونوا المبدعين لذلك الفن المعماري الرائع التالد.

وتغشى ساحل أوريسة معابد أكثر من أن تغشاه مدن، وساحل أوريسة هذا، الذي يتساوى البراهمة والهمج في تقديسه؛ إذ يقع بين الهند الآرية والهند الدراويدية، شاهد على اختلاط كثير من العروق والأديان فيه، وعلى نظر المؤمنين إليه نظر إجلال واحترام، وعلى حَجِّهم له من كل صوب وحدب مهما كان نوع الإله الذي يعبدونه.

ذلك ما يبهر الهمجي الذي لم يسجد لغير أوثان فيدعو كالي ووِشنو وشيوة فينتقل ما يدور في خَلَدِه من الهواجس إلى بني قومه فيتساوون هم والآخرون في بعض المعابد حينًا فيغدو المنبوذ أخًا لأشهر البراهمة، فلا ترى فرقًا بين الأبيض والأسود وبين الآري والدراويدي وبين الهمجي والمتمدن، فيُخيَّل إليك امتزاج مختلف العناصر التي يتألف منها سكان شبه جزيرة الهند لوقت قصير.

بحثنا في تلك العناصر بحثًا خاطفًا، فنختم دراستنا بذكر شعب الأوريا المهم القاطن في المنطقة الساحلية الممتدة من شاطئ أوريسة إلى مصبِّ

163 المقراء: الذي يقري الضيف، الكثير الضيافة.

نهر الغَنْج، فهذا الشعب المتوسط، الذي هو شعب شبه همجي ذو لغة خاصة وغير ذي مثال واضح، أخذ نصيبًا من العروق الكثيرة التي يعيش بينها.

شكل ٣-٨: امرأة هندوسية من جنوب الهند تهرس الأرز.

نطمع أن يكون القارئ قد اطلع، بالخلاصة الخاطفة غير الكاملة التي سردناها فيما تقدم، على ما بين عروق الهند من الفروق التي لا حد لها، وعلى ما بين هذه الفروق من المساوف العظيمة، ونحن بعد أن بينا اختلاف أوصاف تلك العروق وأخلاقها وعاداتها ومعتقداتها، وبعد أن ذكرنا أن أمثلة البشر ودرجات الحضارة التي جاوزها منذ فجر تاريخه إلى يومنا هذا لا تزال قائمة بادية في الهند نرى أن نُركِّب بعد أن حلَّلنا فبنحث فيما بين هذه العروق من الأخلاق المشتركة، وفي مَيْل هذه العروق إلى الوحدة التي قد يصلون إليها شيئًا فشيئًا بالتوالد والخضوع لبعض النظم الكبيرة العامة، ونحن بعد أن درسنا ما يَفْصِل بعض عروق الهند عن بعض ندرس ما تتقارب به هذه العروق وما تلتقي فيه من النقاط.

الفصل الرابع

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين عروق الهند المختلفة

(١) ما نشأ عن أحوال البيئة والحياة في الهند من تماثل بين شعوب الهندوس

ظهر من الفصول التي خصصناها للبحث في عروق الهند اتساعُ الفروق بين تلك العروق، فالحقُّ أن شبه جزيرة الهند الواسعة فسيفساء عظيمة مؤلفة من شعوب مختلفة إلى الغاية، ففي الهند تجد الوحش الفطري والرجل المتمدن وما بينهما من آدمي مختلف الدرجات.

وقد رأينا أن المُثُل الجثمانية لهذه العروق متباينة جدًّا، وأن كلمة الهندوس تشتمل على أناس مختلفي الألوان مترجحين بين الزنجي الأسود والرجل الأبيض، وأن تلك المثل تترجح بين الجمال الباهر وأقصى البشاعة.

وما لهذه العروق من الصفات الخُلقية والعقلية ليس بأقل من تلك الفروق الجثمانية اختلافًا، فترى هوة عميقة بين الراجبوتي المشهور بشجاعته النادرة والبنغالي المعروف بجَبَانَتِه الفاضحة، وترى مثل تلك الهوة بين جَبَلِيٍّ راج محل الذين لا يعرفون الكذب وبعض الهندوس الذين يكذبون على الدوام.

ومن الصواب، إذن، أن نستنتج، أولَ وهلة، فقدان أيِّ صفة مشتركة بين عروقٍ ذلك مدى تباينها، بَيْدَ أننا سنرى عما قليل أن هذا زعم خاطئ، فقد نجم عن البيئات المادية والأدبية الواحدة أخلاقٌ عامة تجمع بين تلك العروق في أسرة كما يجمع العالم الطبيعي مخلوقاتٍ متباينة أشد التباين، كالفيل والفأر، في فصيلة واحدة.

فلْنَدَع الفروق التي عرضناها بدرجة الكفاية، ولنبحثْ في الصفات المشتركة بين عروق الهند المختلفة، فنرى، إذ ذاك، أن الهندوسيَّ ينال

بهذه الصفات معنى معينًا، ولا يظن القارئ، مع ذلك، أنه يكون لهذا المدلول من القيمة المقرَّرة ما لكلمة «الفرنسي أو الإنجليزي أو الألماني»، فلم يقع تمازُج مختلف العناصر بدرجة الكفاية، ونحن، لكي نوضح رأينا بأحسن من ذلك، نتمثَّل أمر فرنسا في العصر الكارولوفينجي وقيمة كلمة «الفرنسي» الدالة فيه على خليطٍ من القوط والفرنج والغوليين والرومان بَدَأَ يمتزج فيكتسب بعض الصفات المشتركة.

ونرى، قبل أن ندرس الصفات المشتركة لأكثرية الهندوس فنشيرَ إلى الأسباب التي أوجدتها، أن نأتي بتقسيماتٍ قليلة أساسية للعروق الكثيرة التي وصفناها فيما تقدم على انفراد، فبعد أن نصنع هذا على طريقة التحليل نبدأ بالدرس على طريقة التركيب.

يُؤدِّي البحث الخاطف إلى إمكان تكتيل جميع تلك العروق في ثلاثة تقسيمات أساسية كبيرة، فأما التقسيم الأول فيشتمل على العروق التي لم تنلْ بصيصًا من أية حضارة فتَجَلَّت فيها آثار سكان الهند الفطريين الأصليين، فليس هؤلاء السكان الفطريون القاطنون في الجبال أو في المناطق المنعزلة إلا أقلية ضعيفة، وهم من شدة الاختلاف عن بقية سكان شِبْهِ جزيرة الهند ما لا يحتشدون بها معهم، فلهذا لا نُفكِّر في أمرهم هنا.

وأما التقسيم الثاني فيشتمل على الهندوس الحقيقيين الذين هم، كما نعلم، نتيجة توالد عروق بيض أو صُفر مع السكان السود الأصليين، فهؤلاء الهندوس إذ كانوا على شيء من التمازج في غضون القرون فإنهم مجموع من الزمر المتباينة بنسبة العناصر التي تتركب كل واحدة منها، وهذا مع القول إن البيئات المادية والأدبية الواحدة التي خضعت تلك الزمر لأحكامها منذ زمن طويل والمعتقدات الواحدة التي اعتنقتها قد وسمتها بعدد من الصفات المشتركة، وإنه على تلك الزُّمر التي تتألف منها أكثرية الهند الساحقة تنطبق هذه الصفات المشتركة التي نرى أن نبحث فيها.

وأما التقسيم الثالث فيشتمل على السكان المسلمين الذين هم نتيجة توالد العرب والأفغان والفرس والتركمان والمغول وغيرهم من الذين غزوا الهند في مختلف الأدوار فانتهوا إلى فتحها، وكان يصعب خلط هؤلاء المسلمين بزُمر التقسيم المذكور آنفًا لو ظلوا خُلَّصًا بعيدين من كل توالد، بَيْدَ أنك لا تجد بين الملايين الخمسين الذين يدينون بالإسلام في الهند سوى أناس قليلين لا تجري في شراييهم دماء هندوسية، فهؤلاء المسلمون، وإن كانوا يختلفون عن زمر ذلك التقسيم الثاني في غير ناحية، أكثر تأثرًا بهذه الزمر من تأثيرهم فيها، فإذا كان جميع الصفات العامة التي نذكرها فيما يأتي لا ينطبق على المسلمين فإن كثيرًا من هذه الصفات مشترك بينهم وبين تلك الزمر مع ذلك.

إن المؤثرات التي أسفرت عن صفات مشتركة هي مادية وأدبية معًا.

ويمكن تلخيص المؤثرات المادية في بضع كلمات: فمن هذه المؤثرات نذكر الجوَّ الحار الذي لا يُعِدُّ الإنسان إلى الأعمال القاسية، بل يُسهِّل عليه أمر زراعة الأرض الذي وقف أكثر السكان به نفوسهم عليه من جهة، ويؤدي إلى اعتمادهم على النظام النباتي في أمر الغذاء من جهة أخرى، فالهندوسي يكاد لا يَغْتَطِي، ويقتصر في طعامه على قليل من النبات ويرتوي بماء صاف، ويعيش عن سعة ببضعة دوانق مياومة، فارتفاع درجة الحرارة في بلد الهندوسي، إذ يؤدي إلى زهد الهندوسي في الطعام واللباس، لا يجد الهندوسي به الحافز الحاجيَّ الذي يُزيل به كسله الطبيعي.

ونشأ عن تأثير البيئات المادية المتماثلة وتكرُّر الأعمال الواحدة طرقٌ للمعايش متشابهة بحكم الضرورة، ثم ثبت أمر هذه المعايش المتشابهة بمؤثرات أدبية واحدة أهمها نظام الطوائف والنظام السياسي والمعتقدات الدينية.

ونظام الطوائف هو حجر الزاوية لجميع نُظُم الهند الاجتماعية منذ ألفي سنة، وبلغ نظام الطوائف من الأهمية ما وقفنا به مطلبًا خاصًّا من هذا الكتاب على البحث فيه، فسنرى في هذا المطلب ما هي الأسباب

الإثنولوجية التي أوجبته في غابر الأزمان، وما هي الأسباب التي حلت محل تلك بالتدريج فدام بها مع تتابع القرون، وسنرى كيف أسفر ذلك النظام عن تقسيم الهند إلى ألوف من الجمهوريات الصغيرة غير مبالٍ بعضها بشئون بعض، أو مُعَادٍ بعضها لبعض، ومنفصل بعضها عن بعض في المشاعر انفصالًا يتعذر معه أن تكون ذوات مآرب مشتركة، وسنرى كيف أن طائفة الهندوسي، لا الهند، هي وطن الهندوسي الحقيقي، وكيف أن طائفة الهندوسي قد أحاطته بشبكة من التقاليد والعادات إحاطةً ثَبَتَ أمرُها بالوراثة فأضحى خروجه منها صعبًا إلى الغاية.

وأدَّى النظام السياسي، الذي هو ثاني المؤثرات المذكورة آنفًا، وذلك في غضون القرون، إلى مثل ما أدى إليه نظام الطوائف في تكوين روح الهندوسي، ويمكن تعريف نظام الهند السياسي السائد منذ زمن طويل بأنه يتألف من جماعات صغيرة تُعرف بالطوائف، وأن هذه الطوائف متجمعة على شكل جمهوريات صغيرة تعرف بالقرى الخاضعة لسيد واحد ذي سلطان مطلق، وعلى ما اعتور اسم السيد من تبدُّلٍ لم يتغير ذلك النظام الذي بلغ من الديمومة ما وهنت به روح المقاومة في الهندوسي فتعوَّد الهندوسي مع القرون أن يطيع سلطة سيدٍ إطاعة تامة، سائرًا وفق المعتقدات الدينية.

ونذكر التعاليم الدينية، التي هي ثالثة المؤثرات، مما أوجب اتصاف الهندوس بأخلاق متماثلة، ولا يستطيع الأوربي أن يُدرك تأثير الدين العظيم في الهندوس إلا إذا حققه بنفسه، فأكثر الأوربيين تديُّنًا يفرق بين المقدس والمدنس تفريقًا لا يفهمه الهندوسي الذي يعتقد أن الآلهة تنظر في أدق شئونه وأن تعاليم الدين تهيمن على جميع أعماله، فالدين، بالحقيقة، كل حياته إن لم يكن جزءًا منها، فما السعي والأكل والنوم عند الهندوسي إلا أعمال دينية، وكل شيء ما خلا أوامر الدين باطل لديه، والدين هو الذي يوجهه، ولم يَرْضَ بِلِقَاح الجُدَرِيّ، مثلًا، إلا بعد أن اكتسب شكلًا دينيًّا، ونحن، حين البحث في تكوين أديان الهند، نُثبت مقدار الفراغ الذي تملؤه الأديان في حياة الهندوس، ومقدار عدِّ

الهندوس لكل سلطة عنوان قدرة إلهية، وهنا، كما في أمور كثيرة أخرى، نتمثل الهُوَّة العظيمة التي تفصل الشرق عن الغرب في كل أمر، والتي لم تفتأ تزيد اتساعًا.

والباحث وقتما يدقق في تسليم الهندوسي وإذعانه المطلق لأوامر الآلهة فيعلم أن هذه الأوامر سيطرت عليه قرونًا كثيرة، وأن تعاليم مَنُو الدينية هي صاحبة السلطان في الهند منذ ألفي سنة يدرك درجة انسكاب أذهان الهندوس التي احتملت نِيرًا واحدًا تلك المدة في قالب واحد.

ولنبحث، بعد أن أوضحنا تأثير تلك العوامل الكبيرة، في الأخلاق العامة التي نشأت عنها.

(٢) الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين أكثر الهندوس

لا تجد في أمة خضعت منذ عدة قرون لمعايش وأحوال مادية وأدبية، كالتي ذكرناها آنفًا، ما تجده في الأحرار من شدة البأس ومتانة الخلق، فلو كان عند الهندوس مثل ذلك، أو أقل من ذلك؛ لخلعوا نير الأجنبي عنهم منذ زمن طويل، فلا عجب إذا رأينا في الهندوس من النقائص ما يُرى عادة في الأمم التي رَئِمت[164] حُكم الأجنبي قرونًا كثيرة، فالهندوسي، على العموم، خوَّار[165] هيَّاب مكَّار ولَّاج[166] ملَّاق[167] إلى أبعد حد، وتدل أوضاعه على الخداع والإلحاف،[168] وهو بعيد من المبادئ الوطنية، وما عُرِّض له من البغي والطغيان أحقابًا[169] جعله يرى الخضوع لسيدٍ على أن يحترم هذا السيد شرائع طائفته وعقائده الدينية، فالهندوسي ينقاد سلفًا

164 رَئِم الشيءَ: أَلِفَهُ.

165 الخوَّار: الضعيف الرخو.

166 ولَّاج: كثير الولوج.

167 ملاق: كثير التملق.

168 ألحف: ألحَّ.

169 أحقاب: جمع حقب وهو ثمانون سنة أو أكثر.

لجميع أوامر سيده ويَعُدُّ نفسه سعيدًا إذا ما نال حفنة أرز يُمسك بها رَمَقَهُ.

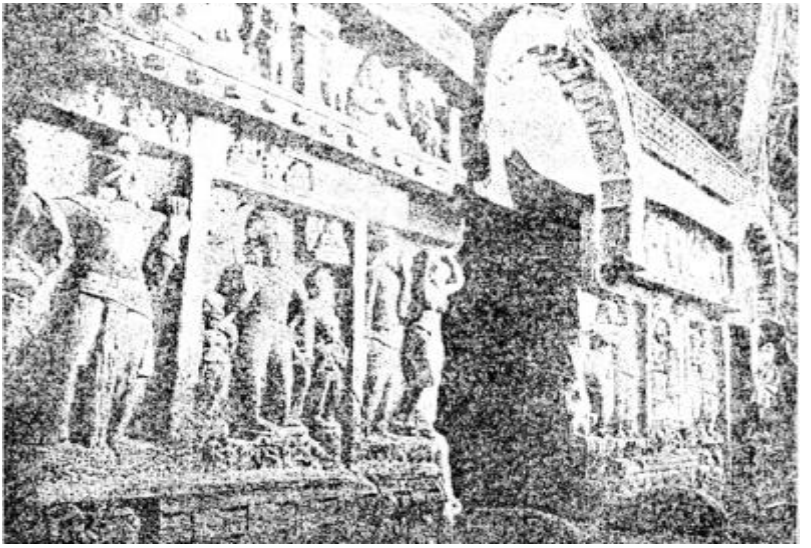

شكل ٤-١: كارلي. مدخل معبد مصنوع تحت الأرض في القرن الثاني قبل الميلاد.

والهندوس قوم ليِّنون صابرون مُسَلِّمون، وأشد نقائصهم وقفًا لنظر الأوربي هي، خلا ما تقدم، البلادة والغفلة والخمول.

والخمول أظهر أخلاق الهندوس، وبالخمول نفسِّر خضوع ٢٥٠ مليون هندوسي لسلطان ٦٠٠٠٠ إنجليزي من غير أن يرفعوا عَقِيرتهم،[170] مع أنه يسهل عليهم أن يُبِيدوا هؤلاء الإنجليز في يوم واحد إذا قاموا قَوْمَةَ رَجُلٍ كما يسهل على رِجْلٍ[171] من الجراد أن تهلك بُرَّ حقل، وليس هذا مما يصدر عن الهندوس، وما اضطراب فصائل من السباهي

170 العقيرة: الصوت.

171 الرِّجْل: القطعة العظيمة من الجراد خاصة، وهو جمع على غير لفظ واحده.

الساخطين في سنة ١٨٥٧ إلا فورةٌ محلية عارضة لم يكترث لها معظم القوم.

وسنرى أن مستوى الهندوس العقلي المتوسط ليس دون مستوى سادتهم الأوربيين العقلي المتوسط، بَيْدَ أن الهندوس أقل من هؤلاء الأوربيين أخلاقًا بمراحل، وفي هذا بيانٌ لسبب انقياد الهندوس للغربيين، والأخلاق؛ «أي الثبات والعزم»، هي، كما نعلم من التاريخ ومن دراسة الناس، تمثل دورًا في حياة الأفراد والأمم غير الذي يقوم به الذكاء، فبالأخلاق، على الخصوص، أكثر مما بالذكاء، تؤسَّس الديانات وتُشاد الدول؛ ففي صراع يقع بين شعبين يتألف أحدهم من أناس أذكياء متعلمين متصفين بالحذر الذي هو وليد الذكاء قائلين ببطلان كلِّ مَثَل عالٍ غير مستعدين للتضحية بأنفسهم في سبيل المُثُل العليا، ويتألف الآخر من أناس محدودي الذكاء عُنُدٍ لا يتأخرون عن بذل أرواحهم انتصارًا للدين يتم النصر لهؤلاء على أولئك لا ريب، فهذا ما قلته غير مرة في غير كتاب، ففيه مفتاح كثير من حوادث التاريخ التي يظل إدراك أمرها متعذرًا بدونه، فإذا كان الرومان قد قهروا الإغريق، وإذا كانت قبائل العرب التي هي من شِبَاه البرابرة قد خرجت من جزيرتها ففتحت العالم الإغريقي الروماني، وإذا كان المسلمون قد ملكوا الهند، ثم جاء إنجليزٌ قليلون فدَوَّخوها، لم يتفق ذلك كله لهؤلاء الفاتحين جميعهم إلا بفضل ما اتصفوا به من شدة العزم أكثر من اتصافهم بقوة الذكاء، فالعزيمة هي أقوى ما في البشر من القوى.

ويضاف إلى الخمول الذي هو أظهر صفات الهندوس عدم اكتراثهم الدالُّ على الإذعان والتسليم بالقدر فيُغضي الهندوسي هادئًا عن كل ما لا يمس تعاليم طائفته ومعتقداته الدينية، فيحتمل أقسى ضروب الجبروت عادًّا إياها أمرًا مُقَدَّرًا لا مفر منه.

وليست شجاعة الهندوسي مثل شجاعة الأوربيين، فالهندوسي يزدري الحياة ولا يَهُزُّه الموت، ولا يحاول اجتنابه؛ لما يجده من عدم استحقاقه لذلك، ولما يراه من أن كل عمل للفرار منه لا يجدي نفعًا.

وعدم اكتراث الهندوسي لأكثر ما في هذه الدنيا يؤدي إلى عدم التأثير فيه بمثل العوامل التي يؤثَّر بها في الأوربي، فكيف يؤثَّر في أناس لا يبالون بالحياة ولا بالموت ولا يشعرون بِشَبْنٍ من فرض أية عقوبة تنص عليها قوانيننا، ولا سيما السجن، ولا يطلبون في كل يوم غير وجبة أرز يسدُّون خلَّتهم بها؟ فالهندوس إذا ما نالوا مثل هذه الوجبة لم تَجِد ما يخرجهم من بَلَادَتِهم، فَعِدِ العامل الهندوسي أيَّ مبلغ من المال مقابل عمل يقوم به في وقت معين وَنَلْ منه أيَّ عهد بذلك لم يُنجِز ما عاهدك عليه، فالغد عند الهندوسي مستقبلٌ بعيد مشكوك في أمره كثيرًا، فلا يدور في خَلَدِه أن يفكر فيه، فالأوربي الذي اختبر الهندوس قليلًا يعلم جيدًا أنه يجب عليه، إذا أراد أن يعتمد على حَمَّاليهم، مثلًا، ليكونوا حاضرين في الزمن المقرر، أن يحملهم على النوم ليلًا أمام بابه.

ويجب على الباحث أن يدرس أحوال الهندوس عن كثب؛ ليعلم جهلهم بعض مشاعرنا البسيطة التي انتقلت إلينا بالوراثة كالدقة والضبط، ومن ذلك أن الهندوس في بدء إدخال الخطوط الحديدية إلى بلادهم كانوا يَصِلُون إلى محطاتها بعد ساعتين أو ثلاث ساعات من الوقت المقرَّر لذهاب القُطُر، فلما علموا بالتجربة أن القُطُر تمضي من غير أن تنتظرهم صاروا اليوم يفدون إلى المحطات قبل الميعاد بساعتين أو ثلاث ساعات، فمن ثم ترى أن خُلُق عدم الضبط فيهم لم يتغير، بل بدَّل دليله على حسب تعبير علماء الجبر.

وقد عاملتُ هندوسًا من جميع الطبقات ومنهم خرّيجوا الجامعات الأوروبية، فلم يحدث أن أتاني واحد منهم مرة واحدة في الوقت المعين، مع أنني لم أجد في الهند إنجليزيًّا واحدًا يُخلف الميعاد.

ونحن، بعد أن درسنا أخلاق الهندوس العامة، نرى، للوصول إلى حكم صائب، أن نبحث في صِلاتهم بالأوربيين وفي علاقات بعضهم ببعض.

يألم الأوربيون ذوو الصلات بالهندوس من مُداجاة هؤلاء وعدم صدقهم، وهم ينسون أن هذه النقائص من مقتضيات علاقات العبد بسيده، فصِلات الهندوس بعضهم ببعض هي على خلاف ذلك، وإذا ما

اتخذنا احترامَ المرء لطبائع بلده وعاداتها وشرائعها وما ينطوي عليه هذا المرء من التقوى وروح التسامح مقياسًا أمكننا أن نقول: إن عوامَّ الهندوس أفضلُ من عوامِّ الأوربيين، وإننا كلما صعدنا في السُّلَّم الاجتماعية بدا لنا العكس فرأينا فقدان الأخلاق في الهندوس الذين تخرجوا على الطريقة الأوربية، فثبت لنا بذلك فساد النظرية القائلة إن التعليم يرفع مستوى أخلاق الناس، وعلمنا بذلك أن التربية التي تلائم احتياجات أمةٍ فتصلُح لها تأتي بنتائج سيئة عند تطبيقها على أمة أخرى سلكت طريقًا أخرى في التطور.

وتقتصر تقوى الهندوسي على أبناء طائفته، ولا تنسَ أن هذا من مقتضيات أوامر دينه القائلة إن العمل يكون ذنبًا على حسب أهمية المجنيِّ عليه، فمع أن شريعة مَنُو تَعُدُّ شتم البرهمي جنايةً تنصُّ على أن أكبر جناية على الشودريِّ من اللَّمَم.[172]

ولا أرى أفضل من قول الأستاذ الإنجليزي مستر مونير وليامز الخبير بأحوال سكان الهند في أخلاق الجمهور الهندوسي، قال هذا الأستاذ:

لم أرَ في أية ناحية من أوروبا شعبًا، كالهندوس، متدينًا متمًّا لواجباته خاضعًا لأولياء الأمور محترِمًا، مع خفض جناح، للسن والعلم مطيعًا لأبويه، أجَلْ، إن للهندوس نقائص ومعايب، ولكن ذلك دون ما في الأوربيين، وإني لأشك في أن يكون أسوأ الهندوس ذا مساوئ وشوائب كما في طبقات الأوربيين التي تقابل طبقته.

ذكرنا صفات الهندوس الخلقية المشتركة على العموم، فنرى الآن أن نقدِّر مستوى أهلياتهم العقلية، ويتطلب هذا التقدير مقياسًا فنتخذ الأوربيين مثالًا.

ولكي تكون المقابلة ممكنة يجب أن تتناول عناصر متماثلة يقاس بعضها ببعض؛ فنقابل بين هندوس الطبقات الوسطى بأوربيي الطبقات الوسطى، ونقابل بين هندوس الطبقات العليا وأوربيي الطبقات العليا.

172 اللمم: صغار الذنوب.

أشكُّ في تأدية المقايسة بين طبقات كِلا الفريقين الوسطى إلى تفوق يُذكر للأوربيين مهما بُولِغ في التدقيق، نعم، إن الهندوسي دون الأوربي مبادرةً وأبطأ منه عملًا، ولكنه يستطيع أن يقوم بمثل ما يقوم به الأوربي من غير عناء وبآلات أقل من آلات الأوربي، فيصنع كأحسن عامل أوربي أنواع المصنوعات الخشبية والحجرية والمعدنية، وما يؤدي إليه التخصص من إضعاف مستوى الأوربي لم يؤثر في الهندوسي بعد، والهندوس مثل الأوربيين، إن لم يفوقوهم، في القيام ببعض الفنون كفن العمارة.

والهندوس مساوون للأوربيين في أكثر الأعمال التي تستلزم غيرَ أهليات عقلية متوسطة، فتجد بين الهندوس محامين وأطباء ومهندسين يَعْدِلون مَن هم في المستوى المتوسط بيننا؛ فالهندوسي يستطيع كالأوربي أن يرسم صورة بناء وأن يسوق قاطرة وأن يُدير جهازَ بَرْق، وتجد الهندوس في الإدارات الإنجليزية بالهند يقومون بأكثر وظائف البريد والمصارف والمالية والخطوط الحديدية، إلخ.

ويبدو قصور الهندوس وعجْزُهم عند الصعود في أعلى درجات المقياس العقلي حيث قوة المبادرة وروح الإبداع والقدرة على التأليف بين الأفكار الكثيرة وتفريق ما ائتلف منها وما اختلف، فالهندوسي يتعذر عليه أن يدير مشروعًا صناعيًّا عظيمًا وأن يقود الرجال وأن يقوم بالمباحث العلمية وأن يأتي بالاكتشافات وما إلى ذلك كله من الأعمال التي تتطلب استقلالًا وحرية سير، فالهندوسي، وإن سَهُل عليه أن يدير قاطرة أو جهاز برق، يستحيل عليه اختراعهما، وتقريبًا للذهن نقول: إننا إذا جمعنا اتفاقًا ألْف أوربي وجدنا بينهم ٩٩٥ على الأقل لا يفوقون ألف هندوسي يُجمعون اتفاقًا أيضًا، وإن الذي لا نجده في الهندوس هؤلاء هو واحدٌ أو أكثر من ذوي المواهب العالية والأهليات النادرة.

شكل ٤-٢: أجنتا. منظر عام لمداخل قسم من الأديار والمعابد التي نُحتت تحت الأرض في منحدر الجبل بأجنتا بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن السابع بعد الميلاد.

هذه مسألة مهمة قد فصَّلتها في كتاب آخر فذكرت أن الفروق بين العِرْق العالي والعرق المتأخر لا تقوم على تفاوت في مستوى كلا ذَيْنِكَ العرقين العقلي المتوسط، بل تقوم على عَطَل العِرْق المتأخر من رجال قادرين على مجاوزة ذلك المستوى، وهذا أمر أساسي يُمكن الاستدلال عليه في العوامل النفسية، وهذا أمر أساسي قد سعيت في استنتاجه من العوامل التشريحية أيضًا، فقد أثبتُّ، بما قمت به من المباحث في عدة جماجم من عروق مختلفة، أن العروق العالية تحتوي على الدوام ما لا تجده في العروق المتأخرة من الجماجم الكبيرة الواسعة.

ولنترك تلك المبادئ الفلسفية العامة، ولْنُعيِّن ما يختلف به هندوسي الطبقات العليا عن أوربي الطبقات العليا، لنبصر أن ذلك الهندوسي يفترق عن ذلك الأوربي، على الخصوص، في عَطَلِه من روح الضبط والدقة وروح النقد وخُلُق المبادرة وأصالة الرأي وقوة البرهان وفي سعة خياله وفي عجزه عن رؤية الأمور كما هي عليه، وما إلى ذلك من النقائص التي لا

يطفو عليها قدرته على الإدغام وما فيه من المنطق الذي لا يعدو به حد استنباط عدة نتائج من الأمر الواحد فلا يستطيع أن يقابل بين المتشابهات والمختلفات التي تُستخرج من مقايسة شتى الأمور.

عَطَلُ الهندوسي من روح الضبط واضح، فالأمور تتموَّج عنده، كالضَّباب، من غير ضابط، فتبدو له كما لو كانت من خلال عَدَسَاتٍ كالمرايا المشوّهة التي يعرفها علماء الفيزياء، فترى نُظُمه الدينية وأقاصيصه التاريخية وقصائده القومية مبهمة متناقضة، ولهذا التناقض وعدم الضبط تجد أديان الهندوسي، ولا سيما البُدَّهِيَّة، غامضة لدى علماء أوروبا الذين تعوَّدوا دقة المنطق فلا يكون للكلمات عندهم سوى معانٍ صريحة معينة، ولذلك يلوحُ الإلحاد والشرك للأوربي، مثلًا، أمرين تفصل أحدهما عن الآخر هُوَّة عميقة مع أنهما لا يبدوان للهندوسي إلا أمرين يمكن التوفيق بينهما فتقرأ في كتبه فرضهما عليه.

وأمور كفقدان الضبط وتموُّج الفكر، وإن كانت تُحتمل في الإلهيات والأشعار والقصائد الدينية، تُضْحِي ثقيلة غير سائغة عند تطبيقها عل الموضوعات التي لا بد لها من الضبط، وأمور كتلك حالت دون مجاوزة الهندوس أدنى المراحل في العلوم الصحيحة، أَجَلْ، قد هضم الهندوس ما علَّمهم إياه العرب فيما مضى وما يُعَلِّمهم إياه الأوربيون في الزمن الحاضر، ولكنهم لم ينتهوا إلى اكتشافٍ واحد في ميدان المعرفة.

ومن آية عدم الضبط ذلك أنك لا تجد بين ألوف الكتب التي وضعها الهندوس في ثلاثة آلاف سنة من سنوات الحضارة كتابًا واحدًا يشتمل على تواريخ صحيحة، فاضطرَّ العلم الحديث إلى اتخاذ بعض الطرق المصنوعة كي يُعيّن تعيينًا تقريبيًّا الأزمنة التي ظهر فيها أشهر ملوكهم، ولا تسأل عن أنبائهم التاريخية، ففيها يتجلى لك استعداد الهندوس، عن حسن نية، لرؤية الأمور على غير ما هي عليه ورواية ما يشاهدونه محرَّفًا مبدَّلًا.

وإذا أردنا إجمال ما ورد في هذا الفصل عن الأخلاق المشتركة بين أكثرية الهندوس قلنا إن عوامَّهم ليسوا دون عوام الأوربيين، وإنه ليس

عندهم ما عند الأوربيين من أصحاب النفوس العالية، وإن معظمهم عاطلٌ من النشاط والثبات والإرادة، وإنهم مقسومون إلى عدة طوائف مؤلفة من ألوف الزُّمَر التي ترى لكل واحدة منها جنسية خاصة ذات مصالح تختلف عن مصالح الأخرى، وإن أحوالًا كهذه تُفسِّر الدور الذي مثلته الهند على مسرح العالم والذي ستمثله، فالهند، إذ كانت أَمَةً منذ الأزل كُتِبَ عليها أن تخضع لسادةٍ من الأجانب على الدوام.

تم البحث في البيئات والعروق التي هي عوامل حضارة إحدى الأمم الأساسية، وقد تجد عوامل أخرى في تطور هذه الحضارة، ولكنها تستند إلى البيئات والعروق على الدوام، ونحن، إذ فرغنا من بحثنا التمهيدي، ندرس الحضارات التي أينعت في الهند والتطورات التي اعتورتها في غضون الأجيال.

الباب الثالث: تاريخ الهند

الفصل الأول

تاريخ الهند قبل المغازي الأوروبية

(١) مصادر تاريخ الهند

ليس للهند القديمة تاريخ، وليس في كتبها وثائق عن ماضيها، ولا تقوم مبانيها مقام الكتب ما دامت لا تزيد في القِدَم عن ثلاثة قرون قبل الميلاد، ولولا ما في قليل من الكتب الدينية من أكداس الأساطير التي يُستشفُّ منها بعض الحوادث التاريخية؛ لظل ماضي الهند مجهولًا جهل ماضي جزيرة الأطلنتيد التي مُحيت بانقلاب جيولوجي فجاء ذكرها في الأساطير القديمة التي خلَّدها أفلاطون.

وأقدم المصادر التي يُرجع إليها في تبيُّن أثر للماضي المفقود أشعار ويدا الدينية التي كُتبت في أدوار مختلفة، والتي تصل في القدم إلى ما قبل القرن الخامس عشر من التاريخ الميلادي تقريبًا، ثم تأتي القصائد الحماسية المعروفة بمهابهارتا وراماينا وشريعة مَنُو الدينية والاجتماعية.

وليست آداب الهندوس في عصرنا بأغنى منها في العصر الذي قبله، والمصادر الوحيدة التي يمكن مراجعتها في هذا الأمر هي المجموعات التي ألفها البورانا، ووضعت في أدوار مختلفة لا تجاوز القرن الثامن بعد الميلاد، وملئت بالخرافات العجيبة، وعَطِلت من أي تاريخ عَطَلًا لا يستطيع العلم الحديث أن يستنبط معه كبير شيء، فالحق أن دور الهند التاريخي لم يبدأ إلا بعد المغازي الإسلامية في القرن الحادي عشر بفضل مؤرخي المسلمين.

ونُضيف إلى تلك المصادر الناقصة أقاصيصَ السياح الذين زاروا الهند في القرون القديمة، وهذه الأقاصيص قليلة جدًّا، وليس لدينا مما هو خاص بما قبل المسيح سوى مختارات من أحدوثة ميغاستين السفير اليوناني لدى بلاط مَغَدْها قبل الميلاد بنحو ثلاثمائة سنة، ولم ينتهِ إلينا عن الثلاثة عشر قرنًا التي انقضت بين ذلك الزمن القديم والمغازي الإسلامية غير قصتين للحاجَّين الصينيين فاهيان وهيوين سانغ اللذين

زار أولهما الهند في القرن الخامس وزارها الآخر في القرن السابع، وذلك خلا ما ورد في كتب المؤلفين من شُذُور، وَتُعَدُّ قصة ثاني ذَيْنِكَ الحاجين، على الخصوص، أهمَّ الوثائق التي وصلت إلينا عن الهند قبل الغزوات الإسلامية.

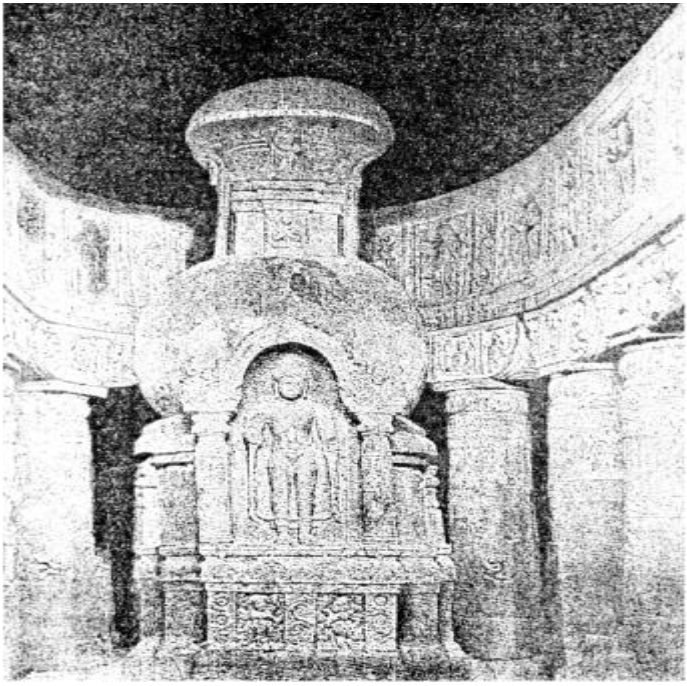

شكل ١-١: أجنتا. محراب معبد منحوت تحت الأرض، «يبلغ ارتفاع التمثال الكبير مترًا واحدًا و٦٠ سنتيمترًا.»

وما في كتب التاريخ من نقص كبير عن الهند يُسفر عن أهمية الآثار الماثلة كالمباني والتماثيل والنَّصَمات،[173] وأقدم هذه الآثار الأعمدة التي نَقَشَ أشوكا عليها مراسيمه قبل الميلاد بـ ٢٥٠ سنة، ثم يليها في القِدَم نقوش

173 النصمة: الصورة التي تُعبد.

المباني العظيمة كهارت وسانجي وغيرهما من التي أقيمت في القرن الأول من الميلاد أو قبله بقرنين أو أكثر، فمن يُنعم النظر فيها يظفر بفوائد كبيرة عن طبائع الشعوب التي أقامتها وعاداتها ومعتقداتها وفنونها ويَعْلَم درجة تمدُّنها.

وإلى تلك الآثار التي لا يكاد أقدمها يرجع إلى ما قبل ثلاثة قرون قبل الميلاد تضاف المعابد المصنوعة تحت الأرض والتماثيل والنقود التي تلقي ضوءًا على تاريخ البقعة التي أنشئت فيها، ومن ذلك أن كشفنا من بقايا التماثيل والمباني تأثير الإغريق العميق في بعض المناطق بعد الإسكندر بعدة قرون، أي بعد طرد الإغريق من الهند بزمن طويل، ومن ذلك أن نقوش المعابد تكشف لنا عن منشأ ما انتاب الهند القديمة من المعتقدات وتطور هذه المعتقدات.

وللدين أثر بالغ في الهندوس على الدوام كما في أمم الشرق، وبلغ الدين من الشأن العظيم في الهند ما نَقْدِر أن نتخذ به تطورات المعتقدات أساسًا لتقسيم تاريخي.

ويشتمل ذلك التقسيم الواسع، الذي لم تُحَدَّد فيه الأدوار لتداخلها أو لوجودها معًا، على الأعصر الآتية: العصر الويدي، العصر البرهمي، العصر البُدَّهي، العصر البرهمي الحديث أو عصر النهضة البرهمية، العصر الإسلامي، العصر الأوربي.

(٢) العصر الويدي

ترجع أوائل العصر الويدي إلى ما قبل القرن الخامس عشر قبل الميلاد، وآيتُها غزو الآريين للهند.

وَيُعَدُّ العصر الويدي عصر تاريخ الهند الخرافيّ، فكل ما نعرفه عنه من علم قليل هو ما تكشف عنه الكتب الدينية المعروف بالويدا، والتي أصيب في تسمية أهمها رِغ ويدا بتوراة آريي شمال الهند الغربي.

عاش قدماء الآريين الذين استوطنوا ما بين جبال هِمَالْيَة وجبال وِنْدهيَا في البداءة رعاةً أعرابًا، ومن المفروض أن قاموا بغزوهم شيئًا فشيئًا،

ويظهر أن أقدم كتبهم وُضِع قبل الميلاد بخمسة عشر قرنًا حين كانوا لا يعرفون نظام الطوائف وحين كانوا يعبدون قُوَى الطبيعة غيرَ مقيمين لها معبدًا ولا هيكلًا، وإلى الشعوب التي مَلَكوها جلبوا لغة وديانة جديدتين ولم يأتوها بفنِّ عمارة، فهؤلاء الآريون الفطريون، وإن كانوا قادرين على وضع الكتب، لم يكونوا عارفين بشَيْد المباني الحجرية، ولا شيء يدل في أقدم كتبهم على أنهم أنشئوا معابد وقصورًا.

وسنعود إلى العصر الويديِّ في الفصل الذي خصصناه لدرس الحضارة الآرية بالهند، فلا نرى أن نُسهب في بيانه الآن كما أننا لا نسهب في بيان العصر البرهمي الذي خُتِم به ذلك العصر فنعود إلى دراسة حضارته، وهذا إلى أن وثائق هذين العصرين التاريخية الصحيحة مفقودة، وما انتهى إلينا من قصائد العصر البرهمي التي أيدتها أحدوثة ميغاستين يُثبت أن الهند أخذت في العصر البرهمي تغطَّى بالمدن والمعابد والقصور، وإن لم يصل إلينا أي طلل لمبانيه.

(٣) العصر البُدَّهِي

يرجع ظهور البُدَّهِيَّة في الهند إلى الأساطير أكثر مما إلى التاريخ، فلا نعرف عن عصرها الأول غير ما ورد في الكتب البُدَّهِيَّة من الأحاديث الخيالية، ثم أخذ صريح الحوادث يبدو والإبهام ينجلي بعد مغازي الإسكندر، ولا سيما حين أضحت البُدَّهِيَّة دينًا رسميًّا قبل المسيح بنحو ٢٥٠ سنة، ثم عاد الغموض بعد زمن قليل مع الأسف، وبقي على ما كان عليه عدة قرون.

وقع غزو الإسكندر في سنة ٣٢٧ قبل الميلاد، فلما أتمَّ الإسكندر فتح بلاد فارس عزم على فتح الهند لكي يصبح سيد آسيا.

وما كان من انقسام منطقة البنجاب إلى عدة دويلات مستقلة متنافسة يَسَّر للإسكندر بدء فتحه للهند، والإسكندر حضر إلى الهند على رأس جيش مؤلف من ١٢٠٠٠٠ مقاتل، وكانت نواة هذا الجيش من الإغريق وسياجه من الفرس، وكان لديه أدِلَّاء من الهنود، وكان على اتفاق مع

رؤساء لسكان البلاد الأصليين ولا سيما مع ملك تاكشيلا الواقعة بين نهر السِّنْد ونهر جهيلم الذي كان يعرف بنهر هيداسبس.

زحف الإسكندر من بقطريان إلى مدينة كابل ثم سار إلى الهند فعبر نهر السِّنْد فاعترض له بورس ملك ما بين هيداسبس وجناب فهزم هذا الملكَ، ثم حالفه تاركًا له مملكته؛ فخضع له إذ ذاك عدَّة ملوك ولا سيما ملك كشمير.

ثم زحف الإسكندر بعد عدة وقائع ضد رؤساء من الأهالي إلى نهر هيفاس «المعروف اليوم بنهر بياس»، فلم يوافقه جيشه على السير إلى ما وراءه، فأقام على ضفافه اثني عشر هيكلًا تذكاريًّا؛ لتكون علائم على نهاية الغزو، فلما عاد إلى ضفاف هيداسبس أنشأ أسطولًا فنزل به إلى حيث يصبُّ في نهر السِّنْد، ولم يفتأ الإسكندر يحارب إلى وصل إلى بتيالة الواقعة على مصب نهر السِّنْد فأرسل أسطوله إلى الخليج الفارسي بقيادة نيارك وسار على الشاطئ، ثم قسَّم جيشه إلى فيلقين فأعاد أحدهما من طريق كرمان إلى بلاد فارس بقيادة كراتر ورجع بالآخر من طريق جدروزيا «السِّنْد»، ثم وصل ذلك الأسطول إلى الخليج الفارسي، وتلاقى الإسكندر وكراتر فأقيمت الأعياد ابتهاجًا بالعودة من الغزو.

ولو نظرنا إلى غزوة الإسكندر من ناحية الفتح لقلنا إنها غير ذات نتائج لتلاشي الحاميات الإغريقية التي تركها في الهند في بضع سنين، بَيْدَ أنه كان لتلك الحملة نتائج طيبة لِوَصْلِها أوروبا بالهند لأول مرة.

اغتنم الملك الهندوسي جَنْدَر غُبْتَا «المعروف لدى الإغريق بساندرو كوطوس» فرصة رجوع الإسكندر، وكان ابنًا لأحد زعماء البَنْجَاب الذين شتَّت الإسكندر شملهم، فوسَّع رقعة مملكته في شمال الهند بالتدريج، مُنَكِّلًا بالحاميات الإغريقية جاعلًا باتلي بوترا «بتنة الجديدة» عاصمة لمملكة مَغَدْها، ولم يلبث أن ذاع صيته فأرسل نيكاتور السلوقي، الذي ملك بعد وفاة الإسكندر سورية وبلاد بابل والولايات الواقعة بين نهر الفرات ونهر السِّنْد، حوالَيْ سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، سفيرًا إلى بَلَاطه اسمه ميغاستين، فأقام هذا السفير الإغريقي زمنًا طويلًا بباتلي بوترا، فمن

القصة التي ألفها هذا السفير فانتهى إلينا جزء منها اطَّلعنا، لأول مرة، اطِّلاعًا صحيحًا على طبائع الهندوس وعاداتهم في ذلك الزمن.

ولم تقتصر علاقات الإغريق بالهندوس على غزوة الإسكندر ولا على سفارة ميغاستين، فاليوم نعلم، مع سكوت المؤرخين، وذلك من النقود وبقايا المباني التي انتهت إلينا، أن خلفاء الدولة الإغريقية البقطريانية التي أقامها نيكاتور السلوقي فتحوا البَنْجَاب وشادوا عدة ممالك ووصلوا إلى مترا، وأن أفَّاقًا اسمه مينانْدر أسس سنة ١٢٦ قبل الميلاد مملكة بين نهر جَمْنة ومصب نهر نَرْبَدَا.

والنقوش والنَّصَمَات[174] والنقود هي كل ما انتهى إلينا من تلك الممالك الإغريقية في الهند، فمنها نعلم أن هذه الممالك زالت أمام مغازي الشيث حوالي الميلاد، وأن هذه المغازي بدأت في القرن الذي جاء قبل الميلاد، وأن الشيث استولوا على شمال الهند الغربي فأقاموا مملكة اشتملت على بقطريان وضفاف السِّنْد والبَنْجَاب وقسم من راجبوتانا، وأن أَجَل هذه المملكة كان قصيرًا ما احتمل طَرْدُ الشيث من الهند في أوائل القرن الأول من الميلاد.

ولنَدَعْ جانبًا هذا الجزء الغامض من تاريخ الهند الذي بعثته المباحث الحديثة ولنأْتِ إلى جَنْدَر غبتا وخلفائه.

يُدعى حفيد جَنْدَرْ غبتا بِأشوكا الشهير الذي تقلَّد الملك سنة ٢٥٠ قبل الميلاد تقريبًا، ومما جاء في بعض الأساطير البُدَّهِيَّة أن أشوكا هذا قتل إخوته المائة الذين وُلدوا لأبيه من ست عشرة زوجة، فأَمِن بذلك أمر منافستهم له، فبسط ملكه على جميع شمال الهند، وتتضح حدود مملكته من الكتابات التي لا تزال موجودة، فمنها نرى أنها قامت بين أفغانستان والبنغال وهِمَالْيَة وَنَرْبَدَا، وأنها تاخمت مملكة الإغريق في بقطريان من الغرب.

174 النَّصْمة: الصورة التي تُعْبَد.

وبُدئ تاريخ الهند المعماري بالملك أشوكا، ولا يزال كثير من العَمَد التي رفعها لتُنْقش عليها مراسيمه قائمًا، وأشهر هذه الآثار، كالموجودة في بهارت وسانجي وبدَّهة غيا ذات النقوش البارزة المعتبرة في تاريخ البُدَّهِيَّة، صُنع في أيام ملكه أو بعدها بزمن قليل، ولم ينتهِ إلينا شيء من القصور التي أنشأها، ونفترض، مع ذلك، أنها جميلة جدًّا، فقد روى الحاج فاهيان، الذي رأى أطلالها وأطلال برج قصره في باتلي بوترا، أنها من الأعاجيب التي يعجز عن صنعها إنسان.

وأشوكا ذلك هو الذي جعل من البُدَّهِيَّة دين الهند الرسمي، وكان على جانب عظيم من الحَمِيَّة الدينية فأرسل مبشرين إلى كل ناحية، حتى سيلان، حتى مصر بالقرب من بطليموس فيلادلفيا.

ودام مُلك آل مورية الذين كان أشوكا أهم رجالهم نحو قرن ونصف قرن، أي بين سنة ٣٢٥ وسنة ١٨٨ قبل الميلاد، فبعد أن أُديل منهم انقسمت الدولة التي شادها أشوكا إلى عدة دُويلات ذوات ملوك مستقلين، واستطاعت مملكة مَغَدْها أن تدوم، مع ذلك، إلى القرن السادس من الميلاد مقتصرة على البقعة التي تعرف في عصرنا بهار، وتجد في القوائم التي وضعها البورانا أسماء ملوك مغدها لمدة ألف سنة، ولكن هذه القوائم غير موثوق بها.

والوثائق الوحيدة التي انتهت إلينا عن الهند بعد عهد أشوكا حتى الغزو الإسلامي هي المباني وأساطير البورانا، فهذه الوثائق وما يضاف إليها من أحاديث الحاجَّين الصينيين هي كل ما نستطيع أن نتمثَّل به حضارة الهند في ذلك الدور الطويل.

ولم يظهر في أثناء ذلك الظلام الدامس الذي دام اثني عشر قرنًا غيرُ قليل من الرجال ذوي الخطر فخلَّدت أحاديث الهند ذكراهم، وأشهر أولئك هو الرجل الأساطيري وكرماديته الذي كان ملكًا لِمَالَوْا ومقيمًا بأوجين بالقرب من نَرَبْدَا، ففي تلك الأحاديث أنه بسط ملكه على بلاد الهند إلى أقصى جنوب الدَّكَن، وعلى ما في تاريخه من روح الأساطير نرى أنه مثَّل

دورًا مهمًّا، فأرَّخ الهندوس سنة جلوسه فافترضوا أنها سنة ٥٧ قبل الميلاد، فاتخذوها مبدأ للتاريخ المعروف بسَمْوَا.

ومن دواعي الأسف أنْ خَلَت تواريخ الهندوس من الضبط، شأن الهندوس في كل أمر، فمن البحث الدقيق في المباني والكتابات الحجرية يثبت لنا أن وِكْرَماديته كان يملك بعد التاريخ المدوَّن في الكتب بستمائة سنة.

وإلى هذا البطل تعزو الأساطير طرد الشيث من الهند، والشيث كانوا قد أوغلوا بين إغريق بقطريان قبل الميلاد بقرنين فأخضعوهم، ثم انتحل أحد ملوكهم كِنشكا البُدَّهِيَّة فأقام قبيل الميلاد دولة اشتملت على أفغانستان والبَنْجَاب وراجبوتانا، ولا نعلم عن تاريخ الشيث في الهند غير أنهم نشروا الفن الإغريقي فيها، كما يشهد بذلك بعض التماثيل بمترا.

ونذكر من معاصري وكرماديته، وذلك بحسب الكتابات التي فسَّرها كننغهم، الراجه هَرشاوَردهان الذي دام ملكه من سنة ٦٠٧ إلى سنة ٦٤٨ فقص علينا الحاج الصيني هوين سانغ الذي زار الهند سنة ٦٣٤ أنه من أقوى ملوك شمال الهند، وكانت مدينة قَنُّوج التي هي من أقدم مدن الهند عاصمته، وهذه المدينة ظلت مقرًّا لآل غبتا مدة طويلة، ويُفترض أنها من مُهُود[175] الحضارة الآرية، فذكرها بطليموس سنة ١٤٠ بعد الميلاد باسم قَنُّوجيا، وكانت المملكة التي اتخذتها عاصمة لها في زمن هيوين سانغ تمتد من كشمير إلى آسام ومن نيبال إلى نَرْبَدَا.

وتقع قَنُّوج في غرب أغرا، وتبعد من نهر الغَنْج بضع كيلو مترات، وأجمعت الأنباء على مدح جلالها، وأُعجب السلطان محمود الغزنوي بها أيما إعجاب وقتما هجم عليها سنة ١٠١٦ من الميلاد فرآها حينما دنا منها، على رواية فرشتة، «مدينة تناطح السماء بحصونها ومبانيها جديرةً بأن تفتخر بأنها لا نظير لها.»

ولم يبقَ من هذه العاصمة القديمة التي كان طولها خمس كيلو مترات، على قول هيوين سانغ، حجر ينبِّئُنَا بتاريخها، وبلغ خراب مبانيها التي كانت

175 مهود: جمع مهد.

قائمة قبل الغزو الإسلامي مبلغًا لم يقدر كننغهم معه أن يجد طللًا منها على ما قام به من بحث واستقصاء، وكل ما استطاع كننغهم أن يلاحظه من قديم في مدينة قَنُّوج القديمة هو كتابةٌ يرجع تاريخها إلى سنة ١١٣٦ ميلادية، أي إلى ما بعد الفتح الإسلامي بزمن طويل، وما تراه فيها من المباني فجميعه أقيم في العصر الإسلامي وإن بُني بعضه من أنقاض المباني الهندوسية القديمة.

وقَنُّوج هي من كُبريات العواصم القديمة التي لا نعرف تاريخها إلا من بعض الروايات المبهمة وبعض الكتابات، ولا يجوز أن يُعزى إلى خيال الأدباء وحده ما وُصفت به عظمة هذه العواصم بعد أن شاهدنا بقايا بعضها الذي نجا من التخريب كمدينة كهجورا مثلًا.

كانت قَنُّوج وكهجورا ومهوبا وغيرها من المدن المشهورة، التي لم يَبْقَ منها سوى الاسم أو الأطلال، عواصم لدول قوية، وأشهر هذه العواصم ما كان يملكها ملوك من العِرْق الراجبوتي الذي لا نزال نرى منه أُسرًا مالكة فحافظ على نظمه وعاداته إن لم يَصُن استقلاله، ومن المحزن أن بدأنا نعلم تاريخ الراجبوت بعد أن أخذوا يتصادمون هم والمسلمون، أجَلْ، استطاع المسلمون أن يُخرِّبوا عواصمهم وأن يدحروهم إلى مناطق راجبوتانا الجبلية الوعرة، غير أنهم لم يخضعوا لهم إلا ظاهرًا.

ذلك العصر الذي دام من زمن خلفاء أشوكا إلى زمن النهضة البرهمية فإلى المغازي الإسلامية هو، إذن، كالعصر الذي جاء قبله غموضًا، فلولا ما بقي من مبانيه لجهلنا أمره تقريبًا.

(٤) العصر البرهمي الجديد

ليس لدينا وثائق تاريخية عن عصر النهضة البرهمية أو العصر البرهمي الجديد، فالنقود والمباني هي المصادر الوحيدة التي يُرجع إليها في تَنَوُّره.

ومن المحتمل أن شرع نفوذ البرهمية القديمة، الذي لم يَغِبْ تمامًا، يبدو أيام آل كبتا الذين بسطوا سلطانهم على شمال الهند في القرن الخامس من الميلاد، ففي نقود ملوك قَنُّوج ودهلي ومهوبا ذكرٌ للعودة إلى المعتقدات

القديمة، وفي القرن الخامس والقرن السادس لم ينفك نجم البُدَّهِيَّة عن الأفول، فلما حل القرن السادس نَدَر شَيْدُ مبانٍ بُدَّهِية، ولما حل القرن الثامن غابت البُدَّهِيَّة عن الوجود تقريبًا، وسندرس في فصل آتٍ سرَّ هذا الغياب مستندين في ذلك إلى المباحث التي قُمنا بها في الهند.

وأخذ يظهر مذهبٌ جديد اسمه الْجَيْنِيَّة حينما بدأ ذلك الماضي المظلم ينجلي، ولكن معظم الهند قد شُطِر بين ديانة وِشنو وديانة شِيوا، ولم يَعْدُ حدَّ النظر محافظة البرهمية الجديدة على الآلهة القديمة، فما بين هذه الديانة الجديدة والديانة القديمة من فرق عظيمٌ جدًّا؛ فالبرهمية الجديدة هي، بالحقيقة، مزيجٌ من قديم المذاهب الويدية والمعتقدات البُدَّهِيَّة ومختلف الخرافات الأجنبية.

ولم يقطع عصر البرهمية الجديدة التي خَلَفَت البُدَّهِيَّة في الهند في القرن السابع أو القرن الثامن من الميلاد بفعل الغزوات الإسلامية، فالهند، وإن خضعت لأتباع النبي وكثير من الهندوس وإن رضوا بالإسلام دينًا كما يدل عليه وجود خمسين مليون مسلم في الهند، حافظ معظم أهاليها على دينهم القديم، ولا يزالون يزاولون شعائره حتى الآن.

(٥) العصر الإسلامي

مارس المسلمون في الهند مثل النفوذ العميق الذي مارسوه في جميع أقطار العالم التي فتحوها، ولا أمة، كالمسلمين، تم لها من النفوذ البالغ ما تمَّ للمسلمين كما أثبتناه في كتابنا «تاريخ حضارة العرب»، ولا تستثن الرومان من ذلك، ففي مدة سلطان المسلمين الذي دام في الهند سبعة قرون غيَّرَ فريق كبير من الشعب الهندوسي دينه ولغته وفنونه تغييرًا عظيمًا، وظل هذا التغيير باديًا بعد زوال ملكهم، فعلى ما تعلَمه من عدم تأثير الغزو الإغريقي للهند وعلى ما تراه من تَفَهِ النفوذ الإنجليزي في الهند تجد فيها خمسين مليونًا من الهندوس يدينون بدين محمد.

ترجع غزوات المسلمين الأولى للهند إلى القرن السابع، ولم تكن هذه الغزوات سوى غارات موقَّتة، ولكنها لم تُسفر عن استقرار دائم، وفي

أوائل القرن الحادي عشر فقط بدأ غزو المسلمين الجِدُّ للهند بقيادة محمود الغزنوي.

محمود الغزنويُّ هذا من سلالة أفَّاق تركي أنشأ إمارة مستقلة في مدينة غَزْنَة الجبلية الواقعة في جنوب كابُل الأفغانية، فلما زحف إلى الهند كان شمالها الغربي مقسومًا بين أمراء كثيرين من الراجبوت معترفين لراجه دهلي بالغَلَب والتفوق، وكان راجه قَنُّوج الذي هو سليل راما يملك إمارة أَوَدْهَة وإمارة وادي الغَنْج، وكان آل بال يملكون البنغال وبهار، وكان خلفاء وكرماديتة يملكون ملوا، وكان جنوب الهند يشتمل على الممالك الهندوسية الثلاث التي سنتكلم عنها في مكان آخر: جيرا وجولا وبنديا.

لم يُوطِّد محمود الغزنوي سلطانه بسهولة، فقد قاومه الراجبوت، ولا سيما ملك لاهور أشد مقاومة، وما لاقاه من المصاعب الكبيرة غير التي لاقها الإسكندر، فلم تقلَّ الحملات التي قام بها بين سنة ١٠٠١ وسنة ١٠٢٦ لإخضاع شمال الهند عن سبعَ عشرةَ حملة، ووصل في غزوه إلى الكجرات حيث انتهب معبد سومنات، ولكنه لم يحتفظ بغير البَنْجَاب، فظل الراجبوت مستقلين تقريبًا، ثم سار خلفاؤه على سنته في التوسع فهاجر الراجبوت إلى منطقة راجبوتانا الجبلية الصعبة حيث أسسوا دولًا لم تخضع بالحقيقة لأحد ولا للمغول، وهي لا تزال ملك كثير من الأسر الراجبوتية المالكة.

وما تم على يد محمود الغزنوي من فتح فذو طابع ديني سياسي، فمحمود الغزنوي كان مسلمًا متين العقيدة توَّاقًا إلى رفع شأن الشريعة النبوية، فأعلن في كل مكان أنه ناشر لدين العرب وحضارتهم، فأنعم خليفة بغداد عليه بلقب يمين الدولة.

وكانت الهند تتمتع، حين أوغل محمود الغزنوي فيها، بما لا عهد لها بمثله من الوَفْر واليُسْر، وما لا يزال قائمًا فيها من المباني والآثار يُثبت أن وصف أدباء الشرق لها بعيدٌ من المبالغة، وما كان يقع بين ملوكها المحليين من الحروب لا يُؤَدِّي إلا إلى تبديل مواضع خزائنها وكنوزها من غير أن تخرج منها، مع أن ما عُرِّضت له منذ قرن من امتصاصها المنظم قد نهكها تمامًا.

وليس مما لا طائل فيه أن نُسهب في ذلك الأمر لنطلع على سر غنى المباني التي نصفها في هذا السِّفْر، فلم يجد مؤرخو الشرق، حتى محمود الغزنوي نفسه، من التعابير ما يعربون به عن إعجابهم بها.

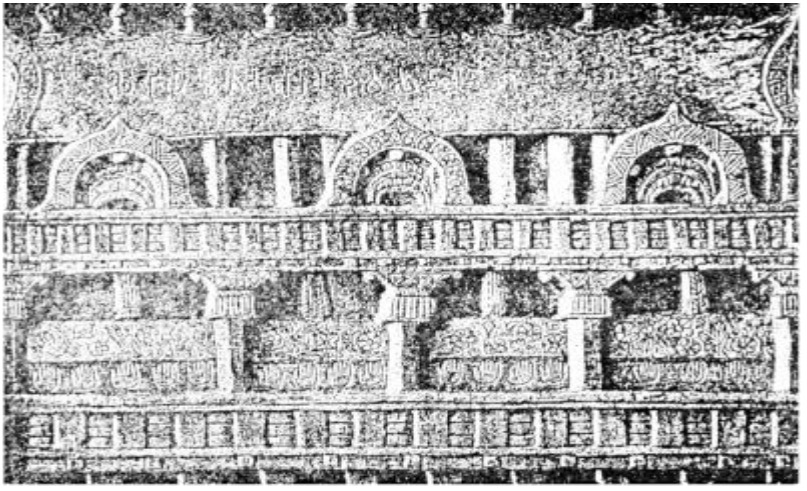

شكل ١-٢: بهارت. نقوش بناء هندوسي أقيم في القرن الثاني قبل الميلاد تقريبًا.

فلما فتح محمود الغزنوي مدينة مترا سنة ١٠١٩ بهرته أُبَّهَتُها فكتب يقول: تحتوي مدينة مترا العجيبة على أكثر من ألف من المباني المتينة متانة أهل الإيمان، والمصنوع أكثرها من الرخام، وإذا عُدَّ المال الذي أُنفق على إنشاء هذه المباني بلغ ألوف الألوف من الدنانير فضلًا عن أنه لا يقام مثل هذه المدينة في أقل من قرنين، ووجد جنودي في معابد المشركين خمسة أصنام من الذهب ذوات عيون من ياقوت أحمر تساوي قيمته خمسين ألف دينار، ووجدوا فيها صنمًا آخر مزخرفًا بما زِنَتُه أربعمائة مثقال من الياقوت الأزرق، ووجدوا فيها، فضلًا عن ذلك، نحو مائة صنم من الفضة يعدل وزنها حمل مائة بعير.

رأى محمود الغزنوي مثل تلك العجائب في جميع المدن التي دخلها، ولا سيما في قَنُّوج التي كان لها أن تباهي بأنها فريدة بمبانيها كما روى فرشتة الذي ذكرناه آنفًا، فوجد في أثناء الحملة التي قام بها سنة ١٠٢٤ لهدم معبد سومنات بالكجرات على الخصوص، معبدًا عجيبًا ذا ستة وخمسين سارية مصفحة بصفائح من ذهب ومرصعة بالحجارة الكريمة، وذا ألوفٍ من التماثيل المصنوعة من الذهب والفضة والمحيطة بهيكله، وذا صنم ضخم قائم في وسطه مشتملٍ في جوانبه على مقدار كبير من الحجارة الكريمة، وذا حَشَمٍ مؤلفين من ألفي برهمي وخمسمائة راقصة وثلاثمائة موسيقي، ويقدَّر ما غنمه المسلمون من الكنوز في تلك الأثناء بنحو ٢٥٠ مليون فرنك أي بمبلغ عظيم جدًّا في ذلك الزمن.

ولم يقلَّ دَهَش خلفاء محمود الغزنوي عنه تجاه الثروات والعجائب التي لاقوها في كل مكان بالهند، فقد هدم محمود الغوري أصنام ألف معبد ببنارس وحمَّل أربعة آلاف بعير من الغنائم التي استولى عليها، وبلغ ما حمله جنود المسلمين في حملتهم الأولى التي قاموا بها في الدَّكَن من الذهب الكثير ما تركوا معه الأدوات الفضية لِثِقَل نقلها، فلم تكن أواني المعابد وبيوت الأغنياء مصنوعة إلا من الذهب الخالص، ولم يكن الناس ليتداولوا غير النقود الذهبية على عكس ما يقع في أيامنا.

ودام سلطان آل محمود الغزنوي الأفغان في غزنة ولاهور من سنة ٩٩٦ إلى سنة ١١٨٦ حين طردهم محمود الغوري رأس أسرة الأفغان الثانية، فسلك محمود الغوري هذا في فتوحه مسلكًا بسيطًا كُتب له التوفيق به كما كُتب لخلفائه، ومنهم الإنجليز، من بعده، فقام ذلك على التدخل فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من نزاع وعلى الاستفادة من تنافسهم بإضعافهم، ثم بالاستيلاء على ممالكهم، فهو بعد أن توسَّط حليفًا في نزاع كان يفرق بين ملوك دهلي وقَنُّوج جمع مملكتيهم وألَّف منهما دولة واسعة يحدها بنارس من الشرق وغواليار وكجرات من الجنوب جاعلًا مدينة دهلي مقرًّا للحكومة.

مات محمود الغوري فأعلن أحد ولاته قطب الدين استقلاله فأضحى قطب الدين هذا رأسَ الأسرة الأفغانية المعروفة بأسرة الملوك المماليك التي دام سلطانها من سنة ١٢٠٦ إلى سنة ١٢٩٠، وإلى قطب الدين هذا يُعزى إنشاء «منارة قطب» بدهلي.

والملك ألتَمَش هو أشهر ملوك هذه الأسرة، ويعدُّ مزاره الفخم من أشهر مباني دهلي، ودام عهده من سنة ١٢١١ إلى سنة ١٢٣٦ فحارب في أثنائه عدة مرات ضِدَّ غارات المغول وفتن القبائل المحلية.

أُدِيل من الأسرة الغورية فقامت مقامها أسرة أخرى يُعَدُّ علاء الدين من أشهر ملوكها «١٢٩٤–١٣١٣»، لِما اتسع به مدى الفتوح الإسلامية في عهده، ولما كان له من الذوق في الفن المعماري مثل ما كان لأسلافه كما يشهد بذلك الباب المنقوش الذي يحمل اسمه بدهلي.

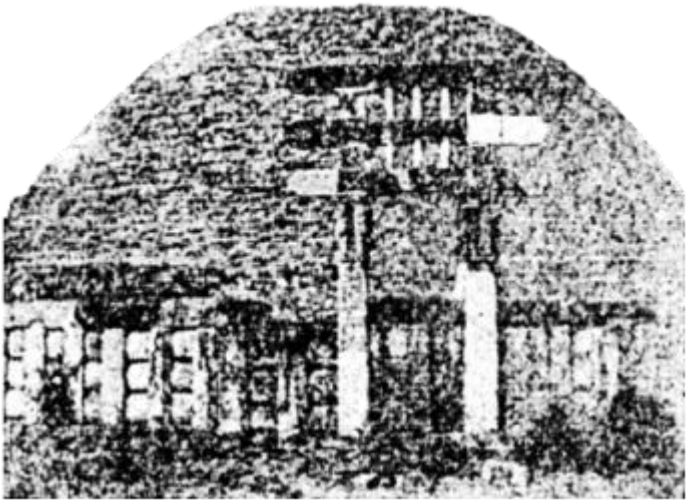

شكل ١-٣: سانجي. منظر معبد مقبب، «من المحتمل أن يكون هذا المعبد قد أنشئ بين القرن الثالث قبل الميلاد، وقد أنشئ السياج المحيط به

والأبواب الكبيرة المؤدية إليه في القرن الأول من الميلاد»، «يبلغ ارتفاع القبة نحو ١٧ مترًا ويبلغ قطرها ٣٤ مترًا.»

ومن سوء حظ هذه الأسرة الجديدة أن تفاقم خطر المغول الذين جُنِّدوا في جيشها الملكي شيئًا فشيئًا، فلم يلبث زعيم هؤلاء المرتزقة أن أسس أسرة أفغانية مالكة خامسة «١٣٢٠–١٤١٤» اشتهر منها فيروز وطوغلق، وامتاز ملوكها بالطابع الذي وُسموا به فن العمارة.

وفي سنة ١٣٩٨، أيام ثاني ذَيْنِكَ الملكين، أغار تيمور لنك على الهند فسلب دهلي فجاب الهند كإعصار فعاد إلى بلاده.

وكان الولاة يحاولون الاستقلال أيام انهماك ملوك دهلي في الحروب فوفّق أكثرهم له فشادوا عدة ممالك، فتنافست عواصمها في البهاء، وزيَّنت أجيادها بقلائد من المباني التي لا يزال عددٌ كبيرٌ منها قائمًا.

سادت الفوضى بعد غارة تيمور لنك، فحاول الولاة الذين استقلوا بالولايات الإسلامية أن يصبحوا أصحاب دهلي، فتمكن اللودي، حكام لاهور، من الاستيلاء عليها في سنة ١٤٥٠ فأسسوا أسرة أفغانية مالكة سابعة دام سلطانها إلى سنة ١٥١٧.

ففي تلك السنة سلك حاكم لاهور الجديد تلك السُّنَّة فأراد الاستقلال، فرأى إبراهيم لودي أن يحمله على الخضوع فاستغاث بملك كابل المغولي بَابَر الذي هو من حفدة تيمور لنك وجنكيز خان، فأبصر بابر هذا أن فرصة فتح الهند سَنَحَت، فلَاح له اهتبالُها فزحف إليها بجيش مؤلَّف من ١٢٠٠٠ رجل فغَلَب جيش لودي المؤلَّف من ١٠٠٠٠٠ رجل فاستولى على دهلي وعلى جميع شمال الهند.

بابر ذلك هو مؤسس آل الملك المغولي بالهند، وهو الذي استطاع أن يُدَوِّخها، ثم مات في أغرا سنة ١٥٣٠ بعد أن أصبحت أفغانستان وهندوستان قبضته.

حافظ جنوب الهند على استقلاله في معظم الدور الإسلامي الأول الذي لخَّصناه آنفًا، وذلك خلا القسم المتوسط المجاور لنِرْبَدَا الذي استولت

عليه الدول الإسلامية المستقلة، ولم تخضع الهند بأَسْرها لسلطان واحد إلا في الدور الأخير من الدولة المغولية، وذلك لوقت قصير جدًّا، ففي شمال الهند ووسطها، إذن، مارَسَ بابر وخلفاؤه ملكهم.

اضطر همايون «١٥٣٠–١٥٥٦»، ابن مؤسس الدولة المغولية بالهند، إلى الجهاد طويلًا، فأكره على الجلاء عن أغرا إلى السِّنْد حيث تزوج امراة فارسية فرُزق منها في سنة ١٥٤٢ ابنه الذي اشتهر بالمَلِك أكبر فيما بعد، ثم ثبَّت دعائم مملكته فاستردَّ ما خسره فمات بالقرب من دهلي حيث لا يزال ضريحه ماثلًا.

وفي زمن خليفة همايون، الملك أكبر «١٥٥٦–١٦٠٥»، تجلت عظمة الدولة المغولية بالهند، فقد حاول هذا الملك إدغام الهندوس بالمسلمين فتزوج أميرات هندوسيات، واتخذ وزراء له من المسلمين والهندوس معًا، وأراد مزج فَنَّيْ عمارة كلتا الأمتين، ونستطيع أن نتبين مقاصده من المباني التي شادها وإن سكت التاريخ عنها، وَيُعَدُّ عهده الذي دام خمسين سنة من أنضر العهود الجديرة بأطيب الذكر، ونرى النُّظُم التي انتحلها من أكثر النُّظُم ملاءمة للشعوب التي ملكها، وكُتب لكثير من هذه النُّظُم البقاء بعده، وقلَّدها الإنجليز في الغالب.

وأكبرُ، إذ كان مرتابًا وكان يَعُدُّ الهندوس والمسلمين من المتعصبين، احترم ديانتهم، وشجَّع بإنصاف إقامة معابد لجميع الأديان، وخُيل إليه أن يصهر الأديان في دين واحد فحَبِط ما سعى إليه.

والملك جهانكير «١٦٠٥–١٦٢٨» من النوابغ أيضًا، وإن كان دون أبيه أكبر أهميةً، وهو، إذ كان مرتابًا كأبيه مُتَحَلِّيًا مثله بخلق التسامح، سار على سياسته فتزوج نساءً مسلماتٍ هندوسيات، فعامل هاتين الأمتين بإنصاف، وكان للنصارى الذين بلغ عددهم ستين شخصًا في عاصمته نصيب من رعايته.

ولم يكن ابنه شاهجهان الذي خَلَفه سنة ١٦٢٨ فدام سلطانه إلى سنة ١٦٥٨ متسامحًا مثله، فقد حذف من فن العمارة ما استطاع حذفه من المؤثرات الهندوسية كما يدل على ذلك ما شاده من المباني.

وفي سنة ١٦٣٧ استقر شاهجهان بدهلي، وأنشأ فيها القصر الفخم الذي لم يسمح الإنجليز بغير بقاء جزءٍ منه، فيُعَدُّ، مع ذلك، من أجمل مباني الدنيا.

وفي عهد شاهجهان أقيمت أشهر مباني المغول فنذكر منها تاج محل ومسجد اللؤلؤ بأغرا والقصر والمسجد الكبير بدهلي، إلخ.

وخَلَفَ أورنغ زيب أباه شاهجهان في سنة ١٦٥٨ فدام ملكه إلى سنة ١٧٠٧، فكان يقيم بأغرا تارة وبدهلي تارة أخرى، وفاق أباه قلةَ تسامح تجاه الهندوس، وأدَّى بتعصبه إلى سقوط الدولة المغولية بالهند، وذلك أنه قضى على مملكة بيجابور ومملكة غول كوندا الإسلاميتين في الدَّكَن فقضى على الحاجز الأخير القائم أمام أعدائه الذين كان المراتها أهمَّهم، فأعدَّ بذلك انحلال دولته العظمى، فنحن لو عَدَدْنا أهمية الدولة بنسبة اتساعها لقلنا إن الدولة المغولية بالهند بلغت الأوْج في عهد أورنغ زيب، غير أنه كان ينطوي تحت هذا الاتساع بذور الانحطاط التي لم تلبث أن مَحَقَتْها، فهي لم تَعِش، بالحقيقة، بعد الملك الذي رفع شأنها.

دام العصر الإسلامي الذي أجملنا تاريخه بما تقدم نحو سبعمائة سنة، ولم تكن وحدة الهند في معظم هذا العصر الطويل الذي امتد إلى زمن أورنغ زيب في غير الظاهر، فقد أقام ولاة المسلمين ممالك مستقلة كمملكة غور ومملكة غولكوندا ومملكة بيجابور وغيرها من الممالك التي لا نرى البحث في أمورها؛ فالحق أن الهند لم تصبح قبضة سيد واحد إلا في أيام أورنغ زيب، وذلك لوقت قصير.

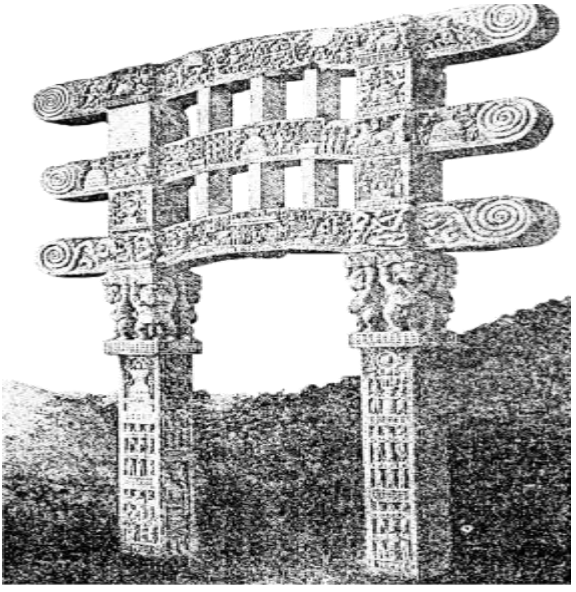

شكل ١-٤: سانجي. منظر باب بعيد قليلًا من المعبد المقبب «يبلغ مجموع ارتفاعه خمسة أمتار و٢٥ سنتيمترًا.»

لم تدم تلك الدولة الموحدة زمنًا طويلًا، فكان موت أورنغ زيب نذيرَ انهيارها، فلم يكد أورنغ زيب يُتوفَّى حتى وقعت الهند في الفوضى العميقة، فأخذ المراتها والأفغان والسِّك والجات والراجبوت وأمراء مسلمون يتلهَّون بالنِّهاب وباقتطاع ممالك مستقلة من الجثة الضخمة، فلم يبقَ لخلفاء أورنغ زيب الضعفاء سوى سُلطة اسمية، واسترد الدَّكَن استقلاله، فأنشأ الوزير نظامٌ فيه دولة لا تزال قائمة باسمه حتى الآن، واتخذ مدينة حيدر آباد عاصمة لها.

وفي سنة ١٧٣٩ أغار شاه الفرس نادرٌ على دهلي فغَصَبَ جميع ما جمعه المغول من الكنوز، فآب بغنائم تُقَدَّر بأكثر من مليار فرنك، وفي سنة ١٧٤٧ استولى الأفغان على لاهور والبنجاب، واغتنم المراتها الفوضى فنزعوا من الدولة أجمل ولاياتها.

ولم يكن زوال مُلك المغول كله وليدَ يوم واحد، فقد ظل جالسًا على عرش دهلي حفدة أولئك الملوك ١٥٠ سنة أخرى، بَيْدَ أن سلطانهم أصبح اسميًّا بالتدريج، فكانت خاتمة أمرهم أن أضحوا موظفين لدى الإنجليز، ولما أُسِر آخرهم في سنة ١٨٥٧ كان سلطانه أقل من ظل في المدينة التي كانت مقرًّا لآبائه.

وَنَعُدُّ غزوات المراتها من أقوى الأسباب في سقوطها دولة المغول بعد موت أورنغ زيب وتقسيمها إلى عدة ممالك، ونكاد نسدل على هذه الغزوات ثوبًا من النسيان لو كانت غارات انتهاب كالتي قام بها الفرس والأفغان، لا مغازيَ فتحٍ، فقد كان المراتها يجمعون الهند بأسرها تحت سيادتهم لو تم لهم النصر، فترى الهند نفسها إذ ذاك قبضة الهندوس لأول مرة منذ قرون كثيرة، فيتطلب الفتح الأوربي حينئذ جهودًا غير التي اقتضاها.

وكان المراتها يسكنون المنطقة المعروفة قديمًا بمهاراشترا والواقعة في الشمال الغربي من الدَّكَن وفي جنوب ولاية بَمْبِي الحاضرة مبتدئة من جبال ساتبور، وتجوب تلك المنطقة الجبلية فروعٌ من جبال كهات وجبال وِنْدهيَا فكان يقيم بها أناس جبليون لم يخضعوا للمسلمين إلا ظاهرًا.

بدا المراتها أعداء أشداء للدولة المغولية في سنوات أورنغ زيب الأخيرة، فما أظهره هذا الملكُ من قِلَّة التسامح حَمَلهم على شق العصا، فجمع الأفاق شيواجي المولود في جواربونا جيشًا من الأتباع، بعد أن قضى عمرًا في قطع السابلة، فاستطاع أن يقتطع مملكته التي لم تشتمل على غير جزء من مملكة بيجابور في بدء الأمر فلم يلبث أن وسَّع رُقعتها في معظم جنوب الهند، فمات أورنغ زيب قبل أن يقهره مع ما قام به من الحروب الطاحنة.

ومملكة بيجابور الإسلامية هي الحاجز المهم الذي كان يقي الدولة المغولية من المراتها، بَيْدَ أن أورنغ زيب هدم هذه المملكة فاستطاع المراتها أن يقوموا بالمغازي والغارات أحرارًا في كل مكان.

فَتَح المراتها، بعد موت أورنغ زيب، أكثر الولايات الهندية بالتتابع، ومثَّل أمراء المراتها المتحدون دورًا عظيمًا في نصف قرن، وإنهم لجادُّون في تدويخ

الهند بأسرها إذ وَقَفَتْهُم مغازي الأفغان الذين كسروهم سنة ١٧٦٠ في معركة باني بت الشهيرة حيث قُتِل ٢٠٠٠٠٠ رجل كما روي.

ومن نتائج غزوات الأفغان وتنافس أمراء المراتها وما اضطرَّ إليه هؤلاء من محاربة أمراء المسلمين المستقلين أن دبَّ الضعف فيهم، فاغتنم الإنجليز ذلك فاستطاعوا أن يقهروهم، والإنجليز وجدوا بين أولئك من قاتلوهم بعنف مع ذلك، ولم يُتم الإنجليز إخضاعهم إلا بعد أربع حروب انتهت في أوائل هذا القرن، ولا يزال بعض أمراء المراتها مالكين لإندور وغواليار على الخصوص، ولكنهم لا يتمتعون بشيء من السلطان السياسي على ما عندهم من جيوش كثيرة.

(٦) تاريخ جنوب الهند

جنوب الهند منطقة لا يرتبط تاريخها في تاريخ شمال الهند إلا عرضًا، ونحن إذ لم نسطع أن نطبِّق عليه تقسيماتنا العامة نرى أن ندرسه في مطلب مستقل.

قسَّم القدماء الهند إلى المنطقتين الكبيرتين: الهند الشمالية أو الهندوستان والهند الجنوبية أو الدَّكَن، واتخذ وادي نَرْبَدَا في الغرب والجبال المجاورة لِكَتَك على خليج البنغال فواصل لِتَيْنِكَ المنطقتين، واليوم لا يُطلِقون اسم الدَّكَن إلا على الهضبة الوسطى التي يحدها نهر نَرْبَدَا وجبال وِنْدهيَا شمالًا ووادي كرِشنا جنوبًا وجبال كهات الغربية غربًا وجبال كتك وجبال كهات الشرقية شرقًا.

وإذا عَدَوْتَ المسلمين وقليلًا من الآدميين القاطنين ببعض البقاع المعيَّنة وجدتَ سكان الدَّكَن القديمة من ذوي الجلود السمر الذين هم نتيجة توالد العروق السود الفطرية والغزاة الصفر الذين أتوا من التبت لا ريب والمغول الذين أتوا من الغرب، وهذا التوالد المكرر قد تم في عصور أقدم من عصرنا كثيرًا، واليوم يبدو سكان جنوب الهند، وإن شئت فقل الدراويد، من أكثر عروق الهند تجانسًا، فهم يدينون منذ اثني عشر قرنًا بديانة واحدة، ويتخذون فنونًا واحدة، ويتكلمون بلغات تكاد تكون واحدة.

ويظهر أنه لم يكن للبُدَّهية أثرٌ كبير في سكان جنوب الهند، وهذا الأثر، عند افتراض وجوده، قد زال بسرعة، فلا ترى بعد نهر كرشنا بناءً بُدَّهِيًّا.

وللجَيْنِيَّة أثرٌ أكبر من أثر البُدَّهِيَّة هنالك، فلا تزال تجد لها أشياعًا حول كانجي وَرَمَ وفي ميسور، وللإسلام أتباعٌ غير قليلين هنالك أيضًا، ولكن البرهمية ظلت ديانة الأكثرين من سكان جنوب الهند، ويقسَّم هؤلاء بين المذهبين: وِشنو وشِيوا، غيرَ أن معابدهم متماثلةٌ غيرُ مختلفة في سوى الرموز، فنرى لذلك، أن نضع، من الناحية المعمارية، أكثر مباني جنوب الهند في فصل واحد بدلًا من أن نصنفها بحسب المدن والممالك كما نضطر إليه في أمر مباني شمال الهند ووسطها.

وتاريخ جنوب الهند، إلى دور المغازي الإسلامية، أي إلى القرن الثالث عشر من الميلاد، أشد غموضًا من تاريخ شمال الهند، فلا تجد فيه آثارًا أدبية ككتب الويدا ومهابهارتا، إلخ، ولا يجاوز ما أُلِّف من الكتب بلغة التمول أو اللغات الدراويدية الأخرى القرن الثامن بعد الميلاد قِدَمًا، ولا يجاوز ما أقيم من المباني الحجرية وما نُقش من الكتابات الحجرية القرن الخامس بعد الميلاد قِدَمًا.

ونستنتج من تقاويم الملوك وفتوحهم التي أشير إليها في الكتابات الحجرية، وورود أسماء لممالك جنوب الهند في مراسيم أشوكا قبل الميلاد بثلاثة قرون، وذِكْرِ أسماء بعض المدن في كتب قدماء المؤلفين، وجود ممالك في جنوب الهند قبل الميلاد بخمسة قرون أو بستة قرون وإن كنا لا نستطيع قول شيء عن حضارتها، ومما لا مراء فيه، مع ذلك، أن جنوب الهند لم يتمدن إلا بعد شمالها بزمن طويل.

ويمكن تلخيص ما نعْرِفه عن ممالك جنوب الهند قبل المغازي الإسلامية بما يأتي: كان جنوب الهند مقسومًا، قبل الميلاد، إلى ثلاث ممالك كبيرة، مملكة بنديا ومملكة جولا ومملكة جيرا، وذلك بحسب أساطير الهندوس التي جاءت الكتابات الحجرية مصدقةً لها، وكانت مملكة بنديا تلك تقع في أقصى جنوب الهند، وورد ذكرها في المهابهارتا وفي مراسيم أشوكا وأحاديث ميغاستين، ويُرى، على العموم، أنها كانت موجودة في القرن

الخامس قبل الميلاد تقريبًا وإن لم ينتهِ إلينا شيء من تاريخها، واتخذت مدينة مدورا عاصمة لها، ومما لا شك فيه أن كان لسكان مدينة مدورا هذه علاقات بالرومان كما تدل عليه النقود الرومانية التي وجدت بالقرب منها.

ثم استولى بيت جولا المالك على مملكة بنديا حوالي القرن الحادي عشر من الميلاد فظل أمرها اسميًّا إلى منتصف القرن السادس عشر تقريبًا، فلما حلت سنة ١٥٥٩ استولى عليها راجه بيجانغر، وشيد في عهد الملك تيرومل «١٦٢٣–١٦٥٩» ما في مدورا من المباني.

وكانت مملكة جولا تقع في شمال مملكة بنديا وشرقها فتمتد من وادي كولرون ووادي كاويري إلى مستوى مدراس، ومن اسمها اشتُق جول مَنْدَلم الذي جعله الأوربيون كورومينديل.

ومن المحتمل أن تكون هذه المملكة قد قامت في الزمن الذي قامت فيه مملكة بنديا، فقد ذُكرت في مراسيم أشوكا وإن جهلنا تاريخها مثلما نجهل تاريخ بنديا، ونعلم، مع ذلك، أن ملوك جولا كانوا، كما جاء في الكتابات الحجرية، في عظيم يُسر ورخاء بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر من الميلاد، فقهروا جنوب الهند، وامتد سلطانهم إلى سيلان التي كانوا قد استولوا عليها في سنة ٢٥٠ قبل ظهور المسيح على حسب ما جاء في التواريخ السنغالية، وبلغت فتوحهم البنغال ومملكة أَوَدْهَة في الشمال، فكانوا مالكين في القرن الحادي عشر لأقوى ما عرفه جنوب الهند من الممالك، بَيْدَ أن نفوذهم لم يدم طويلًا، فقد كان آفلًا قبل الغزو الإسلامي الذي وقع سنة ١٣١٠.

ويظهر أن عاصمة مملكة جولا في القرن الثاني عشر من الميلاد كانت مدينة أورايور القريبة من تري جنابلي فنُقلت إلى مدينة كنبه كونم في القرن الثالث فإلى مدينة تانجور في القرن العاشر.

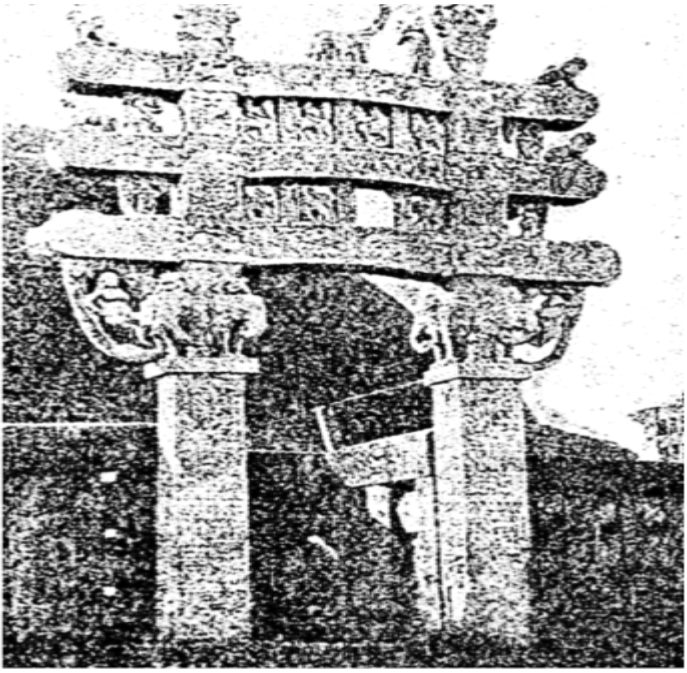

شكل ١-٥: سانجي. منظر الباب الكبير الشمالي «يبلغ مجموع ارتفاعه نحو تسعة أمتار و٦٠ سنتيمترًا.»

وكان الجيرا يملكون ناحية الغرب من مملكة جولا، وناحية الشمال من مملكة بنديا، وجزءًا كبيرًا من ولاية ميسور الحاضرة، وكانت مملكتهم قائمة قبل الميلاد، فقد ورد ذكرها في مراسيم أشوكا أيضًا، وكانت هذه المملكة على جانب عظيم من القوة في القرن الرابع والقرن الخامس من الميلاد كما تشهد بذلك تقاويم الفتوح المنقوشة قديمًا على الحجارة، وبلغت فُتُوح ملوكهم مدًى بعيدًا في الشمال فافتخر ملكهم كوغني راجه الثالث في إحدى الكتابات بوصول جيوشه إلى نهر نربدا، وتمَّ هذا الفتح حوالي القرن الثامن من الميلاد، فاستُدل عليه من معبد قائم على الطراز الدراويدي في إيلورا.

وكانت مدينة تلاكاد، الواقعة على نهر كاويري والبعيدة اثني عشر فرسخًا من شرق ميسور، عاصمة جيرا.

ويُضاف إلى تلك الممالك الثلاث مملكة جالوكيا التي مثلت دورًا مهمًّا في فن العمارة على الأقل، وكان ظهور هذه المملكة بعد تلك بزمن طويل، فقد قامت في القرن السادس من الميلاد، ثم غاب نجمها بعد ستة قرون، وتُقسَّم أسر جالوكيا المالكة إلى بيت جالوكيا الشرق وبيت جالوكيا الغرب على حسب ما كان ملوكهم يقسمون الدَّكَن.

وكان سلطان ذَيْنِكَ الفرعين مبسوطًا، فوق تلك الممالك الثلاث، على أملاك واسعة مشتملة على مملكة ميسور الحاضرة وجزء كبير من مملكة نظام الحالية، وكانا يزعمان أنهما من العِرْق الراجبوتي فجاء طراز مبانيهما الذي هو مزيج من طراز الهند الشمالية وطراز الهند الجنوبية مؤيدًا لزعمها.

وما تركه جالوكيا من المباني قليل، ومن المحتمل أن يكون ذلك قد نَجَم عن اتخاذ المسلمين لما كان يملكه جالوكيا من المدن، كبيجابور وكُلْ برغه، إلخ، مقرًّا لدولهم الكبرى فيما بعد، ولتلك المباني بعض الأهمية مع ذلك، فقد رأى بعض المؤلفين أنها عنوان طراز سموه بالطراز الجالوكياوي.

وفي ولاية ميسور بلغ ذلك الطراز غايته بين سنة ١٠٠٠ وسنة ١٣٠٠ من الميلاد، فتجد أجمل نماذجه في هُلَّابيد وبيلور، ومن المحتمل ألا تكون قد أنشئت قبل القرن الثاني عشر من الميلاد، ويذكرنا ما فيها من فيض الزخرف بالمباني الْجَيْنِيَّة، وليس ما يسترها من النقوش التي تمثل الآلهة الهندوسية شِيوا وباروَتي ووِشنو، إلخ، بأرقى من نقوش المعابد الدراويدية، ونعدها مرحلة انتقال بين طراز شمال الهند وطراز جنوبها أكثر من أن تكون عنوان طراز جديد.

وطَفِق جنوب الهند يُعرَّض للمغازي الإسلامية منذ القرن الثالث عشر من الميلاد، وجاهد المسلمون عدة قرون لفتح أقسام الدَّكَن المختلفة، ولم يوفَّقوا لتدويخ جميعه إلا لوقت قصير، وفي الدَّكَن أقاموا ممالك قوية وإن لم تكن من الشوكة بما يقاس ببأسهم في شمال الهند، وذلك

كما يبدو لنا، عند سكوت التاريخ، من قلة تأثيرهم الديني واللغوي، والفني فيه، ولم يصبح فن العمارة إسلاميًّا، مع ذلك، إلا في المدن التي ظلَّت بأيديهم زمنًا طويلًا، أجل، شاد ملوك من الهندوس، كأحد ملوك مدورا، قصورًا على الطراز الإسلامي، ولكن تأثير هذا الطراز ظل في المعابد الهندوسية كالعدم تقريبًا.

وقعت مغازي المسلمين الأولى للدكن سنة ١٣٠٦ في عهد علاء الدين، فبلغ الجيش الإسلامي شاطئ ملبار في سنة ١٣١٠، وخُرِّبت هُلَّابيد وميسور في سنة ١٣١٠، وكان لوَرَنْغل مثل نصيبهما في سنة ١٣٢٣، ولسرعان ما تم فتح شمال الدَّكَن فقام بأمور حكومته، بعض الوقت، ولاة مسلمون تابعون لملوك دهلي متخذون دَوْلَت آباد مقرًّا لهم.

لم يلبث أولئك الولاة أن نشدوا الاستقلال لأنفسهم فكان أول بيت إسلامي مالك مستقل بيت ملوك بهمني الذي دام سلطانه من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٥٢٦ فاستطاع في أثناء ذلك أن يضم إليه ساحل أوريسة بعض الزمن، ولم تُعَتِّم هذه المملكة أن قُسِّمت إلى خمس ممالك إسلامية مستقلة متحاربة على الدوام، وهذه الممالك هي: مملكة بيجابور «١٤٨٩–١٦٨٩» ومملكة أحمد نَغَر «١٤٩٠–١٦٣٧» ومملكة غول كوندا «١٥١٢–١٦٨٧» ومملكة برار «١٤٨٤–١٥٧٤» ومملكة بيدر «١٤٨٩–١٥٩٩»، فما كان من اقتتال هذه الممالك منعها من التوسع في جنوب الهند فسهَلُ على جنوب الهند أن يحافظ على استقلاله.

شكل ١-٦: خريطة الهند الإسلامية في عهد الملك أكبر «القرن السادس عشر من الميلاد»، «خططها المؤلف».

والواقع أن جنوب الهند كان مقسومًا إلى منطقتين مختلفتين في القرن الخامس عشر وفي النصف الأول من القرن السادس عشر، فأما المنطقة الأولى فكانت واقعة شمال نهر كرشنا تابعة للمسلمين، وأما المنطقة الثانية فكانت واقعة جنوب ذلك النهر تابعة لراجوات من الهندوس معدودين من عمَّال راجه بيجانَغَر، وما في بيجانغر هذه من المباني الرائعة، الخربة الآن، شاهدٌ على ازدهار دولتهم فيما مضى.

وفي سنة ١٥٦٤ فقط وفِّق ملوك الدَّكَن المسلمون المتحدون لتقويض سلطان الهندوس في جنوب الهند وتخريب بيجانغر، ولم يكن تدويخ جنوب الهند هذا إلا ناقصًا مع ذلك، فقد قامت فيه عدة دويلات، كدُوَيلة

تانجو ودويلة مدورا وغيرهما من الدويلات التي حافظت على استقلالها بين الفتن إلى أن نزعه المراتها ثم الإنجليز.

استقر المراتها بتانجور سنة ١٦٧٤، واستولى المسلمون على مدورا سنة ١٧٣٦، ثم استفاد الإنجليز الذين ثبت أمرهم بمدراس سنة ١٧٣٦ من تلك المنازعات ففتحوا جنوب الهند بالتدريج، وما أصاب مسلمي ميسور من الهزيمة سنة ١٧٩٩ في زمن تيبو صاحب أسفر عن تسلم الإنجليز لزمام السلطة العليا في جنوب الهند وعن بسط سيادتهم عليه بأسره، وسنرى، عما قليل، كيف تم لهم هذا الفتح وما هي العوامل التي جعلته ممكنًا.

الفصل الثاني

صلات الهند القديمة بالغرب

تاريخ الغزوات الأوربية – كيف فُتِحت الهند

(١) صِلات الهند بأوروبا في القرون القديمة والقرون الوسطى

كانت أوروبا والهند تتبادلان سِلَعَهما منذ أقدم القرون، ولكن بطرق عرضيَّة، وذانك العالَمان، وإن كانا يتقايضان، لم يتعارفا، وتلك الصلات كانت تتم إما بطريق آسية الوسطى بعد أن تجوب السلع الهندية بلاد التتر وبلاد فارس وإما بطريق مصر بعد أن تقطع هذه السلع البحر الأحمر مارَّة من الخليج الفارسي وسواحل بلاد العرب، والعرب وحدهم كانوا واسطة هذه المقايضات، وظل سكان اليمن الذين كانوا يُعرفون بأهل سبأ محتكرين لها زمنًا طويلًا، وكان تجار مصر، بعد وفاة الإسكندر بـ ١٥٠ سنة، ينالون سلع الهند بواسطة هؤلاء العرب.

وطرق اتصال العرب بالهند كانت ثلاثًا، كانت إحداها برِّيَّةً والأُخريان بحريتين، فأما الطريق البرية فكانت تصل بواسطة القوافل أعظم مراكز الشرق كسمرقند ودمشق وبغداد وغيرها بالهند مارة ببلاد الفرس وكشمير، وأما الطريق البحرية فكانت أكثر استطراقًا، فكان التجار الذين يسلكونها يأتون إلى موانئ الخليج الفارسي حيث يتسلمون سلع الهند لينقلوها إلى البحر الأحمر محاذين سواحل بلاد العرب، ومن البحر الأحمر كانت تلك السلع تُنقل إلى الإسكندرية حيث كان الفينيقيون ثم التجار الأوربيون من جنوه وبيزه والبندقية يأخذونها ليوزعوها بين مرافئ البحر المتوسط، فكانت مصر، بذلك، خط وصل بين الشرق والغرب، وكانت تلك التجارة مصدر ثروتها المهم.

صلاتُ الفرس بالهند كانت أُولى الصلات لا ريب، فنعلم مما ذكره هيرودتس الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد أن دارا بن هستسب «أراد أن يعرف البحر الذي يصب فيه نهر السِّنْد» فأرسل بعثة بقيادة

سيلاكس فسارت هذه البعثة من جوار أتك الواقعة على ضفاف نهر السِّنْد مع هذا النهر إلى البحر، ثم أبحرت إلى الغرب فوصلت إلى البحر الأحمر بعد سفر دام ثلاثين شهرًا «فبعد أن تمَّت هذه الرحلة البحرية أخضع دارا الهنود وبسط سيادته على ذلك البحر.»

ولم يكن الهنود الذين حكى عنهم هيردوتس فكانوا يدفعون إلى دارا الأتَاوَى،[176] كما تشهد به الكتابات المسمارية، إلا من الهمج المجاورين لنهر السِّنْد، فنعلم مما رواه هيرودتس أن من عاداتهم أكل أقربائهم وأصدقائهم إذا مرضوا «وعَدَّ نسائهم من الأنعام»، ومن المحتمل أن دامت تلك الصلات في عهد خلفاء دارا، ودليلنا على ذلك وجود أفيال في جيش ملك الفرس دارا قزمان حينما غلبه الإسكندر سنة ٣٣٠ قبل الميلاد.

ولم يَغْدُ أمر الهند معروفًا بعض المعرفة إلا بعد غزو الإسكندر سنة ٣٢٧ قبل الميلاد، وكاد هذا البطل المقدوني لا يمسُّها، فلم يوغل فيما هو أبعد من نهر السِّنْد، ولم يبقَ أحد من جنوده في الهند بعد عشر سنين من حملته، فأسفرت هذه الحملة عن لفت الأنظار إلى الهند بعد أن كان أمرها مجهولًا تقريبًا.

غادر الإسكندر بلاد الهند، فلم تلبث الممالك التابعة له والمَرْزَبات[177] التي أقامها أن رفعت راية العصيان، ففترت العلاقات التي تربط الهند بدولته العظمى بعد موته بالتدريج، فبدت الهند طليقة من الفاتحين الأجانب بعد عشر سنوات.

على أن صلات الإغريق بالهند دامت بواسطة ممالك بقطريان الإغريقية كما يثبت ذلك خبر الوفد الذي أرسله مؤسس المملكة السورية السلوقي بزعامة ميغاستين إلى باتلي بوترا «بتنه» حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد، وهذه هي الرحلة الأولى التي نفذ الأوربيون فيها قلب الهند فكانت

176 الأتاوى: جمع الإتاوة وهي الخراج.

177 المرزبة: الرئاسة عند الفرس.

أحدوثة ميغاستين التي انتهت إلينا المصدرَ الوحيد عن أحوال الهند في ذلك العصر.

ومما لا شك فيه أن الهدف المقصود من الوفد هو أن يُحَوِّل عن مصر إلى تدمر ودمشق وأنطاكية مجرى التجارة الذي كان يسلكه العرب فيؤدي إلى اغتناء البطالمة كما أدَّى إلى إثراء خلفاء القاهرة فيما بعد، فنشأ عن ذلك انتظام العلاقات بين بقطريان وشمال الهند الغربي انتظامًا نستدلُّ عليه من المؤثرات في مباني شمال الهند الغربي.

أضحت مصر ولاية رومانية سنة ٣٠ قبل الميلاد فاعتقد أغسطس، كما كان الناس يعتقدون، أن بلاد العرب هي مصدر التوابل والأبازير مع أن العرب كانوا يأتون بها من الهند، فوجَّه إلى بلاد العرب حملة لم يُكتب لها فوز، وفي زمن القيصر كلوديوس، أي في القرن الأول من الميلاد، دفعت ريحٌ سفينةً إلى سيلان اتفاقًا فعُلِم بذلك أن من الممكن الوصولَ إلى الهند من سَوَاءِ البحر العظيم بفعل بعض الرياح بدلًا من محاذاة السواحل كما كان يُسار قبل ذلك، فصار تجار من الرومان يقومون بهذه الرحلة من مصر في سبعين يومًا على رواية بلين فيبلغون مَنغلور الواقعة بين غوءا وكاليكت، وفي ذلك الحين ألف تاجر إسكندري كتابًا سماه «رحلة في بحر أَرِيثَرة»[178] فنجد فيه بعض المعارف الجغرافية.

وما عرفه القدماء عن الهند في القرن الثاني من الميلاد نَعلمه من كتاب بطليموس في الجغرافية، وما في هذا الكتاب من المعارف فسطحيٌّ مقصور على وصف الساحل.

وقلَّت الصلات بالهند في دور انحطاط الدولة الرومانية، ثم قطعت تمامًا حينما فتح العربُ العالم القديم بقيادة خلفاء محمد، وظلت مقطوعة عن العالم النصراني أكثر من ألف سنة، فمن أراد الاطلاع على حال الهند في القرون الوسطى فليطالع ما جاء في كتب سُياح العرب من

178 بحر أريثرة: هو المحيط الهندي الآن، وفي العصور الأولى أطلق اليونان هذا الاسم على المحيط الهندي وخليج العرب والخليج الفارسي "المترجم"

الأنباء، ومن هؤلاء السياح نذكر المسعودي الذي زارها في أواسط القرن العاشر وابن بطوطة الذي طاف فيها سنة ١٣٣٠، إلخ.

وزار الهند، قبل سياح العرب، حجاج من الصينيين البُدَّهيين، وما رواه هيوين سانغ عن الهند في القرن السابع من الميلاد فأهمُّ ما انتهى إلينا عن الهند في ذلك الدور.

وأولُ من وُفِّق من الأوربيين لدخول الهند رجلان من البندقية، أحدهما: ماركو بولو الذي زارها في القرن الثالث عشر من الميلاد، والآخر، وهو من أبناء بلده، زارها في القرن الخامس عشر من الميلاد بعد أن نزل من الفرات والخليج الفارسي فوصل إلى كمبي «كهمبات».

وحرَّكت عجائب الهند الخرافية عوامل الطمع في الشعوب الأوربية في القرون الوسطى، فصار كل واحد منها يبحث عن طريق للوصول إليها غير الطريق التي منعهم المسلمون منها، وليس بمجهول أن كريستوف كولونب وجد أمريكا في طريقه إلى الهند، فاعتقد، حين وَطِئَ جزر الأنتيل أنه نزل إلى الجزر القريبة من شواطئ الهند، فمات هذا الملاح الكبير قبل أن يَعرف خطأه.

والبرتغاليون هم الذين وجدوا الطريق المنشودة فكان لاكتشافها أهم النتائج، ففي سنة ١٤٩٨ جاوز فاسكودوغاما رأس أفريقيا الجنوبي متوجهًا إلى الهند فبلغ كاليكت الواقعة على شاطئ ملبار من جنوب الهند.

والبرتغاليون، حين وفقوا لهذا الاكتشاف الكبير، وصلوا أوروبا بالهند رأسًا فقضوا بذلك على تجارة مصر التي ظلت مستودع السلع الهندية عدة قرون، ولم تنقطع علاقات أوروبا بالهند منذ ذلك الحين فانقض كل أفَّاق أوربي عليها بغية استغلالها، ومنذ أوائل هذا القرن فقط كُشف أمر اللغة السنسكرتية، وتوالت البعثات العلمية على الهند بانتظام فكُشف عن الهند ذلك الغطاء الذي كان يَحْجُبها عن أوروبا فكانت تُعَدُّ مكانًا لكل عجيب.

(٢) إقامة الأوربيين الأولى بالهند

وصل فاسكودوغاما إلى سواحل الهند حيث يقيم زعيم صغير اسمه زامورن الكاليكتي، فاستولى ألبوكرك على غوءا فاتخذها عاصمة منطقة الهند البرتغالية، ولم يفتأ البرتغاليون يبسطون سلطانهم فَدَانَ لهم قسم كبير من الساحل الغربي الممتد من ملبار إلى جزيرة كاتهياوار.

والبرتغاليون، وإن عرفوا أن يفتحوا، جَهِلوا المحافظة على ما فتحوا، فلم يلبثوا أن تَوَارَوْا أمام أوربيين آخرين حينما أتوهم لينافسوا.

والهولنديون أول من بدءوا بمنافستهم، فكانت حملتهم الأولى في سنة ١٥٩٦، فلم يَنْقَضِ نصف قرن حتى طردوهم، والهولنديون لو لم يزحزحهم الإنجليز عن مكانهم؛ لأقاموا في الهند إمبراطورية عظيمة، ولكن موارد هولندا إذ كانت ضعيفة في أوروبا لم تقدر هولندا على مقاتلتهم باستمرار فتخلَّت عن مكانها لهم.

وفي سنة ١٦٠٠، أي في عهد الملكة إليزابث، أُلِّفت أول شركة إنجليزية للتجارة في الهند فبدت وضيعة في أوائل الأمر، وبدا وُكلاؤها الذين بُعثوا إلى بلاط المغول خُضَّعًا، وفي سنة ١٦٠٨، حين ظهر هوكينز الإنجليزي سفيرًا لملك إنجلترا جيمس الأول ولشركة الهند الإنجليزية لدى بلاط الملك جهانكير المغولي قال له وزراء هذا الملك إن ملك إنجلترا ليس غير سيد جزيرة صغيرة يسكنها صيادون بائسون، فلما مضت سنتان ونصف على إقامته هنالك من غير أن يظفر بطائل عند الملك المغولي ضَرَع إليه أن يعطيه كتابًا إلى مولاه فقال له الوزير الأول: إن مما لا يناسب قدر ملك مغولي أن يكتب إلى أمير صغير كملك إنجلترا.

بَيْدَ أن تلك الشركة الإنجليزية لم تَقْنَطْ، فنالت، بالدسائس، براءة من الملك المغولي سُمح لها فيها بأن تتاجر في سُورت، فاتسعت دائرة أعمالها بالتدريج فكان لها في أقل من ستين سنة فروعًا في كل مكان تقريبًا، فاشترت في سنة ١٦٦١ مدينة بَمْبِي من البرتغال، ثم استقرت في سنة ١٦٧٧ بمدراس، ثم عَيَّنت في سنة ١٦٨١ قائدًا لكتائب بالهند، ثم أرادت في سنة ١٦٨٦ أن تقاتل كتائب الملك المغولي بالبنغال فهُزِمت.

قام الإنجليز مقام البرتغاليين والهولنديين شيئًا فشيئًا، ولكنهم لم يُعَتِّموا أن قابلوا أعداء آخرين طامعين في فتح الهند وجهًا لوجه، فرأوا أن يزيلوهم من طريقهم أيضًا، فهؤلاء المنافسون الجدد هم الفرنسيون الذين أخذوا يُثبِّتون أقدامهم في الهند وإن أتوها متأخرين، فقد أنشئوا في سنة ١٦٦٤ شركة فرنسية للتجارة في الهند تحت رعاية كولبر.

لم تفكر دولة أوربية ثانيةً في بسط سلطانها، ولو قليلًا، على جزء من داخل الهند ما ظلت دولة المغول قائمة، مكتفيةً بما لها من المؤسسات في سواحلها، ولكن أبواب المطامع فُتحت بوفاة أورنغ زيب الذي كان موته نذير انهيار سلطان المغول، فلما تم انحلال الدولة المغولية العظمى قامت على أنقاضها عدة ممالك، فصار من الممكنات إقامة إمبراطورية جديدة في الهند بالتدخل فيما يقع بين أمرائها الكثيرين من المنازعات الداخلية، وفي الهند كان الفرنسيون والإنجليز وحدهم ثابتي الأساس قادرين على وراثة تلك التركة التي يتنازعها كثير من الخصوم، فَلَسُرْعان ما اصطرعوا.

(٣) الصراع الفرنسي الإنجليزي في الهند

أول نزاع بين الفرنسيين والإنجليز كان في جنوب الهند، ففي جنوب الهند كانت الفوضى عظيمة، فكان معظم الدَّكَن ملكًا لمملكة حيدر آباد المستقلة، وكان أمير أركت يدير كرناتك بالنيابة عن حيدر آباد، وكان أقصى الجنوب مقسومًا بين الممالك الهندوسية: ترى جنابلي وميسور وتانجور، وكان الفرنسيون يملكون بونديجيري ومتاجر غير ذات قيمة في ماهي وكاري كَل وجندر نغر، وكان الإنجليز يملكون مدراس وبمبي ومرافئ كثيرة على الشاطئ، وكان المراتها يَشُنُّون الغارات على كل مكان.

وقعت الحرب بين فرنسا وإنجلترا في أوروبا سنة ١٧٤٠ فَعَنَّ لدوبليكس الذي عُيِّن سنة ١٧٤١ حاكمًا عامًّا للممتلكات الفرنسية في الهند أن يطرد الإنجليز من الهند وأن يحوِّلها إلى إمبراطورية فرنسية، فوُفِّق سنة ١٧٤٦ لإجلاء الإنجليز عن أكثر مراكزهم، ولا سيما عن مدراس بعد وقائع كثيرة، فلم يلبث أن أصبح سيد ساحل الهند الشرقي بأسره، وهو إذ رأى أنه لا يقدر أن ينال من حكومته رجالًا ولا أموالًا عقد

عزيمته على عدم مطالبتها بأي مدد، وعلى فتح أعظم إمبراطوريات العالم، وطرد جميع الإنجليز بمئات الأوربيين الذين هم كل من بقوا عنده مستعينًا بنائبه بوسى.

واغتنم دوبليكس فرصة وفاة نظام حيدر آباد فأَجْلَس أحد أنصاره على عرشه، وتمكن من نصب أميرٍ مُوَالٍ على أَرْكُت، ودوبليكس ذلك عُيِّن، في مقابل ما ساعد به كثيرًا من الأمراء، أميرًا على جميع البقاع الواقعة جنوب نهر كرشنا، أي على بلاد تَعْدِل فرنسا مساحة، ويزيد دخلها عن خمسة عشر مليون فرنك، وهكذا استفحل أمر دوبليكس وعَظُم نفوذه من غير أن يُكلِّف فرنسا شيئًا، فلما رأى الإنجليز أنهم كادوا يَجْلُون عن جميع ما يملكون في الهند تذرَّعوا بِحَوْك الدسائس في قصر فرساي، فاستطاعوا، بوسائل لا يزال أمرها سرًّا غامضًا، أن يحملوا لويس الخامس عشر على استدعاء دوبليكس وعلى ترك جميع ما فتحه، فكان هذا أخزى عهدٍ قطعه ملكٌ فرنسي.

يئس دوبليكس فعاد إلى فرنسا ليموت فيها بائسًا، ومن المؤسف أن أطاع أمر استدعائه بعد أن أصبح، بالحقيقة، أميرَ عِدَّة ولايات واعترف ملك المغول بإمارته وعاد لا يخشى ضياعها، فلو خالف أمر مولاه ذلك لأسدى إلى فرنسا خدمة لا تُقدَّر بثمن ما دامت تلك المعاهدة الشائنة لم تحُلْ دون محاربة إنجلترا ثانية في سنة ١٧٥٧، ولم يكن مُجديًا عزم فرنسا، إذ ذاك، على تجديد ما صنعه دوبليكس بعد أن أُقصي عن الهند هذا الرجل العظيم، فخلفه الأسيف لاللي الذي جُهِّز بوسائل لم يَنَل دوبليكس مثلها في أي زمن، فلم تنفعه هذه الوسائل ما عَطِل من دهاءٍ كدهاء دوبليكس ضروري لتمام النصر له، فقد غُلب في كل مكان؛ فخسر في سنة ١٧٦١ حتى بونديجيري فعاد إلى فرنسا فحُكم عليه بالقتل، فقُتل مع أن الإنصاف يقضي بقتل أولئك الذين استدعوا دوبليكس فأضاعوا على فرنسا إمبراطورية الهند.

تَخَلَّص الإنجليز من مزاحمة الفرنسيين، فَخَلَا لهم الجو، فاتسعت فتوحهم بتدخلهم الدائم فيما كان يقع بين الأمراء المحليين من منازعات،

وبتسليط بعض هؤلاء الأمراء على بعض، فكانت هزيمة ملك ميسور الأخير تيبو صاحب في سرنغابتم في أواخر القرن السابق، وكانت محارباتهم الطويلة للمراتها في أوائل هذا القرن الصفحات الأخيرة المهمة لفتحهم الهند، ثم ضُمت إليهم بالتدريج الممالك الهندية التي لم يستولوا عليها بعدُ متذرعين للوصول إلى هذا بأية ذريعة، وعاد الأمراء، الذين لم تُنزع أملاكهم لما قاموا به من الخِدَم، لا يمارسون سلطة سياسية، وأضحوا معدودين من أتباع إنجلترا، ومملكة نيبال وحدها هي التي حافظت على استقلالها التام إلى أيامنا.

(٤) كيف فُتحت الهند

ليس من مقاصدنا أن نُفَصِّل في هذا الكتاب الوقائع التي قام بها الإنجليز لفتحهم الهند، ولكن من المفيد أن نشير إلى المبادئ العامة التي سار الإنجليز عليها، وتلك المبادئ قد اهتدى إليها دوبليكس الذي هو من أكبر دهاة التاريخ، فأنصفه الإنجليز فأقرُّوا بأن اتخاذهم لأساليبه أدى إلى فتحهم الهند التي لم يحلُموا بتدويخها في أي زمن، فاسمع ما قاله المؤرخ الإنجليزي الكبير ماكولي:

دوبليكس هو أول من أدرك إمكان إقامة إمبراطورية أوربية في الهند على أنقاض المملكة المغولية، فقد وضع هذا الداهية ذو النظر الثاقب خطة ذلك حين كان أمهرُ موظفي الشركة الإنجليزية لا يفكرون في غير تنظيم قوائم الأوساق[179] وحساباتها، ولم يقتصر دوبليكس على انتحال غرض، فقد قدَّر ببصره الحديد الوسائل المؤدية إلى بلوغ ذلك الغرض، فرأى أن جميع ما يمكن أمراء الهند أن يحشدوه من الجيوش في ميدان القتال لا يقدر على مقاومة فئة قليلة من الجنود المدرَّبين الذين يُقادون بحسب فن الغرب الحربي، ورأى أيضًا أن أهالي الهند يمكنهم أن يتحولوا إلى كتائب يباهي بقيادتها مريشال سكس أو فردريك الكبير إذا كان على رأسهم زعماء أوربيون، ورأى أيضًا أن أفضل ما يستطيع أن يتمسك به

179 الأوساق: جمع الوسق وهو الحمل.

أفَّاق أوربي ليصل إلى الحكم في الهند هو أن يوجه الأحوال والأهواء، وأن يتكلم بلسان إحدى اللُّعَب الفخمة التي تحمل ألقاب الملوك أو الأمراء، فكان دوبليكس أولَ من طبقوا فنون الحرب والسياسة التي سار عليها الإنجليز بعد سنوات قليلة موفَّقين.

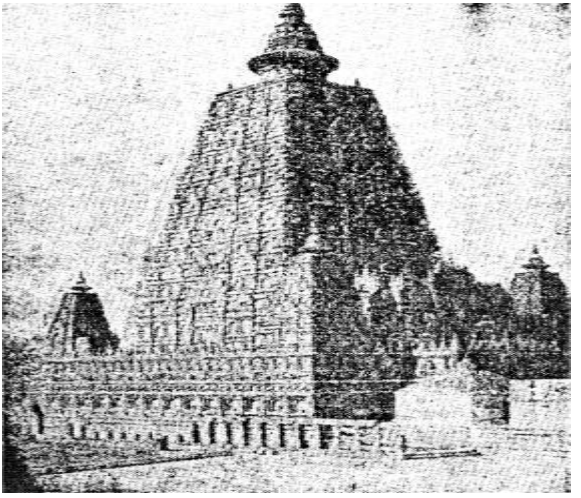

شكل ٢-١: بدهه غيا.

المعبد الكبير «يبلغ ارتفاعه ٥٢ مترًا»، «تدل صورة هذا المعبد التي التقطها المؤلف على حاله الحاضرة بعد ترميمه وإصلاحه، وقد أنشئ قبيل الميلاد، ونرجح أن يكون سياجه الذي يرى بعض أنقاضه في هذه الصورة قد أقيم في زمن أشوكا، في القرن الثالث قبل الميلاد.»

ثم كرر الفيلسوف الإنجليزي ستيوارت مِيل ما قاله ماكولي تقريبًا عندما بحث في أسباب فتح الإنجليز للهند فقال:

إن الاكتشافين المهمين اللذين انتهى الفرنسيون إليهما لفتح الهند هما: ضعفُ جيوش الأهالي تجاه الكتائب الأوربية المدرَّبة، وسهولة تدريب من يستخدمهم الأوربيون من الأهالي على النظام الأوربي الحربي.

وإلى ذَيْنِكَ السببين يعزو الإنجليزي المِفْضَال الأستاذ سيلي فتحَ الهند، فبعد أن ذكرهما في كتابٍ نشره حديثًا لم يرَ أن ذلك الفتح نشأ عن بسطة الإنجليز في الخَلق والخُلق كما يتشدَّق به بعض هؤلاء، وعلى ما أراه من عدم القسوة على الإنجليز، خلافًا للأستاذ سيلي الشديد في حكمه على أبناء قومه، أُضيفُ إلى السببين المذكورين آنفًا عنادَ الإنجليز وعزمهم الذي لا ينثني، ففي هذين الخُلقين سر سيادتهم وبقاء سلطانهم.

وليس ذانك الاكتشافان وحدهما ما أسفرت عنه عبقرية دوبليكس، فالإنجليز مدينون له، أيضًا، باكتشاف ثالث طبقوه، فقد قام هذا الاكتشاف، الذي هو مثل ذَيْنِكَ الاكتشافين أهمية، على إمكان تدويخ مستعمرة بأموال أهاليها المغلوبين ورجالهم، ومن الغريب أن يعجِز الفرنسيون عن العمل بهذا المبدأ الذي اهتدى إليه واحدٌ منهم، فقد أثبت مثال تونكن ومثال الجزائر وغيرهما من الأمثلة درجة عجز المكتشفين لأحد المبادئ عن تطبيق هذا المبدأ في بعض الأحيان.

والإنجليز، حين اتخذوا مبادئ دوبليكس نبراسًا لهم، توصلوا إلى فتح الهند برجال الهندوس وأموالهم، وإن شئت فقل بجنودٍ غير جنودهم ونقودٍ غير نقودهم،[180] فالحق أن الهند دانت للإنجليز بجيوش مؤلفة من الهندوس وبأموال أدتها حكومات من الهندوس.

وقد يَعجب الإنسان، أولَ وهلةٍ، من قهر تلك الملايين الكثيرة بسهولة، مع أنه يجب أن تكون جيوش الفاتحين مؤلفةً من جنود كثيرين، لا من بضعة آلاف من الجنود، ولكن عَجَبه يَبْطُل إذا قرأ فصول هذا الكتاب السابقة، ففيها يرى أن كلمة «الهند» ليست سوى تعبير جغرافي، وأن الهند بلادُ شعوبٍ مختلفة أشد الاختلاف، وأنها لا تحتوي على ما تعرفه

180 لم يُقتل في معركة بلاسي — التي خاض الإنجليز غمارها ضد الهندوس في سنة ١٧٥٧ فكانت أشهر المعارك التي دخلوها لِمَا أَسْفَر انتصارهم فيها عن انتقال سيادة البنغال إليهم وخضوع الهند بأسرها لهم فيما بعد — سوى اثنين وعشرين جنديًّا ولم يُجرح فيها سوى خمسين رجلًا، وكان جيش العدو فيها مشتملًا على ٦٨٠٠٠ مقاتل وكان الجيش الإنجليزي لا يشتمل فيها على غير ٦٥٠ أوربيًّا خلا من فيه من الهندوس.

أوروبا من معنى «الأمة الواحدة»، أي وحدة العِرْق واللغة والمشاعر المؤدية إلى وحدة المصالح، وأنها لا تشتمل على قومية هندية كالقومية الفرنسية أو القومية الألمانية أو القومية الطليانية، إلخ، وأن بعض شعوب الهند المختلفة أجنبي عن بعض، وأن نظام الطوائف الذي يفرِّق بين مختلف طبقات العِرْق الواحد، كما سنرى ذلك، يوجب نظر أي هندوسي إلى أكثرية أبناء قومه الساحقة كغرباء مثل الأوربيين كما يَعُدُّ الراجبوتي سكان جنوب الهند من الغرباء.

ولا نطيل البحث في فقدان الشعور القومي في الهند فُقدانًا لا يدركه الأوربيون الذين لم يطوفوا فيها، قال الأستاذ الإنجليزي سيلي: «تغيب إمبراطورياتنا الهندية عن الوجود عندما يبدأ الشعور القومي ينمو فيها، وعندما يشعُر الناس فيها بأن من العار مساعدتنا على دوام سلطاننا ولو لم يبتغوا طرد الأجنبي منها بالفعل، ما دام ثلثا الحاميات مؤلفين من السكان الأصليين.»

ولما لا تراه من الشعور القومي في الهند تجد سلطان الإنجليز قويًّا فيها، وتجد ما يحدث فيها من الفتن غير ذي خطر، ومن ذلك أن ثورة السباهي التي اشتعلت سنة ١٨٥٧ كانت وليدة شكاوى عسكرية خاصة، فلم تكترث لها شعوب الهندوس فأطفأتها كتائب هندوسية مخلصة تقودها فئةٌ قليلةٌ من الإنجليز «ككتائب الغوركها وفرق البَنْجَاب ومشاة السِّك.»

وإذا عَدَوْتَ المغازي الأجنبية التي قد يقوم بها أوربيون وجدت أن أكبر خطر على سيادة الإنجليز في الهند بزوغ شعور قومي فيها وإن كنا نرى بُعْدَ ذلك في الوقت الحاضر، والإنجليز أنفسهم، هم الذين يتعهدون، بما يسلكونه من أساليب التربية التي ندرس نتائجها في فصل آخر، نموَّ ذلك الشعور ويُعِدُّون بذلك انهيار إمبراطوريتهم العظمى..

الفهرس

إهداء الكتاب 5

مقدمة 6

مقدمة المؤلف 10

الباب الأول: البيئات .....

الفصل الأول 20

الأرض والأجواء 20

الفصل الثاني 54

وصف مناطق الهند العام 54

الفصل الثالث 69

النباتات والحيوانات والمعادن 69

الباب الثاني: العروق .....

الفصل الأول 85

منشأ عروق الهند وتقسيمها 85

الفصل الثاني 106

عروق الهند الشمالية أو الهندوستان 106

الفصل الثالث 139

عروق الهند الوسطى والهند الجنوبية 139

الفصل الرابع 174

الصفات الخلقية والعقلية المشتركة بين عروق الهند المختلفة 174

الباب الثالث: تاريخ الهند .....

الفصل الأول 188

تاريخ الهند قبل المغازي الأوروبية 188

الفصل الثاني 215

صلات الهند القديمة بالغرب 215